شروح المرجع المدرسي

شرح
دعاء الافتتاح

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

شُروحُ المرجعِ المُدرّسيّ

شرح دعاء الافتتاح

سماحةُ المرجعِ الدّينيّ آيةُ اللهِ العُظمى الحاجُ
السّيّدُ محمّدتقي المُدرّسيُّ

مركز الفكر الرسالي
للدراسات والأبحاث

محفوظة جميع الحقوق

هوية الكتاب:

* **الكتاب:** شرح دعاء الإفتتاح. مجموعة (شروح المرجع المدرسي).
* **المؤلف:** المرجع الديني سماحة آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي (دام ظله).
* **الطبعة:** الأولى: ١٤٤٣هـ/ ٢٠٢٢م.
* **الناشر:** مركز الفكر الرسالي للدراسات والأبحاث.
* **الإخراج الفني:** الكليم جرافيك:

mohd.he@gmail.com
+973 36577227

مركز الفكر الرسالي للدراسات والأبحاث
www.resali.net
alfekralresali@gmail.com


بسم الله الرحمن الرحيم



في البدء



بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم لك الحمد كما أثنيت على نفسك وفوق ما يقول القائلون.

اللهم صلِّ وسلِّم على أشرف خلائقك الذي بعثته بالحق ليكون للعالمين نذيرًا، محمد بن عبد اللَّه، وعلى الأئمة الهداة من آله الطاهرين.

اللهم وفِّقنا لبلوغ ما نتمنى من رضوانك، وأيّدنا في سبل التقرُّب اليك، وسدِّد خطانا لاتِّباع نهج أوليائك.

وبعد:

أيّها القارئ الكريم..

إن أحببتَ أن يحدّثك ربُّ العالمين فاتلُ القرآنَ، وإن أردتَ أن تتحدَّث مع اللَّهِ فصلِّ، أو ادعُ ربّك.

وسواءٌ قرأتَ القرآن، أو دعوتَ ربَّك، فإنَّ المسافة المصطنعة بينك وبين سُبحات وجهِ ربّك تقتصر، بل قد تتلاشى.

ولم يَدَعْ القرآنُ -الكتاب الذي أنزله اللَّه دليلًا إليه، وسراجًا منيرًا في طريق قربه- لم يدع الناس بلا توجيه في «**فنِّ الحديثِ مع الرَّبِّ**» إنْ صح التعبير.

فآياتُ الذّكر قد قصّت علينا: كيف دعا الصّالحون اللَّه فاستجاب لهم ربُّهم دُعاءهم.

ومضامينُ الدُّعاء القُرآنيّ غنيّة بآدابِ الحديثِ مع اللَّه، كيف نحمده ونُثني عليه، ونستغفرهُ ونتقرَّبُ بالإنابةِ إلى جنابه، ثمَّ كيفَ نبدأهُ بطلبِ أفضلِ الحاجاتِ، دون أنْ ننسى الشؤونَ الثانوية، وكيف نتذكّر الوالدين والأقربين والإخوة المؤمنين عند الدُّعاء، وعشراتٍ من الآدابِ الأخرى.

وصاغ الرَّسولُ الكريمُ أدعيةً عاليةَ المضامينِ بوحيٍ مِنْ القُرآنِ الحكيم، ومضى أهلُ بيتهِ الطاهرونَ على نهجه. فإذا بهم يملؤونَ الآفاقَ بروائعِ الدُّعَاءِ الّتي احتوت على دائِرةٍ للمعارفِ الإلهيةِ، ابتداءً من معرفةِ اللَّهِ ومعرفةِ أسمائهِ الحُسنى، وطُرقِ التَّوسلِ إليه، وأساليبُ التَّوبةِ، واستمرارًا مع صفاتِ الرُّسل، وانتهاءً بِتكريسِ الصِّفاتِ الرِّساليَّةِ عند الإنسانِ المُسلم.

وممَّا يؤْسفُ لهُ أنَّ مخازنَ الأدعيةِ المأثورةِ، لا نزالُ بعيدينَ عنها بالرُّغم من فقرنا إليها. وترانا نلتَمِسُ الهُدى والحِكَمَ والنصائحَ من تراثِ اليونانِ، أو قدماءِ الفُرْسِ، أو مرتاضي الهندِ، وعندنا ما يفيضُ عن حاجاتنا من تراثِ الرَّسولِ وأهل بيته. ورُبَّما يعود ذلك إلى السببين التّاليين:

١- بالرغم من كثرةِ عددِ العُلماءِ الذين عكفوا على دراسةِ مُختلفِ أبوابِ الفقه، ومقدماتهِ من العربيةِ والمعانيَ والبيانِ والأصولِ، فإنّ قليلًا منهم أعطوا جانب الأدعيةِ حقّها. رُبَّما للاعتقاد بأنَّ الحاجة إلى الفِقْهِ أشدّ من الأدعيةِ، ما دامت الأدعيةُ المأثورةُ منتشرة بين المسلمين، ويتلونها في كل صباحٍ ومساء، وبكلِّ مناسبة.

بينما كانت الأدعية، ومِنْ قَبْلِها القرآنُ وأحاديثُ الأخلاقِ المواعظِ هي

الأحرى بالاهتمام؛ لأنّها تعطي أصولَ العلم، وقواعدَ المعرفة، وليس الفقه -على أهميته- سوى حقل بسيط من مجموع الرسالات الإلهية، أما الأهم فهو إصلاح عقائد الناس، وتعريفهم بحقيقة الدّنيا، وتذكيرهم بأيّامِ اللَّه، وتخويفهم الآخرة، وترغيبهم في الجنّة، وتزكيةِ أنفسهم، وتنظيمِ مجمل علاقاتهم بالخالقِ وبالناسِ وبالمخلوقات.

ونشأ من قلةِ الباحثينَ في الأدعيةِ فراغٌ هائلٌ في تنظيم النُّصوصِ وتأليفِ مُختلف الكُتُبِ الّتي تَفِي بِحاجاتِ النّاس فيها، علمًا باختلاف الناس في مراتب التَّعبد، فمنهم من يبتهل إلى ربّهِ فيحتاجُ إلى مِثلِ كتابِ (الإقبال) و(المصباح)، ومنهم المقتصد فهو بحاجة إلى مثل (مفاتيح الجنان)، ومنهم الذين يبحثون عن أدعية سهلة وهم أغلب الناس الذين تغنيهم مثل (الصحيفة السجادية).

ولولا كتاب «**مفاتيح الجنان**» للمحدِّث الكبير الشيخ عباس القمي رضوان اللَّه عليه، وغيره من الكتب المماثلة، إذًا كانت المكتبة الإسلامية تعيش فراغًا هائلًا.

ولست أعرف عدد الطّبعات ولا عدد النُّسخِ التي طُبِع بها كتابُ مفاتيح الجنان، ولكنّي أعتقدُ أنَّ النُّسخ بمئات الألوف، وأنّه لا يصل إلى حجم نُسَخِهِ ولا عدد طبعاته أي كتابٍ دينيٍ غيرُ كتابِ اللَّهِ المجيد في هذه البلاد.

أَوَلَيس ذلك دليلاً على مدى الحاجة التي كانت الجماهير المؤمنة تحسّ بها؟.

بينما نجد الاهتمام منصبًا على تأليف كتب أخرى، بالكاد يصرف منها ألف نسخة، وتتراكم في مخازن المكتبات.

٢- النظرة السطحية التي ينظرها البعض إلى الأدعية المأثورة، التي احتوت على كنوز معارف آل بيت الرسول ﷺ. فالأدعية -عندهم- مجرّد أذكار لا بد أن يردّدها الفرد -بوعي أو دون وعي- ليحصل على الثواب.

ولا ريب في أنّ من يقرأ دعاءً رغبةً في ثواب اللَّه، ورجاء رحمته أو تسليمًا لأمره سبحانه فسوف يُؤتيه اللَّه أجرًا عظيمًا، ولكن هل هذا كل هدف الأدعية؟.

أم أنّ دعاء مكارم الأخلاق هو برنامج أخلاقي متكامل، ودعاء الافتتاح هو موسوعة عقائدية شاملة، ودعاء أبي حمزة الثمالي هو زخمٌ روحيٌ وومضةٌ عرفانيةٌ، وترتيبٌ لسُلَّم الأولوياتِ عند البشر. إنّ مفردات الأدعية -لو تأملنا فيها- لكانت دروسًا في الحياة غنيّة بالمعاني الحضاريّة.

وحتى الفقهُ الإسلاميّ لا بد أن يستمدّ قيمهُ التي تستهدف مفردات الأحكام تحقيقها، يستمدّها من الأدعية. أَوَلَيس القانون -أو الحكم الشرعي- يستهدف بالتالي تحقيق قيم معيّنة، مثل إقامة الحق والعدل، وتحقيق الفضيلة، والإحسان والخير بين النّاس؟!، فمن أين يستقي هذه المثل وتحديداتها، وأولوياتها، وتقاطعاتها، أَوَلَيس من النّصوص الملهمة للحكم الشَّرعيّ، والأدعية المأثورة من تلك النّصوص!؟.

قديمًا عندما شرعنا في دراسة مقدّمات الفقه الإسلاميّ، وفي أول يوم من أيام دراستنا التّمهيديّة علّمونا هذه الحكمة الرائعة: «**أولُ العِلم معرفة الجبَّارِ، وآخرُ العلم تفويضُ الأمرِ إليهِ**». وأنا اليوم أتساءل: إذا كان أولَ العلم معرفة الجبّار، فلماذا تركنا دراسة الأدعية التي تساعدنا على معرفة اللَّه؟.

وإلى متى يبقى الهجرُ بيننا وبين أغنى كنوز المعارف الروحيّة؟.

وفي الختام:

أقدّم إليك أيها القارئ الكريم، مجموعة محاضرات ألقيتها على المصلين في أيام شهر رمضان المبارك لعام ١٤٠٣ هجرية. واستراحت في أشرطة الكاسيت حتى قيّض اللَّه لها أحد إخوتنا الكرام فأعاد صياغتها ووثّق نصوصها وأعدها للطّبع بصورتها الحاليّة، فشكره اللَّه على ذلك وأثابه من فضله ووفقه للمزيدِ من الطاعات.

وحيث أقدّم هذا الكتاب، آملُ ألَّا تنساني من صالح دعواتك، فإن دعاء المؤمن في حق أخيه مستجاب.

نسأل اللَّه لي ولك المغفرة والرضوان والهدى والاستقامة، إنه سميع الدّعاء.

محمد تقي المدرسي

٢١/ محرم الحرام/ ١٤٠٥ هجرية

الفصل الأول
الدعاء في القرآن

١ - كيف ندعو اللَّـه؟.

٢ - ادعوني استجب لكم.

(1)

كيف ندعو اللَّه؟

- ﴿وَإِذا سَأَلَكَ عِبادي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجيبُوا لي وَلْيُؤْمِنُوا بي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1].

- ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ * فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[2].

- ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾[3].

- ﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾[4].

---

(١) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٢) سورة الأنعام، آية: ٤٠- ٤٣.

(٣) سورة الأنعام، آية: ٦٤.

(٤) سورة الأعراف، آية: ٥٦.

- ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1].

ما هو الدعاء؟ وكيف ينبغي أن يدعو الإنسان؟. وما هي الفوائد المرجوة من دعوة الإنسان ربه؟.

قبل كل شيء لا بد أن نعلم أنّ للدعاء أهدافًا وحِكَمًا معينة لو عرفها الإنسان لاكتشف كنزًا عظيمًا، ربما لم يكن قد اكتشفه سابقًا، اكتشف علاجًا لمشاكل عويصة يعيشها في حياته، اكتشف حلًّا للمصاعب التي تعترضه، واكتشف بالتالي شفاء لما في صدره من الآلام والأدران.

والآيات الكريمة بالرغم من أنها متناثرة في مناسبات مختلفة في القرآن الحكيم إلَّا أنها تُعطينا -في المجموع- فكرة متكاملة عن الدعاء.

أين ندعو اللَّـه؟

عند المشاكل يبحث الإنسان عن حل، وبفطرته يعرف أنّ الحل بيد اللَّه، وأنّ أية مشكلة مهما عظمت، ومهما دعت الإنسان إلى اليأس فإن لها حلًّا بيد اللَّه، ولكن: أين اللَّه؟.

أين نذهب لنكون قريبين من اللَّه ونتحدّث إليه ونسأله؟.

هل اللَّه في المسجد؟.

هل اللَّه في الصحراء؟ فوق الجبال؟.

وبالتالي: أين نكون نحن أقرب إلى اللَّه؟.

---

(١) سورة يونس، آية: ٨٩.

هذا السؤال مطروح أمام كل الناس، ليس فقط الذين كانوا في عهد الرسول وسألوه عن اللَّه، وإنما نحن أيضًا عندما نواجه مشاكلنا نبحث عن مقام نكون فيه أقرب إلى اللَّه سبحانه وتعالى لندعوه فيه.

ويجيب القرآن الحكيم عن هذه التساؤلات بقوله: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قريب**﴾[١].

فإنك لا تحتاج إلى واسطة، ولا تحتاج أن تقطع مسافة لتصل إلى اللَّه، إنما ربك قريب.

ونحن نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي: «**وَأَنَّ الرَّاحِلَ إِلَيْكَ قَرِيبُ الْمَسَافَةِ، وَأَنَّكَ لَا تَحْتَجِبُ عَنْ خَلْقِكَ إِلَّا أَنْ تَحْجُبَهُمُ الْأَعْمَالُ دُونَكَ**»[٢].

وحينما يُسأل الإمام علي عليه السلام وعن المسافة بين الأرض والسماء، يقول الإمام عليه السلام: «**دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ**»[٣]؛ لأن الدعوة المستجابة تقطع البلايين من الكيلومترات التي تفصل بين الأرض والسماء في أقل من طرفة عين، ﴿**فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ**﴾[٤]، وقد جاء في كتب الحديث أنّ رجلًا «**سَأَلَ رَسُولَ اللَّه** صلى الله عليه وآله وسلم **فَقَالَ: أَقَرِيبٌ رَبُّنَا فَنُنَاجِيَهُ، أَمْ بَعِيدٌ فَنُنَادِيَهُ؟. فَنَزَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾**»[٥].

---

(١) كلمة (عباد) تأتي عادة في العباد الصالحين، بينما تأتي كلمة (عبيد) للتعبير عن غير الصالحين.

(٢) مصباح المتهجد وسلاح المتعبد، ج٢، ص٥٨٣.

(٣) أمالي السيد المرتضى، ج١، ص١٩٨.

(٤) سورة البقرة، آية: ١٨٦.

(٥) عوالي اللآلي، ج٢، ص٨٢.

دعوة اللَّـه وحده

فاللَّه تعالى يجيب دعوة الداعي، ولكن بشرطين هما:

الأول: ﴿**إِذَا دَعَانِ**﴾، فالدعوة يجب أن تكون للَّه وحده وليس لأحد غيره، وكأن الإنسان يدعو اللَّه في الظاهر ولكنه في الواقع لا يدعو ربه الحقيقي، وإنما يدعو الشركاء من دون اللَّه. يقول: (يا رب) بلسانه، ويرفع يديه بالدعاء نحو السماء ولكن قلبه لا يتصل باللَّه، فهو يدعو اللَّه بلسانه بينما قلبه لا يدعو اللَّه.

وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: ﴿**فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾[1]، أن المراد من (النعل) هو حب الأهل والأولاد. أي أنك ما دمت قد جئتني وأردتَ أن تدعوني يجب ألَّا يكون قلبك متصلًا بحب الأولاد؛ لأن النبي موسى عليه السلام في تلك الصحراء، وفي تلك الليلة الشاتية، وبينما يلفُّه الظلام والبرد والضياع، كان يفكر في زوجته القريبة من الولادة وكان يبحث عن النار لها.

وأنت أيضًا ذهبت إلى المسجد، وقمت للصلاة، بينما فكرك مشغول بأولادك ومشاكلك، فإنك لا تدعو اللَّه.

إذًا، نكتشف من هذه الآية الكريمة أنه إذا أردت الدعاء فلا بد أن تبتعد عن العلاقات والارتباطات الأخرى، وتخلص توجهك إلى اللَّه سبحانه وتعالى. فربنا يقول: ﴿**وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دعانِ**﴾.

---

(١) سورة طه، آية: ١٢.

أما الشرط؛ **الثاني**: فنجده في النصف الثاني من الآية الكريمة، إذ يقول اللَّه تعالى: ﴿**فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ**﴾.

ما دام اللَّه يُجيب دعوتك فأنت بدورك لا بد أن تستجيب للَّه وتؤمن به، وتُكيِّف كل شؤون حياتك وفق إرادة اللَّه، وحسب تعاليمه، وبهذا يرشد الإنسان، والرشاد يعني الوصول إلى الطريق الصحيح، فإذا استجاب الإنسان للَّه، وآمن به، يكون قد ضمن الرشاد في حياته.

فلسفة الدعاء

وعن فلسفة الدعاء تقول الآية الكريمة: ﴿**قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾[1].

في البدء تتعرَّض الآية إلى أنّ الإنسان حينما يأتيه عذاب اللَّه، أو تأتيه الساعة، وحينما تشتد به الحياة فإنه يدعو اللَّه وينسى الشركاء الذي اتَّخذهم من دون اللَّه. ثم يُشير القرآن إلى فلسفة الدعاء بأن اللَّه أرسل رسله إلى الأمم السابقة بعدما أنزل العذاب في صورتين:

في صورة حروب داخلية وعذاب الإنسان للإنسان، وهو (البأساء) وفي صورة عذاب الطبيعة للإنسان وهو (الضراء)[2].

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٤١-٤٢.

(٢) بعض علماء الفضاء يتوقعون حدوث تغيرات هائلة في الكرة الأرضية بسبب الانفجارات المتتالية التي تحدث في الشمس، لأن هذه الانفجارات رفعت درجة حرارة الشمس من خمسة آلاف درجة إلى خمسة عشر ألف درجة، وهذا الارتفاع يؤثر في الأرض التي هي واحدة من الأقمار الدائرة حول الشمس، فما هو تأثيرها؟ لا ندري.

ولكن لماذا يأخذ اللَّه عباده بالبأساء والضراء؟.

لماذا يمتحنهم بالمشاكل؟

تجيب الآية الكريمة ذاتها: ﴿.. **لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ**﴾.

فالهدف هو أنّ اللَّه يريدك أنت -كعبد من عباده- أن تذهب إليه.

فحينما لا تذهب إليه في الحالة العادية، يُنزل عليك المشاكل والعذاب و(البأساء والضراء) حتى تتوجه إلى ربك وتتضرع إليه.

ولكننا نجد أن بعض الناس حتى في حالة الضراء والبأساء لا يتضرعون إلى اللَّه، وفي الواقع قد بلغ بهم الجمود مرحلة فقدوا معها حتى فطرتهم ووجدانهم، ذلك الوجدان الذي يملكه كل إنسان في حالة المشكلة، والمصيبة، والعذاب، وتلك الفطرة التي تجعل الإنسان يرجع إلى اللَّه. وعن هؤلاء يقول القرآن الكريم: ﴿**فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُون**﴾.

إذًا، فإن هذه الآيات تؤكد أن من فوائد المشاكل والمصائب في الدنيا توجه الإنسان وتضرُّعه إلى اللَّه.

وفي الواقع، إن المشاكل تنتهي بينما الإيمان الذي يزرعه التضرع إلى اللَّه في قلب الإنسان يبقى ويستمر، كما أن العمل الصالح الذي يخلقه

= هل تسبب الطوفان؟، هل تسبب حدوث انفجارات داخلية في عمق الأرض؟ لا ندري. ومن الذي يقدر أن يوقف هذه الانفجارات داخل الشمس؟، وإذا ما أدت هذه الانفجارات إلى حدوث تغيرات خطيرة في أرضنا التي هي قمر من أقمار الشمس، فهل يستطيع العلم الحديث ووسائله المتطورة من مواجهة هذه الآثار؟.
لا.. فاللَّه وحده هو القادر على ذلك، ولعل حدوث مثل هذا الأمر هو نوع من أنواع الضراء.

إيمان الفرد هو الآخر يبقى وتستمر آثاره حتى بعد فناء الدنيا ومشاكلها.

قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّه عليه السلام: «**دُعِيَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله إِلَى طَعَام، فَلَمَّا دَخَلَ مَنْزِلَ الرَّجُلِ، نَظَرَ إِلَى دَجَاجَةٍ فَوْقَ حَائِطٍ قَدْ بَاضَتْ، فَتَقَعُ الْبَيْضَةُ عَلَى وَتِدٍ فِي حَائِطٍ، فَثَبَتَتْ عَلَيْهِ وَلَمْ تَسْقُطْ، وَلَمْ تَنْكَسِرْ. فَتَعَجَّبَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله مِنْهَا، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ: أَعَجِبْتَ مِنْ هَذِهِ الْبَيْضَةِ؟. فَوَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ، مَا رُزِئْتُ شَيْئًا قَطُّ. قَالَ فَنَهَضَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله وَلَمْ يَأْكُلْ مِنْ طَعَامِهِ شَيْئًا، وَقَالَ صلى الله عليه وآله: مَنْ لَمْ يُرْزَأْ فَمَا للَّه فِيهِ مِنْ حَاجَةٍ**»[1].

وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: «**قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله يَوْمًا لِأَصْحَابِهِ: مَلْعُونٌ كُلُّ مَالٍ لَا يُزَكَّى، مَلْعُونٌ كُلُّ جَسَدٍ لَا يُزَكَّى، وَلَوْ فِي كُلِّ أَرْبَعِينَ يَوْمًا مَرَّةً. فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله؛ أَمَّا زَكَاةُ الْمَالِ فَقَدْ عَرَفْنَاهَا، فَمَا زَكَاةُ الْأَجْسَادِ؟. فَقَالَ صلى الله عليه وآله لَهُمْ: أَنْ تُصَابَ بِآفَةٍ. قَالَ: فَتَغَيَّرَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ سَمِعُوا ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا رَآهُمْ قَدْ تَغَيَّرَتْ أَلْوَانُهُمْ، قَالَ صلى الله عليه وآله لَهُمْ: أَتَدْرُونَ مَا عَنَيْتُ بِقَوْلِي؟. قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وآله. قَالَ صلى الله عليه وآله: بَلَى؛ الرَّجُلُ يُخْدَشُ الْخَدْشَةَ، وَيُنْكَبُ النَّكْبَةَ، وَيَعْثُرُ الْعَثْرَةَ، وَيُمْرَضُ الْمَرْضَةَ، وَيُشَاكُ الشَّوْكَةَ، وَمَا أَشْبَهَ هَذَا. حَتَّى ذَكَرَ فِي حَدِيثِهِ اخْتِلَاجَ الْعَيْنِ**»[2].

وعلى الإنسان الذي لا يواجه في حياته أية مشكلة أو مصيبة، ألَّا يفرح ويطمئن؛ إذ إن هذا هو علامة الغرور، فالإنسان حينما يصاب بمشكلة ما فإن روحه تترفع وتضاء بنور اللَّه سبحانه وتعالى ويتوجه قلبه إلى اللَّه، وهذا التوجه هو أكثر فائدة من أضرار المشكلة.

---

(١) الكافي، ج٢، ص٢٥٦.

(٢) الكافي، ج٢، ص٢٥٩.

كما أنّ الإنسان الذي لا يتضرع حتى مع مواجهته البأساء والضراء، فإنه يكون قد قسا قلبه، وزيّن له الشيطان أعماله السيئة.

أساليب الدعاء

أما عن أساليب الدعاء، فإن القرآن الكريم يقول: ﴿**قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً**﴾.

فالدعاء يجب أن يكون؛ **أولًا**: تضرُّعًا إلى اللَّه، وأن يكون **ثانيًا**: خفية، أي سرًّا بين العبد وربه.

كما ينبغي على الداعي إلى اللَّه سبحانه وتعالى أن يعرف أنه يتعاهد مع اللَّه من خلال الدعاء: إنه عندما ينجيه اللَّه من هذه المشكلة أن يتحوّل رجلًا صالحًا وشاكرًا له: ﴿**لَئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنْ الشَّاكِرِينَ**﴾.

ولكن ربما يتعهد الإنسان مع اللَّه، ويرفع المشكلة عنه، ثم يعود إلى حياته السابقة دون أي تغيير حقيقي في السلوك: ﴿**قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ**﴾.

وفي سورة (الأعراف) نقرأ الآية الكريمة: ﴿**وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنْ الْمُحْسِنِينَ**﴾.

ففي حالة الدعاء يجب أن يكون الإنسان بين (الخوف والرجاء)، عليه ألَّا يطمئن لاستجابة دعائه بسرعة، كما أن عليه ألَّا ييأس من رحمة اللَّه. دعنا نتدبر قليلًا في العلاقة بين (دعوة اللَّه خوفًا وطمعًا) وبين قرب رحمة اللَّه من المحسنين.

إنّ العلاقة هي أنّ على الإنسان حينما تحل به مصيبة ما، أو تواجه

مشكلة في حياته أن يدعو اللَّه، ولكن في الوقت نفسه عليه أن يحسن للناس، فالإحسان يشجّع الإنسان على الدّعاء كما أنّه مفتاح الاستجابة من قِبَل اللَّه الذي تكون رحمته قريبًا من المحسنين.

وفي سورة يونس تطالعنا هذه الآية: ﴿**قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾.

والخطاب موجه إلى موسى وهارون عليهما السلام، وهو يعني أنك إذا دعوت اللَّه واستجاب الربُّ دعوتك فلا تذهب إلى هذا وذاك، وليكن أملك باللَّه واستقم على الطريق السوي ولا تستجب للضغوط والتحديات، كما عليك أن تواصل الطريق على هدى اللَّه، ولا تتبع سبيل الذين لا يعلمون.

(2)

ادعوني أستجب لكم

- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[1].

- ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[2].

- ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾[3].

- ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾[4].

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٧٦.

(٢) سورة الأنبياء، آية: ٨٣- ٨٤.

(٣) سورة الفرقان، آية: ٧٧.

(٤) سورة النمل، آية: ٦٢.

(٥) سورة غافر، آية: ٦٠.

- ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾[1].

دعاء نوح عليه السلام

من خلال التدبر في آيات الكتاب نستوحي بصائر قرآنية جديدة في الدعاء، ومن أبرز هذه البصائر ما نراه في سورة الأنبياء حيث يقصّ علينا ربنا سبحانه وتعالى قصة نوح:

إنّ نوحًا حينما دعا ربه استجاب له ونجّاه من ذلك الكرب العظيم.

لقد شمل الطوفان كل العالم، وأغرق الناس أجمعين. بل وأغرق كل الأحياء من الحيوانات والطيور أيضًا.

الطوفان يشمل الجميع، ويُنهي حياة الجميع، ولكن يبقى إنسان واحد ومجموعة صغيرة معه أحياء، يستجيب اللَّه لهم وينجيهم من الكرب العظيم.

إنّ في ذلك دلالة واضحة على أنّ أمورَ الكونِ ليست أمورًا تجري على سنن موضوعة لا تُخترق، كلَّا.. بل هذه السنن تتغير وفق إرادة عُليا وأسمىٰ، هي إرادة اللَّه سبحانه وتعالى.

صحيحٌ أنّ ما يحدث في الكون من حوادث وتطورات، إنما تكون وفق قوانين وأنظمة ثابتة. ولكن هذه القوانين إنما يجريها ربنا، فإذا أراد وقف العمل بقانونٍ ما، أو تغيير قانون آخر، فعل ذلك حسب إرادته.

لقد كانت هناك نظرية خاطئة لدى فلاسفة اليونان تقول: لو كانت السماء

(١) سورة الشورى، آية: ٢٦.

قوسًا، والبلاء سهمًا، واللَّه هو الرامي، فأين الفرار؟

وقد اشتهرت هذه النظرية في عهد رسول اللَّه ﷺ فجاءت الآية الكريمة: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾[1].

فالسماء قوس، والبلاء سهم، ويد القدر هي التي تسدد هذا السهم، ولكن مع كل ذلك، هناك الأمل بالخلاص، إنّ هناك بابًا للنجاة برغم قوس السماء، وبرغم سهم البلاء، ذلك الباب هو العودة إلى اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿**فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ**﴾.

الفرار إلى رب القدرة، إلى مَنْ هو أعظم من السماء، وأكبر من البلاء، وأقوى من القدر. إنّ للَّه قدرًا وقضاءً، والقضاء فوق القدر، وهو يأتي لينقض القدر، فقد يقدِّر عليك أن تموت في حادثة معينة، ولكنك تدفع الصدقة وتستجيب للَّه، وتدعوه فيستجيب اللَّه دعاءك فيأتي قضاء اللَّه ليمنع عنك القدر.

يقول اللَّه تعالى في سورة الأنبياء: ﴿**وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**﴾.

دعاء أيوب عليه السلام

ثم يقول ربنا في السورة نفسها عن النبي أيوب: ﴿**وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾.

ومن هذه الآية الكريمة نستوحي أسلوب الدعاء، فطريقة أيوب في الدعاء تستدعي أن يكون الإنسان مؤدبًا في دعائه للَّه، إذ نرى أنّ أيوب لم

(١) سورة الذاريات، آية: ٥٠.

يطلب من اللَّه شيئًا بصراحة، وإنما نادى ربه: أني مسني الضر.

إلهي قد بلغ بي الضر درجة المساس، أي إنّ الضر دخل في عظمي وأثَّر فيَّ تأثيرًا شديدًا ﴿**وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ وما دمتَ كذلك، فكيف تدع عبدك هكذا يمسّه الضر؟. فيطلب أيوب رحمة ربه بكناية هي أبلغ من التصريح.

دعاء موسى عليه السلام

وهكذا أيضًا يدعو النبي موسى ربه إذ يقول: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾[١].

فلم يطلب الخير من اللَّه بأسلوب صريح، بل إنه يقول: إلهي أنزلتَ عليّ خيرًا كثيرًا، وأشكرك على ذلك، لكنني الآن أصبحت فقيرًا إلى ذلك الخير. فهو قد طلب الخير من اللَّه ولكن بلغة غير مباشرة.

وحسبما جاء في بعض الأحاديث فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا يكتفون بالتوجه إلى اللَّه فقط، دون التصريح بمطاليبهم في الدعاء.

عنْ أَبي عَبْدِالله عليه السلام: «**لَمَّا أُجْلِسَ إِبْرَاهِيمُ فِي الْمَنْجَنِيقِ وَأَرَادُوا أَنْ يَرْمُوا بِهِ فِي النَّارِ، أَتَاهُ جَبْرَئِيلُ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا إِبْرَاهِيمُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، أَلَكَ حَاجَةٌ؟. فَقَالَ عليه السلام: أَمَّا إِلَيْكَ فَلَا. فَلَمَّا طَرَحُوهُ دَعَا اللَّهَ فَقَالَ: يَا أَللَّهُ؛ يَا وَاحِدُ يَا أَحَدُ، يَا صَمَدُ، يَا مَنْ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ. فَحُسِرَتِ النَّارُ عَنْهُ، وَإِنَّهُ لمحتبى [لَمُحْتَبٍ]، وَمَعَهُ جَبْرَئِيلُ وَهُمَا يَتَحَدَّثَانِ فِي رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ**»[٢].

---

(١) سورة القصص، آية: ٢٤.

(٢) بحار الأنوار، ج١٢، ص٢٤.

دعاء زكريا عليه السلام

وعن كيفية دعاء النبي زكريا نقرأ في سورة الأنبياء قول ربنا الكريم: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**[1].

إنّ من صفات المؤمنين أنّهم يدعون اللَّه خوفًا من عذابه ورجاءَ رحمته. في حالة الدعاء يجب ألَّا تكون آيسًا من رحمة اللَّه ولا مطمئنًا إلى أن هذه الرحمة سوف تشملك دون ريب، إنما يجب أن تكون بين الخوف والرجاء.

إذا كنتَ آيسًا فإن دعاءك لا يُستجاب، وكثير من دعواتنا تكون مع اليأس والقنوط.

فالدعاء يجب أن يكون مع حالة من الرجاء، وكأن الإجابة على الباب، وفي الوقت نفسه يجب ألَّا تكون مطمئنًا ولا تحتم على اللَّه الإجابة. فاللَّه سبحانه وتعالى أعلى وأعظم من أن يحتم الإنسان عليه شيئًا.

والإنسان لا يستطيع أن يطمئن إلى أنه ينجو من كل آلامه ومشاكله بمجرد دعوة واحدة، كما أنه لا يصح أن يكون يائسًا وقانطًا من النجاة ويستسلم لواقعه المؤلم، بل الإنسان المؤمن يكون بين الخوف والرجاء، وهكذا كانت دعوة زكريا وأهله حيث كانوا -كما يقول ربنا العزيز-: **﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾**.

وحينما يكون الدعاء رغبًا ورهبًا.. بين الخوف والرجاء، تتضاعف احتمالات الاستجابة من قبل اللَّه تعالى، وهذا هو الأسلوب الأفضل الذي يتَّبعه المؤمنون في دعواتهم.

---

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

الدعاء سلاح المؤمن

وقد يركن الإنسان أحيانًا إلى أعماله الصالحة، ويغتر بها، ويعتقد -خطأ- أنه الأقرب إلى اللَّه، وهو يستحق الجزاء الأوفى، بينما لو تدبرنا الأمر لوجدنا أنّ كل الأعمال الصالحة يمكن ألَّا تكون في موازنة عمل سيئ واحد، ومعصية واحدة تحدّينا بها رب العالمين.

يجب ألَّا نغتر بأعمالنا ولا نركن إليها في علاقتنا مع الباري عزّ وجل؛ لأن الذي يرشحنا لرحمة اللَّه سبحانه وتعالى هو الدعاء.

وفي هذا يقول اللَّه سبحانه: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلاَ دُعَاؤُكُمْ**﴾.

فاللَّه لا يعبأ بالإنسان ولا بأعماله لولا توسُّله بالدعاء والتضرُّع. لذلك جاء في الحديث: «**الدُّعَاءُ سِلَاحُ المُؤْمِنِ**»[1].

فالدعاء سلاح، والبكاء من خشية اللَّه سلاح، والتضرع والخضوع أمام اللَّه سلاح.

الدعاء وفطرة الإنسان

وتكشف الآية (٦٢) من سورة النمل جانبًا آخر من الدعاء حيث تقول: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ المُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾.

حينما تكون مضطرًّا، فأي باب يجب أن تطرق؟. ومن الذي يفرّج عنك ويستجيب لك دعاءك؟، ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ**﴾، من هو الذي يستجيب دعاء المضطر؟. هكذا تخاطب الآية فطرة الإنسان وتوقظ وجدانه،

(١) الكافي، ج٢، ص٤٦٨.

وتكشف أمامه جوهر الحقيقة، وتزيح الستار عن واقع ليس فيه أي لبس، وتجعله يعود لنفسه ويتذكر تجاربه السابقة.. يتذكر أيام الاضطرار، من الذي كان يستجيب له دعاءه، ويكشف عنه الكروب، والآلام، والأضرار: ﴿**أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَءِلَهٌ مَعَ اللَّه قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾.

ولكن الإنسان في كثير من الأحيان يتصرّف بعيدًا عن يقظة الوجدان والفطرة، وينسى اللَّه، واستجابته لدعواته. فاللَّه يجيب دعاءه، ويكشف السوء عنه، وفي لحظات الاضطرار يلجأ إلى اللَّه، ولكنه بعد ذلك يشرك باللَّه وينسى هذه اللحظات، وقليلًا ما يتذكر.

الدعاء والمستكبرون

أما الذي يستكبر عن الدعاء والتضرُّع لربه، فماذا يكون مصيره؟ يقول ربنا في الجواب: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾.

الذين لا يدعون ربهم ولا يتضرَّعون إلى اللَّه، يستكبرون عن الدعاء، ولذلك فهم يدخلون جهنم داخرين. إنّ على الإنسان أن يدعو اللَّه في كل صغيرة وكبيرة، وألَّا يستكبر عن الدعاء، ولا يصح أن يقول الواحد منا: أنا أعمل، وأنا أتحرك، فلست أحتاج للدعاء.

ولكن السؤال: كيف تعمل العمل؟ وكيف تتحرك في حياتك؟ ألست بحاجة إلى توفيق اللَّه، وتهيئة الظروف المناسبة لك؟! إذًا، عليك أن تدعو ربك حتى يستجيب لك، ويوفقك للعمل: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.

أليست عندكم حاجات وتطلعات وآمال؟ إذًا، ادعوا اللَّه حتى يستجيب لكم. ثم يقول ربنا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

وهنا يكون الدعاء من أبرز مصاديق العبادة. فالذين يستكبرون عن عبادة اللَّه وعن الدعاء سيدخلون جهنم داخرين، يدخلون جهنم في حالة الذلة والهوان.

الدعاء والتطلع

إنّ الدعاء يزيد تطلع الإنسان، ويزيد سعة صدره، ويرفع همته. الدعاء يجعل الإنسان لا يحصر نفسه ضمن حدود ضيقة وأطر محددة، إنه يعيد الإنسان إلى حقيقته، وحقيقة الإنسان أنّه عالَم كبير بالرغم من أنّه يزعم إنه جرم صغير. والدعاء يسلط الضوء على هذه الحقيقة أمام الإنسان.

وعلاقة الإنسان بالدعاء والاستجابة تشبه علاقة المطر بالأرض. فالمطر الذي ينزل من السماء هو للناس جميعًا، ولكن كل إنسان يستفيد من هذا المطر بقدر أرضه. فالذي يملك هكتارًا واحدًا من الأرض يستفيد من المطر بقدر هكتار!. والذي يملك عشرة هكتارات من الأرض يستفيد بقدرها. وهكذا بالنسبة لمن يملك مائة هكتار يستثمر المطر بقدر مائة هكتار، أليس كذلك؟. وهكذا رحمة اللَّه فإنها واسعة بلا شك، ولكن سعة نفسك وسعة صدرك ومقدار استيعابك لهذه الرحمة هو شرط الرحمة، فإذا كانت نفسك ضيقة، وأملك محدودًا، وتطلعك ضعيفًا، فإن رحمة اللَّه لك أيضًا تكون ضعيفة، ليس لأنّ رحمة اللَّه قليلة، وإنما لأنك أنت لا تستوعبها.

إذًا ينبغي أن ندعو اللَّه وكلنا تطلع وأمل في أنّ اللَّه يجيب دعوتنا، كما ينبغي أن ندعو اللَّه ونسأله أشياء كثيرة وحاجات هائلة، وإذا كان دعاؤك

مستجمعًا لشروط الاستجابة، فإن اللَّه يعطيك ما تطلب، ولو لم يعطك في الدنيا فإنه يعطيك في الآخرة.

إذًا، فالدعاء يرفع همة الإنسان ويزيد في تطلعه حتى يشمل الدنيا والآخرة، والإنسان المؤمن لا يستكبر عن عبادة اللَّه ودعائه، إذ إنه بذلك يدخل جهنم داخرًا، ويجمع إلى شقاء الدنيا، شقوة الآخرة أيضًا. بينما الذي يدعو ربه ويتضرع إليه، يستجيب اللَّه دعاءه في الدنيا ويؤتيه أجره في الآخرة.

الدعاء وفضل اللَّـه

وتشير الآية (٢٦ من سورة الشورى) إلى أنّ اللَّه ليس فقط يستجيب دعوة المؤمنين من عباده، وإنما يزيدهم من فضله، تقول الآية الكريمة: **﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾**.

فإذا دعوت اللَّه سبحانه وتعالى وطلبت منه زوجة فإن اللَّه يعطيك زوجة وأولادًا، وإذا طلبت منه زوجة وأولادًا فإنه يعطيك زوجة وأولادًا ورزقًا ومسكنًا لهم أيضًا، وهكذا **﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾**.

إنّ رحمة اللَّه واسعة جدًّا، فحينما يستجيب لدعوتك فإنه يعطيك ما طلبت وإضافة إلى ما دعوت.





الفصل الثاني
الدعاء في السُّنّة





١ - الدعاء سلاح المؤمن.

٢ - الدعاء وتطهير النفس.

٣- الدعاء وتوفير الأمن والرفاه.

٤ - الدعاء وضعف الإنسان.

٥ - شروط الدعاء.

(1)

الدعاء سلاح المؤمن

الأحاديث الشريفة التي هي تعبير عن روح القرآن وتفسير لمضامينه أكدت هي الأخرى على الدعاء وأهميته وضرورته، وعلى إنه سلاح الإنسان ضد سلبيات نفسه، وضد صعوبات الحياة، بل إنه سلاح الإنسان ووسيلته التي عبرها يستطيع أن يصل إلى أهدافه السامية.

وفي طليعة هذه الأحاديث ما روي عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عن رسولنا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**الدُّعَاءُ سِلَاحُ المُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**»[1].

هذه الرواية تشتمل ثلاث مفردات ينبغي أن نقف عند كل واحدة منها لنستخرج بصائر جديدة عن الدعاء:

الأولى: سلاح المؤمن

إنّ المؤمن يواجه في حياته ثلاثة مخاطر:

١- يواجه ضعف نفسه، لأن الإنسان خُلِق من ضعف ورُكِّب في ضعف. حياته محدودة بحدود عديدة، فعمره محدود، وعلمه محدود،

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج٢، ص٣٧.

وقوته محدودة، وأخيرًا، تحركه في الدنيا محدود.

والسؤال المطروح هو: كيف يخرج الإنسان من هذا الضعف الذي يحيط به؟ كيف يقاومه؟ ويتحرر من حصار ضعفه لذاته، يخرج بقوة خارجية وبإمداد غيبي، هو الاتصال باللَّه سبحانه وتعالى.

جرِّب في نفسك هذه الحالة: حينما تريد أن تعمل عملًا صعبًا على نفسك، كأن تريد القيام لصلاة الليل مثلًا، فإنك توقت الساعة المنبِّهة، وفي الوقت المحدد يرن الجرس وتستيقظ، ولكنك تجد من الصعوبة أن تتجاوز ضعف ذاتك، فالنوم يستولي عليك، وجسمك يقاوم النهوض، ومشاعرك لا تزال خاملة. كيف تهيب بنفسك وتعزم على القيام؟.

هنا أمامك طريق واحد وهو أن تتذكر ربك، وتتوكل عليه، وتطلب من اللَّه التوفيق، فسرعان ما تجد وكأن روحًا جديدة هبت في جسمك وساعدتك على النهوض لأداء صلاة الليل. لذلك كان الدعاء سلاح المؤمن ضد سلبيات نفسه.

٢- ويواجه المؤمن أيضًا نواقص الطبيعة من حوله، والطبيعة هي الأخرى مخيفة، والإنسان بفطرته يخشى الطبيعة. ترى الطفل عادة يخشى الظلام، يخاف الصحراء، ويخشى الأصوات الغريبة. والإنسان الكبير أيضًا يخشى الكثير من مجالات الطبيعة، ولكن استطاع أن يتفوق بعلمه وعقله على بعض المخاوف، إلَّا أن الخوف من الطبيعة لا زال موجودًا، وهذا الخوف هو الذي يهزم الإنسان، قبل أن تهزمه مخاطر الطبيعة، لأن الإنسان الخائف لا يستطيع أن يتحدى المخاوف، واللَّه سبحانه وتعالى قد سخَّر له ما في الأرض والطبيعة جميعًا، فلا بد أن يتسلّح بسلاح يقاوم

هذا الخوف من الطبيعة، ثم يقاوم مخاطر الطبيعة ذاتها، وذلك السلاح هو سلاح الدعاء.

إذا كنتَ وحدك في الصحراء أو في الغابة، وانتابك الخوف من شيء ما، وإذا كنتَ تشعر بالضعف أمام جبل سامق، أمام أي ظاهرة طبيعية أخرى، فادعُ اللَّه حتى تتغلب على الخوف والضعف.

من هنا وردت في الأحاديث المأثورة أدعية لمختلف الأمور: لمقاومة الخوف من المرض، من الجن، من الظلام. بالإضافة إلى أن التوجه العام في الأدعية هو ربط الطبيعة وربط الإنسان باللَّه، حتى يندفع الإنسان للسيطرة على الطبيعة.

نقرأ في دعاء الصباح المروي عن الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا مَنْ دَلَعَ لِسَانَ الصَّبَاحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ، وَسَرَّحَ قِطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغَيَاهِبِ تَلَجْلُجِهِ، وَأَتْقَنَ صُنْعَ الْفَلَكِ الدَّوَّارِ فِي مَقَادِيرِ تَبَرُّجِهِ، وَشَعْشَعَ ضِيَاءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ. يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ، وَتَنَزَّهَ عَنْ مُجَانَسَةِ مَخْلُوقَاتِهِ..**»[1].

هذا الدعاء يذكِّر الإنسان عبر تلاوته المستمرة، بأن كل جوانب الطبيعة خاضعة للَّه: تنفس الطبيعة في الصباح، وانهزام قطع الظلام أمام نور الصبح، والأفلاك الدائرة في هذا الكون.. كل ذلك إنما هو بيد اللَّه وتحت هيمنته وفي إطار عرشه سبحانه وتعالى وقدرته. لذلك لا مبرر للخوف من الطبيعة، بل على الإنسان أن يتسلح بالإيمان والعلم للتغلب عليها وتسخيرها لمآربه.

٣- يواجه المؤمن -كذلك- الخوف من عذاب اللَّه وبلائه، والدعاء هو

(١) بحار الأنوار، ج٨٤، ص٣٣٩.

سلاح المؤمن أمام عذاب اللَّه وبلائه. ففي الحديث الشريف أن: «**الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ، وَقَدْ أُبْرِمَ إِبْرَامًا**»[١].

ونقرأ في الروايات عن قوم يونس الذين نزل عليهم العذاب، واقترب منهم مسافة قامة رجل، أي حوالي المترين، فقد كان العذاب مشرفًا عليهم، يرونه بأمّ أعينهم، ولكنهم تضرعوا إلى اللَّه سبحانه وتعالى ودعوا ربهم فانقشع عنهم العذاب[٢].

والدعاء سلاح المؤمن أمام عذاب اللَّه سبحانه وتعالى، هذا العذاب الذي ينزله اللَّه على الإنسان بسبب أعماله، وما يرتكب من سيئات.

الثانية: عماد الدين

للدين مظهر وجوهر. مظهر الدين هو الصلاة، والصيام، والحج، والزكاة، والخمس... إلى آخر العبادات. ولكن ما هو جوهر الدين؟. ما هو قوام الدين وعماده؟. إنه الدعاء، لأنّ جوهر الدين هو اتصال الإنسان باللَّه، وعماد الدين هو عروج الإنسان إلى اللَّه، فالصلاة معراج المؤمن، كما جاء في الحديث الشريف، أما الصيام فتحدد الآية الكريمة الهدف منه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[٣].

فالهدف من الصيام هو التقوى: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾[٤].

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٧٠.
(٢) انظر: بحارالأنوار، ج١٤، ص٣٨٠-٣٨١.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٨٣.
(٤) سورة البقرة، آية: ١٩٧.

الهدف من العبادات هو حالة العروج والتقوى، حالة الاتصال الغيبي باللَّه سبحانه وتعالى، وهذا يتحقق بالدعاء. إن اللَّه سبحانه وتعالى تحدث إلى الإنسان عبر القرآن الحكيم، ولكن كيف يتحدّث الإنسان مع اللَّه سبحانه وتعالى؟.

إنّ جواب الإنسان وحديثه مع اللَّه تعالى هو الدعاء، لذلك كان الدعاء (عماد الدين).

في المناجاة الشعبانية نقرأ هذه الفقرة التي تقول: «**إِلَهِي؛ وَاجْعَلْنِي مِمَّنْ نَادَيْتَهُ فَأَجَابَكَ، وَلَاحَظْتَهُ فَصَعِقَ بِجَلَالِكَ، فَنَاجَيْتَهُ سِرًّا، وَعَمِلَ لَكَ جَهْرًا**»[1].

فمظهر الدين هو العمل الذي يقوم به الإنسان من أجل اللَّه سبحانه وتعالى، بينما روح الدين هو مناجاة اللَّه للإنسان.

الثالثة: نور السماوات والأرض

قد نفهم من التعبير عن الدعاء بأنه ﴿**نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، أنّ للدعاء دورًا كبيرًا في تحريك وتغيير أمور السماوات والأرض.

إن جوهر وجود السماوات والأرض، إنما يكون بالدعاء، ونقرأ في القرآن: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ**﴾[2].

فالدعاء مشكاة نور اللَّه سبحانه وتعالى، لأنه عبر الدعاء، وعبر ذكر اللَّه والتوسل به، تصلح أمور السماوات والأرض، ويصلح اللَّه ما فسد منها

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص٩٨.
(٢) سورة النور، آية: ٣٥.

والفساد لا يكون إلّا بسبب أعمال الناس: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[١].

وبلجوء الإنسان إلى الدعاء، والتضرع، وتمتين الاتصال باللَّه، والخضوع لتعاليمه من خلال الدعاء، فإن الفساد في السماوات والأرض يتقلص، وبذلك يكون الدعاء نور السماوات والأرض، الذي يقضي على عوامل الفساد من خلال تزكية النفس البشرية، والسمو بها في آفاق التقوى، والمعنويات السامية.

إذًا: «**الدُّعَاءُ سِلَاحُ المُؤْمِنِ، وَعِمَادُ الدِّينِ، وَنُورُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ**».

الدعاء يرد القضاء

جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْنِبُ فَيُحْرَمُ بِذَنْبِهِ الرِّزْق**»[٢].

وجاء في حديث مأثور بأن: «**الصَّدَقَةُ تَدْفَعُ الْبَلَاءَ الْمُبْرَمَ، فَدَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ**»[٣]، وهذا يعني أنّ الصدقة تمنع نزول البلاء بالإنسان، بينما الدعاء يكشف البلاء حتى بعد نزوله وبعد أن يصبح قضاءً.

فإن اللَّه قد يقضي عليك ببلاء، فتدعوه وهو يستجيب لك ويرد القضاء، فالدعاء يرد القضاء «**وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُذْنِبُ فَيُحْرَمُ بِذَنْبِهِ الرِّزْق**». لماذا؟.

لأن الكافر إذا أذنب، فإن اللَّه سبحانه وتعالى يأخذه بذنوبه في يوم

---

(١) سورة الروم، آية: ٤١.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٨.
(٣) بحار الأنوار، ج٥٩، ص٢٦٤.

القيامة إلّا بعض الذنوب العظيمة، أما المؤمن المحبوب عند اللَّه فإنه إذا ارتكب أي ذنب، فإن اللَّه يجازيه في الدنيا، حتى يفد على اللَّه في يوم القيامة ولا تثقل ظهره الذنوب، ولذلك فإن الكثير من المؤمنين يعيشون في الدنيا ابتلاءات كثيرة لتصفية ذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة.

فالحديث يقول: إن المؤمن حينما يذنب ذنبًا فإنه يُحرم من رزقه جزاءً على الذنب، فماذا نعمل حتى لا نُحرم من رزقنا؟.

الجواب: علينا بالدعاء، إذ: «**إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ الْقَضَاءَ**».

ويدفع البلاء

وجاء في حديث مروي عن الإمام الصادق عن أبيه عليه السلام عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ، وَادْفَعُوا أَبْوَابَ الْبَلَاءِ بِالدُّعَاءِ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ. فَإِنَّهُ مَا يُصَادُ مَا تَصِيدُ مِنَ الطَّيْرِ، إِلَّا بِتَضْيِيعِهِمُ التَّسْبِيحَ**»[1].

ربما تعني الكلمة الأخيرة من هذا الحديث، أنّ الطير الذي يسقط في شرك الصياد، لا يسقط بالصدفة كما نتصور نحن، وإنما لسبب وقدر، هو أنه لم يسبّح اللَّه تعالى.

فأمور الكون كلها تجري بأقدار بينما الإنسان يتصور أنّ الأمور تجري صدفة ودون تقدير. وجاء في حديث آخر عن رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم: «**إِنَّ الرِّزْقَ لَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ عَلَى عَدَدِ قَطْرِ الْمَطَرِ، إِلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا قَدَّرَ لَهَا، وَلَكِنْ لِلَّهِ فُضُولٌ فَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ**»[2].

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٨.

فالأمور والأرزاق محدَّدة ومقدَّرة من قبل اللَّه تعالى، ولكن إذا أراد الإنسان المزيد فعليه أن يدعو ربه من فضله.

وجاء في حديث آخر عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ عَنْكُمْ بِالدُّعَاءِ، قَبْلَ وُرُودِ الْبَلَاءِ، فَوَالَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، لَلْبَلَاءُ أَسْرَعُ إِلَى الْمُؤْمِنِ، مِنِ انْحِدَارِ السَّيْلِ مِنْ أَعْلَى التَّلْعَةِ إِلَى أَسْفَلِهَا، وَمِنْ رَكْضِ الْبَرَاذِينِ**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٩.

(2)

الدعاء وتطهير النفس

«مَا زَالَتْ نِعْمَةٌ وَلَا نَضَارَةُ عَيْشٍ إِلَّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوا، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ، وَلَوْ أَنَّهُمُ اسْتَقْبَلُوا ذَلِكَ بِالدُّعَاءِ وَالْإِنَابَةِ لَمْ تَنْزِلْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النِّقَمُ وَزَالَتْ عَنْهُمُ النِّعَمُ فَزِعُوا إِلَى اللَّهِ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَلَمْ يَهِنُوا وَلَمْ يُسْرِفُوا لَأَصْلَحَ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ، وَ لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَالِحٍ»[1].

لماذا تتواتر النقم؟

أن تنزل النقمة بالإنسان بعدما كان يتمتع بالنعم، فهو من أصعب ما يواجه الإنسان في حياته، وإنّ أجمل ما يواجهه الإنسان في الحياة هو أن تتوالى عليه النعم من ربه بعد أن قضى فترة طويلة يعاني فيها من النقم والمصائب.

وفي هذا المجال فإن الناس تتفاوت أوضاعهم، فبعضهم يصاب بمشكلة أو مصيبة سرعان ما يتغلّب عليها نفسيًّا واجتماعيًّا ويستمر في حياته العادية، إلَّا أن بعض الناس يصابون بتواتر الأحزان والنقمات وتوالي المصيبات والمشاكل، ممّا يواجهون موقفًا صعبًا للغاية، فهم لا يتخلّصون من مصيبة إلَّا ويصابون بأعظم منها، هؤلاء الناس ينبغي أن يطرحوا هذا السؤال على أنفسهم: لماذا؟. لماذا تنهكهم المصائب والمشاكل؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٣، ص٢٨٩.

نجد الجواب في كلام الإمام علي عليه السلام حيث يعزو الإمام سبب توالي المصائب على الإنسان إلى اجتراح السيئات المتوالية، فكما يرتكب الإنسان السيئات واحدة بعد الأخرى، كذلك تتوالى عليه المصائب واحدة تلو الأخرى.

إذا كانت هنالك في بيتك منطقة قذرة تتراكم عليها الحشرات، فليس الحل هو أن تقوم بإبادتها فحسب، إذ كلما قتلت قسمًا منها تراكمت موجة جديدة منها على المنطقة القذرة.

إذًا، ماذا عليك أن تصنع؟. عليك أن تُنظِّف بيتك من القذارة. كذلك الأمر حينما تتوالى عليك المصائب والنقم والمشاكل، فلا بد أن تعرف أن قذارة معنوية تعيش فيها هي سبب كل ذلك، ولا بد أن تبادر إلى تطهير نفسك منها.

دور الخمول والإسراف

ويحدّد الإمام علي عليه السلام في الحديث الشريف أنّ عملية التطهير هذه والتحصُّن ضد المشاكل والنقمات إنما تتم: بالإنابة إلى اللَّه، والتوبة من الذنوب، والتوسل بالدعاء، وألَّا يهن الإنسان ولا يسرف بل يتخذ بين ذلك سبيلًا فلا الوهن والخمول وعدم النشاط والتكاسل عن القيام بالواجبات صحيح ولا الإسراف صحيح، فقسم من الذنوب يأتي بسبب الخمول، بينما القسم الآخر من الذنوب يأتي من الإسراف، فحينما يسرف الإنسان في أكله وشربه واهتمامه بنفسه، يحتاج إلى ما يعوض عن سرفه ويتم ذلك -عادة- بالسرقة والاستغلال والاستثمار اللامشروع.

وكذلك حينما يكون الإنسان خاملًا، فلا يتحرك ولا ينشط، هو الآخر

يحتاج إلى الحيلة والمكر والخدعة والسرقة من نوع آخر، فالعامل الذي لا يعمل بصورة منتظمة بسبب خموله، فإنه يسرق وقتًا معينًا من العمل، والذي يتكاسل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو مذنب، وهكذا نجد أن الخمول، وعدم النشاط يتسببان في ارتكاب السيئات والذنوب، لذلك يقول الإمام علي عليه السلام: «**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النِّقَمُ، وَزَالَتْ عَنْهُمُ النِّعَمُ، فَزِعُوا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَلَمْ يُهِنُوا، وَلَمْ يُسْرِفُوا، لَأَصْلَحَ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ، وَلَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَالِحٍ**»[1].

الفزع إلى اللَّـه

إذًا، فحينما تنزل النقم، وترحل النعم، فإن على الإنسان أن يفزع إلى اللَّه، أي يستغيثه ويلجأ إليه، ولا يتحقّق الفزع إلى اللَّه بأن ترفع يديك مرة واحدة وتسأل اللَّه أن يكشف عنك النقم، بل يجب الإلحاح في الدعاء حتى يستجيب اللَّه لك، ففي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**وَاللَّهِ لَا يُلِحُّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ عَلَى اللَّهِ فِي حَاجَةٍ إِلَّا قَضَاهَا لَهُ**»[2].

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في حديث: «.. **فَأَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ، وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ، وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِالدُّعَاءِ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بَابٌ يُكْثَرُ قَرْعُهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ**»[3].

فادعُ اللَّه، وأقسم بأسمائه الحسنى وبأوليائه الصديقين، واعترف بضعفك وعجزك حتى يستجيب لك دعاءك. ثم يجب أن يكون الفزع إلى

(١) بحار الأنوار، ج١٠، ص١٠٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٧٤.
(٣) الكافي، ج٢، ص٤٧٠.

اللَّه «**بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ**» وحينما تكون نية الإنسان صادقة فإن اللَّه سبحانه وتعالى وهو العالم والخبير والبصير بنيات الناس، يستجيب دعاءه. ثم بعد ذلك: «**وَلَمْ يُهِنُوا، وَلَمْ يُسْرِفُوا**» يطردون عن حياتهم الكسل والخمول والوهن، ولم يجعلوا الإسراف طريقة العيش في الحياة، حينذاك: «**لَأَصْلَحَ اللَّهُ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ، وَلَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَالِحٍ**».

الدعاء عدة

وفي حديث آخر عن الإمام علي عليه السلام: «**الدُّعَاءُ يَرُدُّ الْقَضَاءَ الْمُبْرَمَ، فَاتَّخِذُوهُ عُدَّةً**»(١).

الذي يملك الدعاء يملك العدّة والترس، يرد بهما البلاء إذا نزل به. والدعاء سلاحك وعدتك الذين تعتمد عليهما من أجل درء البلاء، وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**ثَلَاثٌ لَا يَضُرُّ مَعَهُنَّ شَيْءٌ: الدُّعَاءُ عِنْدَ الْكُرُبَاتِ، وَالاسْتِغْفَارُ عِنْدَ الذَّنْبِ، وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ**»(٢).

فالإنسان الذي لا يدعو ربه عند الكربة والمصيبة، ولا يستغفر عند الذنب، ولا يشكر عند النعمة، ليس فيه خير، يضره كل شيء ولا ينفعه شيء، بينما الذي يدعو اللَّه حينما تنزل عليه المصيبة، فإن اللَّه يرفع المصيبة عنه، الذي يستغفر حينما يذنب فإن اللَّه يغفر له ذنبه، وأخيرًا الذي يشكر اللَّه حينما يتفضل عليه بالنعمة فإنه يرد عن نفسه سلبيات النعمة. وهنا نقطة هامة يجدر الإشارة إليها، وهي أن النعمة مثلما تأتي بإيجابيات، كذلك تولد للإنسان بعض السلبيات، وعلى الإنسان أن يدفع سلبيات النعمة

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٩.

بالشكر، فالمال، والأولاد، والمنصب، والقدرة، كل تلك نعم تحمل معها السلبيات العديدة إلى جانب الإيجابيات. والذي لا يشكر النعمة لا يلتفت إلى الجوانب السلبية فيها ويغتر بها.. فيأخذ بالإسراف والتبذير والاستئثار، ولا يعطي حقوق الآخرين، وبالتالي يجر لنفسه الآثار السلبية لهذه التصرفات، فتتحول النعمة بالنسبة إليه نقمة.

إنّ كثيرًا من الناس حينما يتفضل اللَّه عليهم بالنعم لا يحسنون التصرُّف فيها، فتكون النعمة وبالًا عليهم. يشترط الإمام الصادق عليه السلام «**وَالشُّكْرُ عِنْدَ النِّعْمَةِ**» حتى يتحصن المرء ضد الأضرار والسلبيات.

الدعاء والرزق

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ أَرْزَاقَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَمْ يَعْرِفْ وَجْهَ رِزْقِهِ كَثُرَ دُعَاؤُهُ**»[1].

فاللَّه يحب أن يسمع دعاء الإنسان المؤمن، ويحب أن يعطيه أجر دعائه، لأن الدعاء بالإضافة إلى نتائجه النابعة من الاستجابة الإلهية، فإن له تأثيرات واقعية أخرى، الدعاء يجعل قلب الإنسان خاشعًا، ويجعل روحه نظيفة، كما يضاعف حسنات الإنسان وبالتالي ثوابه عند اللَّه. فلذلك يجعل اللَّه رزق المؤمن من حيث لا يحتسب، ومن دون الاعتماد على مورد ثابت للرزق، حتى تبقى يده -دائمًا- مرفوعة إلى اللَّه بالدعاء، وعبر الدعاء يرزقه اللَّه ويؤتيه -أيضًا- أجرًا عظيمًا.

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٨٩.

أفضل الكلام.. الدعاء

وسأل رجل شامي الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «**أَيُّ الْكَلَام أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟. قَالَ** عليه السلام: **كَثْرَةُ ذِكْرِهِ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَيْهِ، وَدُعَاؤُهُ**»[١].

فاللَّه يحب الدعاء، وهو أفضل ما ينطق به الإنسان. وجاء في الحديث القدسي: «**يَا مُوسَى؛ سَلْنِي كُلَّ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ، حَتَّى عَلَفَ شَاتِكَ، وَمِلْحَ عَجِينِكَ**»[٢].

لأن هذا هو نوع من التضرُّع إلى اللَّه، نوع من الاتصال بين العبد وبين ربه، واللَّه يحب هذه العلاقة، وبالطبع عندما يحب اللَّه أحدًا فإنه يستجيب له ويؤتيه أجرًا عظيمًا.

وفي تفسير الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[٣]، فِي رِوَايَةِ أَبِي الْجَارُودِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «**الْأَوَّاهُ الْمُتَضَرِّعُ إِلَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ، وَإِذَا خَلَا فِي قَفْرَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، وَفِي الْخَلَوَاتِ**»[٤].

فـ(الأّواه)؛ هو الذي يتضرَّع في عبادته، وإذا خلا لوحده، أو كان في الصحراء، فإنه يعوّض عن وحدته ووحشته بالاتصال باللَّه سبحانه وتعالى، عن طريق التضرُّع والدعاء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٠.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٠٣.
(٣) سورة التوبة، آية: ١١٤.
(٤) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٠.

فضّل اللّـه أمتي بالدعاء

وجاء في حديث مروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**مِمَّا أَعْطَى اللَّهُ بِهِ أُمَّتِي وَفَضَّلَهُمْ بِهِ عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، أَعْطَاهُمْ ثَلَاثَ خِصَالٍ؛ لَمْ يُعْطَهَا إِلَّا نَبِيٌّ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، كَانَ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا قَالَ لَهُ: اجْتَهِدْ فِي دِينِكَ، وَلَا حَرَجَ عَلَيْكَ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَعْطَى ذَلِكَ أُمَّتِي، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[1]، **يَقُولُ: مِنْ ضِيقٍ.**

وَكَانَ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا، قَالَ لَهُ: إِذَا أَحْزَنَكَ أَمْرٌ تَكْرَهُهُ فَادْعُنِي أَسْتَجِبْ لَكَ، وَإِنَّ اللَّهَ أَعْطَى أُمَّتِي ذَلِكَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2].

وَكَانَ إِذَا بَعَثَ نَبِيًّا جَعَلَهُ شَهِيدًا عَلَى قَوْمِهِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، جَعَلَ أُمَّتِي شُهَدَاءَ عَلَى الْخَلْقِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ﴾»[3].

وفي هذا الحديث نجد تأكيدًا كبيرًا على أهمية الدعاء، وأن الأمم السابقة لم يكن للدعاء فيها دور بارز وكبير كما هو الأمر بالنسبة للأمة الإسلامية.

الذين يعجزون عن الدعاء

وجاء أيضًا عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إِنَّ أَعْجَزَ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ، وَإِنَّ أَبْخَلَ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلَامِ**»[4].

إنّ التضرُّع إلى اللّه، وطرق بابه، والاتصال به، كل ذلك لا يحتاج إلى

---

(١) سورة الحج، آية: ٧٨.
(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٣) سورة الحج، آية: ٧٨. بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٠.
(٤) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩١.

وسائط وأسباب، ليس أمامك إلَّا أن تحرك لسانك وأن توصل قلبك باللَّه. فإذا وجدنا إنسانًا تصيبه مصيبة أو كربة ولم يدع اللَّه سبحانه وتعالى لرفع مصيبته وكربته فإنه يعتبر من أعجز الناس.

إن كل واحد منا يمتلك نسبة كبيرة من هذا العجز، إذ إننا نعاني في حياتنا كثيرًا من المشاكل، ونواجه عددًا كبيرًا من النواقص ومن نقاط الضعف وليس هناك من يدّعي أنه كامل، وإنه لا يشكو من أي مشكلة، فالعجز موجود ومحيط بنا من جميع جوانبنا، ولكن مع ذلك ترى أننا لا ندعو اللَّه سبحانه وتعالى. إذًا، فإذا كانت أخلاقك سيئة فادع اللَّه لكي يصلحها لك، وإذا كان عملك قليلًا فاسأل اللَّه أن يضاعفه، وإذا كنت تعاني من ضعف الإرادة، فادع اللَّه لكي يقوي فيك الإرادة، وإذا كان وضعك الاقتصادي متأزمًا، أو لم تكن تُرزق الأولاد، فادعُ اللَّه في ذلك. ولنتعلم الدعاء من سليمان عليه السلام الذي طلب من اللَّه سبحانه وتعالى أن يعطيه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، واستجاب اللَّه له، وأعطاه ما أراد.

لا مضرة مع الدعاء

رُوَيَ عَنِ الصَّادِقِ عليه السلام عَنْ آبَائِهِ عليهم السلام قَالَ: «قَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: **أَرْبَعٌ لِلْمَرْءِ لَا عَلَيْهِ** (أي إن أمورًا أربعة هي لمصلحة الإنسان وليست في مضرته):

- الْإِيمَانُ وَالشُّكْرُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ما يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾[1]،

فاللَّه ليس له حاجة في عذابكم، إنما أنتم تجرّون العذاب لأنفسكم فإذا شكرتم وآمنتم فإن اللَّه لا يعذبكم.

---

(١) سورة النساء، آية: ١٤٧.

- وَالاسْتِغْفَارُ، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَما كانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1].

العذاب لا ينزل بالإنسان إلّا إذا ارتكب المعاصي والذنوب ولم يستغفر اللَّه سبحانه وتعالى.

- وَالدُّعَاءُ: فَإِنَّهُ قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ﴾[2]»[3].

فالشكر والإيمان والاستغفار والدعاء، أمور أربعة تكرس مصالح الإنسان، ولا تكون -بأي حال من الأحوال- ضد مصالحه.

(١) سورة الأنفال، آية: ٣٣.
(٢) سورة الفرقان، آية: ٧٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩١.

(3)



الدعاء وتوفير الأمن والرفاه



روي عن نبينا رسول اللَّه محمد ﷺ أنه خاطب جماعة من المسلمين قائلًا: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى سِلَاحٍ يُنْجِيكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ، وَيُدِرُّ أَرْزَاقَكُمْ؟. قَالُوا: بَلَى. قَالَ ﷺ: تَدْعُونَ رَبَّكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، فَإِنَّ الدُّعَاءَ سِلَاحُ الْمُؤْمِنِينَ**»[1].

الأمن والرفاه هما أهم جانبين يريد الإنسان أن يحققهما في حياته، ولا يتحقق الأمن إلَّا من خلال القضاء على الأعداء، والتخلُّص من شرورهم، كما لا يضمن الإنسان الرفاه إلَّا إذا تفضّل اللَّه عليه برزق وافر، والدعاء -كما في الحديث- هو سلاح الإنسان المؤمن ضد أعدائه، وهو وسيلة لاستدرار الرزق الواسع.

وفي حديث آخر، يقول النبي الكريم ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يَسْلُكُ وَادِيًا، فَيَبْسُطُ كَفَّيْهِ فَيَذْكُرُ اللَّهَ، وَيَدْعُو إِلَّا مَلَأَ اللَّهُ ذَلِكَ الْوَادِيَ حَسَنَاتٍ، فَلْيَعْظُمْ ذَلِكَ الْوَادِي أَوْ لِيَصْغُرْ**»[2].

إذا دخل المؤمن واديًا وذكر اللَّه ودعاه، فإن الحسنات والبركات تملأ

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٢.

الوادي، سواء كان عظيمًا أو صغيرًا. فمن صفات المؤمن أنه مبارك أينما كان، تحل البركة أينما يهبط المؤمن، لذلك يشير الرسول ﷺ إلى أن المؤمن حينما ينزل أرضًا ويرفع كفيه إلى اللَّه سبحانه وتعالى بالدعاء، فإن الأرض تخضرّ وتنزل عليها بركات السماء. وهذا الحديث يكشف عن حقيقة هامة وهي أن ما نسميه نحن بالصدفة ليس في الواقع كذلك، إذ إن كل التغييرات التي تحدث في الأرض والسماء لا بد أن تكون وفق قوانين وسنن مقدرة سلفًا، فالناس قديمًا وحينما لم تكن الأنظمة الكونية معروفة لديهم، كانوا يربطون كل شيء بالصدفة حتى المرض، والموت، والقحط، والرخاء، كل ذلك كانوا يتصورونه صدفة، ولكن بعد أن اكتشفنا مجموعة الأنظمة التي تجري في الطبيعة من حولنا عرفنا أنّ هذه التطورات والتغيرات ليست في الواقع مجموعة صدف، وإنما هي تابعة لأنظمة وقوانين لم يكن يعرفها الإنسان. ولكن ظلت هنالك مجموعة قضايا أخرى لا يزال الإنسان ينسبها إلى الصدفة، لماذا؟.

الجواب: لأن علاقتها ببعضها وعلاقتها بعمل الإنسان غير معروفة لدينا حتى الآن، وقد لا نعرفها إلى الأبد. فحينما يخرج الواحد منّا في مهمة شاقة، ويدفع الصدقة للفقير، فإنه ينجز مهمته دون أن تصيبه أية بلية. ومرة أخرى يخرج الإنسان من بيته بعد أن يكون قد ارتكب ذنبًا من الذنوب وعصى ربه، وصدفة يواجه في يومه العديد من المشاكل والمصائب.. فهل حقًّا لعامل الصدفة أي دور في الحالتين؟. كلَّا.. ففي الحالة الأولى فإن الصدقة هي التي دفعت البلاء، وفي الحالة الثانية كان الذنب سببًا في نزول المشاكل والمصائب.

إنّ عشرات من أمثال هذه الأمور التي تواجه الإنسان كل يوم، لا يمكن

أن نربطها بالصدفة وإنما لكل قضية قانون، ولكننا لا نعرف هذا القانون، إذ إنه قانون غير مادي لم نكتشفه حتى الآن، إلَّا أن العقل يكشف لنا أن هنالك رابطة بين الدعاء وبين نزول الخير والبركة، بين الصدقة وبين دفع البلاء، وهكذا الأمر بالنسبة للمؤمن يدخل أرضًا ويدعو اللَّه سبحانه وتعالى، يصلي ويخشع قلبه للَّه، فبسببه يتفضل اللَّه على تلك الأرض فتمتلئ بالحسنات والبركات، بالزروع والثمار، تتفجر فيها العيون الصافية، ويقيِّض اللَّه لها رجالًا يحرثونها ويعمرونها.. كل ذلك بتقدير إلهي، وبسبب دعوة المؤمن الصالح.

ربنا يحب الدعاء

وفي حديث عن الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام: «**مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ**»(١).

لماذا السؤال هو أحب شيء إلى اللَّه؟.

لأن اللَّه سبحانه وتعالى رحمن رحيم، وهاب كريم، ولأن من أبرز صفاته الجمالية هو العطاء والرحمة يوسعها لتشمل حياة الإنسان، وأفضل ساعات البشر عند اللَّه تعالى هي تلك الساعة التي يتلقى الرحمة فيها من اللَّه عبر السؤال والدعاء، لذلك جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «**أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ سَاجِدٌ..**»(٢).

لأن الإنسان حين السجود يتذلل لربه، وحينها يكون في حالة العبودية والسؤال من اللَّه، وهذه هي الحالة الحقيقية للإنسان بإزاء اللَّه تعالى،

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٨٢، ص١٦٢.

وفي حقيقة الأمر فإن البشر هو مجموعة حاجات، واللَّه سبحانه وتعالى هو الغني الحميد ذو الرحمة الواسعة الذي يوفر هذه الحاجات. هذه هي المعادلة الحقيقية بين البشر وبين ربه: حاجة مطلقة في الإنسان، ورحمة واسعة يجود بها اللَّه، من هنا نفهم لماذا كان أحب الأشياء إلى اللَّه هو أن يسأله العباد.

الدعاء والاستغفار

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ أَنْ يَطْلُبَ إِلَيْهِ فِي الْجُرْمِ الْعَظِيمِ، وَيُبْغِضُ الْعَبْدَ أَنْ يَسْتَخِفَّ بِالْجُرْمِ الْيَسِيرِ**»[1].

بعض الناس حينما يرتكبون السيئات الصغيرة فإنهم يستخفون بها ولا يستغفرون اللَّه منها، لكن حينما يرتكبون ذنبًا عظيمًا فإنهم يستغفرون اللَّه، فأي الحالتين أفضل؟.

لا شك في أن الحالة الثانية أفضل من الأولى، لأن الحالة الأولى هي حالة الغرور والعجب والاستكبار، حالة التحدي أمام اللَّه، بينما الحالة الثانية هي حالة الخضوع والخشوع والتذلل أمام اللَّه تعالى، وفي كثير من الأوقات تحصل في قلب الإنسان حالة من الذلة بعد الذنب، وذلك عبر التوبة وطلب الاستغفار.

الدعاء والشفاء

روي عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**لِكُلِّ دَاءٍ دُعَاءٌ، فَإِذَا أُلْهِمَ الْمَرِيضُ الدُّعَاءَ، فَقَدْ أَذِنَ اللَّهُ فِي شِفَائِهِ**».

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٢.

إذا حصلت عند المريض حالة الدعاء والتوجه إلى اللَّه سبحانه وتعالى، يعني أن شفاءه قد اقترب، أما المريض الذي لا يدعو اللَّه، يعني أن الشفاء يتأخر عنه أو قد لا يأتي.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «**الدُّعَاءُ أَفْضَلُ مِنْ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ، لِأَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: ﴿قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ..﴾**[1]»[2].

والذي أستوحيه من هذه الكلمة هو أن الدعاء الذي يُعتبر أفضل من قراءة القرآن ليس بمعنى لقلقة اللسان وتلاوة بعض الأذكار والأدعية المأثورة، فإن هذه التلاوة ليست بلا شك أفضل من قراءة القرآن، وإنما المقصود هو حقيقة الدعاء، أي حقيقة اتصال قلب الإنسان باللَّه.

ويروي الراوي عن الإمام عليه السلام يقول: «**أَنَّ الدُّعَاءَ يَدْفَعُ مِنَ الْبَلَاءِ، مَا قُدِّرَ وَمَا لَمْ يُقَدَّرْ. قِيلَ: وَكَيْفَ يَدْفَعُ مَا لَمْ يُقَدَّرْ؟. قَالَ** عليه السلام: **حَتَّى لَا يَكُونَ**»[3].

فمرة يدعو الإنسان حتى يرفع عنه البلاء، ومرة يدعو اللَّه حتى يمنع عنه البلاء؛ لأن في العالم العلوي وفي اللوح المحفوظ تُقدَّر للإنسان تقديرات محدَّدة. وقد يكون من بين هذه التقديرات حلول البلايا والأمراض مثلًا بالإنسان، فإذا دعا الإنسان ربه فإنه يمنع عنه البلاء، ويرفع عنه تقديرات السوء، فحينما ندعو في ليالي شهر رمضان: «**وَأَنْ تَجْعَلَ فِيما تَقْضِي وَتُقَدِّرُ، أَنْ تُطِيلَ عُمْرِي فِي خَيْرٍ وَعافِيَةٍ، وَتُوَسِّعَ فِي رِزْقِي، وَتَجْعَلَنِي مِمَّنْ تَنْتَصِرُ بِهِ**

(١) سورة الفرقان، آية: ٧٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٦.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٢.

لِدِينِكَ، وَلا تَسْتَبْدِلْ بِي غَيْرِي»[١]، فإن اللَّه يستجيب لك، ويمنحك طول العمر والعافية.

وفي حديث عن معاوية بن عمار أنه قال للإمام: «رَجُلَانِ دَخَلَا الْمَسْجِدَ جَمِيعًا، افْتَتَحَا الصَّلَاةَ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَتَلَا هَذَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَكَانَتْ تِلَاوَتُهُ أَكْثَرَ مِنْ دُعَائِهِ، وَدَعَا هَذَا، وَكَانَ دُعَاؤُهُ أَكْثَرَ مِنْ تِلَاوَتِهِ، ثُمَّ انْصَرَفَا فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. أَيُّهُمَا أَفْضَلُ؟.

أي إن رجلين دخلا في الصلاة وأتماها في وقت واحد، إلّا أن أحدهما تلا في الصلاة آيات من القرآن أكثر من الدعاء، بينما الآخر كانت أدعيته في الصلاة أكثر من تلاوته للقرآن، وربما اقتصر من القرآن على المقدار الواجب في الصلاة.. فأيهما أفضل؟.

قَالَ عليه السلام: **كُلٌّ فِيهِ فَضْلٌ كُلٌّ حَسَنٌ.**

قَالَ: قُلْتُ؛ إِنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ كُلًّا حَسَنٌ، وَأَنَّ كُلًّا فِيهِ فَضْلٌ. قَالَ عليه السلام: **الدُّعَاءُ أَفْضَلُ. أَمَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ داخِرِينَ﴾**[٢]. **هِيَ وَاللَّه أَفْضَلُ، هِيَ وَاللَّه أَفْضَلُ، هِيَ وَاللَّه أَفْضَلُ. أَلَيْسَ هِيَ الْعِبَادَةَ؟. أَلَيْسَتْ أَشَدَّ هِيَ؟، وَاللَّه أَشَدُّ، هِيَ وَاللَّه أَشَدُّ، هِيَ وَاللَّه أَشَدُّ»**[٣].

فالإمام عليه السلام يعتبر «**الْعِبَادَةَ**» التي تُشير إليها الآية هو الدعاء، فالذين لا يدعون اللَّه فإنهم يستكبرون عن عبادته.

---

(١) مفاتيح الجنان، في أعمال شهر رمضان.
(٢) سورة غافر، آية: ٦٠.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٢.

وهنا يجب أن نشير مرة أخرى إلى أن أفضلية الدعاء على قراءة القرآن الكريم، لا تتحدد في إطار التلاوة المجردة الجافة، وإنما الدعاء الذي يربط الإنسان باللَّه، ويفعم قلبه بنور الإيمان، وخشية الرب العظيم، ذلك الدعاء الذي يرتفع بالإنسان عن حضيض الأهواء، والشهوات والأغلال إلى مصاف الأولياء، والصديقين، والصالحين.

(4)

الدعاء وضعف الإنسان

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ عَنْ جَبْرَئِيلَ عَنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: «يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ، وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِي الْغَنَاءَ أَرْزُقْكُمْ، وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِيَ الْمَغْفِرَةَ أَغْفِرْ لَكُمْ، وَمَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى الْمَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي، بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ وَلَا أُبَالِي.

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا عَلَى اتْقَاءِ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي، لَمْ يَزِيدُوا فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا عَلَى إِشْقَاءِ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي، لَمْ يَنْقُصُوا مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ.

وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا فَيَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ ذَلِكَ فِي مُلْكِي.

كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ عَلَى شَفِيرِ الْبَحْرِ، فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً، ثُمَّ انْتَزَعَهَا، ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعِدَاتِي كَلَامٌ، فَإِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[1].

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٣.

يعتبر هذا الحديث القدسي دعوة إلهية للبشر بأن يستقبل نِعَمَ اللَّه ورحمته.

يبدأ الحديث ببيان أن الإنسان هو عجينة من الفقر والعجز والضعف: ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا**﴾[1].

والضعف هو من طبيعة الإنسان، وهو لا يقدر على أن يوفر لنفسه أقل قدر ممكن من حاجاته، وإن كل ما يملكه البشر من نِعَم إنما هو فضل من اللَّه سبحانه وتعالى، ولكن هل يعترف الإنسان بهذه الحقيقة اعترافًا قلبيًّا صادقًا؟.

إن الأكثر والأغلب منا لا يعرف هذه الحقيقة عمق المعرفة.. لا يعرف أنّ ما تحيط به من نِعَم الوجود، والعلم، والأمان، والعافية، والغنى، إنما هي فضل من اللَّه سبحانه، ذلك لأن الإنسان لم يكن شيئًا يُذكر قبل أن يوجَد في هذه الحياة: ﴿**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾[2].

لا يستطيع الواحد منا أن ينكر حقيقة أنه كان في يوم من الأيام نطفة صغيرة جدًّا لا حول لها ولا طَول، ولم تكن تتمتع بأية مقومات فعلية للحياة خارج إطار الأصلاب والأرحام، فمن الذي أعطاها هذا الوجود، ثم أضفى عليها كل هذه النعم التي لا تُحصى حتى أصبحت النطفة الحقيرة إنسانًا يتمتع بالحياة والقوة، والعلم، والأمان، والعافية، والغنى، بفضل اللَّه ورحمته عزّ وجل، ولكن هذا الإنسان الذي لم يكن شيئًا مذكورًا يصبح بعد وجوده في

(١) سورة النساء، آية: ٢٨.
(٢) سورة الإنسان، آية: ١-٢.

الحياة كتلة من الغرور والعجب، وأحيانًا من الطغيان والاستكبار، وينسى أنه سيعود مرة أخرى ترابًا رميمًا.. ويعود شيئًا لا يُذكر، ويطويه الأولاد والتاريخ في سجل النسيان والعدم.

لذلك يؤكد ربنا هذه الحقيقة الضائعة من قلوبنا والغائبة عنا ويقول في بداية الحديث القدسي المروي عن النبي ﷺ: «**يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِي الْهُدَى أَهْدِكُمْ. وَكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِي الْغَنَاءَ أَرْزُقْكُمْ. وَكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُهُ، فَاسْأَلُونِيَ الْمَغْفِرَةَ أَغْفِرْ لَكُمْ..**».

إذًا؛ فإذا كان العبد كله ضلالًا، وفقرًا، وذنبًا، فليس أمامه إلّا أن يدعو اللَّه سائلًا إياه: الهداية، والغنى، والمغفرة، والعافية.

إن الإنسان لا يستطيع أن يدَّعي أنه يملك كل ما بين يديه من الأموال، والأولاد، والعافية، والأمن، والعلم؛ ذلك لأن اللَّه سبحانه وتعالى هو الذي يتفضل عليه بهذه النعم، ومن ثم هو الذي يسلبها منه إذا شاء، وعلى الإنسان ألَّا يفرح بما آتاه اللَّه، ولا يحزن على ما فاته، كما أن عليه ألَّا ييأس من رحمة اللَّه، إذا لم يكن يملك بعض النعم، إذ إنه يستطيع بالدعاء أن يطلب من اللَّه منحها إياه، فربنا قادر على أن يملكنا ما لا نملك وأكثر ممَّا نتصور، لذلك يجب أن نكون كما قال الإمام علي عليه السلام: «**كُنْ لِمَا لَا تَرْجُو أَرْجَى مِنْكَ لِمَا تَرْجُو..**»[1].

وإذا كانت حقيقة الأمر هكذا، فإن أيدينا يجب أن تكون دائمًا مبسوطة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، كما علينا أن لا نغتر بما نملك والذي هو في

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص٤٥.

الواقع ليس ملكًا لنا، إذ إن اللَّه يمكن ان يسلبه منا في اية لحظة، والذي لا نملكه لا نيأس منه أيضًا، ففي أية لحظة يمكن أن يتفضل اللَّه به علينا، إذا فقدنا شيئًا صبرنا دون أن نيأس، وإذا كسبنا شيئًا شكرنا دون أن نغتر به: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[1].

بل الحقيقة هي أعمق من ذلك بكثير، إذ إن الإنسان لا يملك حتى أعضاء جسمه، فالعين، والأذن، واليد، والرجل، وكل الأجزاء الأخرى لا نملكها نحن، إنما هي وديعة من اللَّه سبحانه وتعالى خُوِّلت إلينا، ليعلم اللَّه كيف نصبر وكيف نشكر!، وإذا عرفنا هذه الحقيقة وآمنا بها فإن قلوبنا تبقى دائمًا متجهة إلى اللَّه سبحانه وتعالى لطلب المزيد من فضله ونعمه، ونهاية الحديث القدسي تذكِّرنا بهذه الحقيقة، إذ يقول اللَّه تعالى مخاطبًا الإنسان: «**وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَحَيَّكُمْ وَمَيِّتَكُمْ، وَرَطْبَكُمْ وَيَابِسَكُمْ، اجْتَمَعُوا فَيَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ، فَأَعْطَيْتُهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ ذَلِكَ فِي مُلْكِي**».

لو أن كل العباد من الأولين والآخرين، من الأموات والأحياء، طلبوا من اللَّه العلي القدير كل ما يخطر على بالهم وأعطاهم اللَّه كل ذلك، لكان هذا الأمر بالنسبة إلى اللَّه: «**كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ عَلَى شَفِيرِ الْبَحْرِ، فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً، ثُمَّ انْتَزَعَهَا..**».

فهل يؤثر ما تحمله هذه الإبرة من الماء على البحر؟. وهل ينقص منه شيئًا؟. كذلك عطاء اللَّه اللامتناهي، فإنه: «**لَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكَرَمًا**»[2] -كما جاء في الدعاء المأثور-.

---

(١) سورة الحديد، آية: ٢٣.

(٢) البلد الأمين والدرع الحصين، دعاء الافتتاح من أدعية شهر رمضان.

وإذا كان هذا هو حقيقة الأمر بالنسبة إلى كرم اللَّه وعطائه وجوده، فعلى الإنسان أن يؤهل نفسه لاستقبال رحمة اللَّه، والانتهال من معين جوده الذي لا ينضب، عليه ألَّا يقصر دعاءه على طلب الحاجات الصغيرة والتافهة، فبعض الناس المؤمنين يدعون اللَّه فلا يُستجاب لهم؛ ذلك لأنهم لم يسألوا اللَّه إلَّا شيئًا تافهًا، ولأنهم يمدون أيديهم لبحر رحمة اللَّه وجوده ولا يريدون منه إلَّا شيئًا بسيطًا، فيمنع اللَّه عنهم إجابة دعائهم في الدنيا ليجزيهم في الآخرة أضعافًا مضاعفة، يقول اللَّه في ختام هذا الحديث: «**ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعِدَاتِي كَلَامٌ، فَإِذَا أَرَدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**».

ولكن لا يعني هذا أننا لا نسأل اللَّه تعالى في الأمور الصغيرة، ففي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ، فَإِنَّكُمْ لَا تَتَقَرَّبُونَ بِمِثْلِهِ، وَلَا تَتْرُكُوا صَغِيرَةً لِصِغَرِهَا أَنْ تَسْأَلُوهَا. فَإِنَّ صَاحِبَ الصَّغَائِرِ، هُوَ صَاحِبُ الْكَبَائِرِ**»[1].

فلا تقل كيف أتوجه إلى اللَّه وأسأله ملح طعامي؟.

لأن اللَّه سبحانه وتعالى لا يختلف بالنسبة إليه أن يعطيك مثقالًا من الملح، أو يعطيك جبلًا من الذهب؛ لأن عطاء اللَّه كلام يقول للشيء: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾. والرب الذي يعطي الأشياء الكبيرة يعطي الأشياء الصغيرة أيضًا.

وجاء عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ دَعَا اللَّهَ تَعَالَى بِدَعْوَةٍ، لَيْسَتْ فِيهَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، وَلَا اسْتِجْلَابُ إِثْمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، إِحْدَى**

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٣.

خِصَالٍ ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ الدَّعْوَةَ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُ مِثْلَهَا مِنَ السُّوءِ»[1].

فالدعاء يُشترط فيه:

أولًا: ألَّا يؤدي إلى التأثير السلبي على العلاقات الاجتماعية وبالذات الروابط الأسرية، فإذا دعا الإنسان ربه أن ينتقم من أحد أقربائه مثلًا، فإن هذه الدعوة لا تُستجاب لأنها تؤدي إلى قطيعة رحم.

ثانيًا: ألَّا يجرّ الدعاء وراءه إثمًا وذنبًا، كأن يسأل الإنسان أن يرزقه اللَّه قنينة خمر -والعياذ باللَّه- أو أية دعوة أخرى تؤدّي إلى ارتكاب إثم أو جريرة. فإنها لا تستجاب بالطبع.

وحينما يدعو الإنسان بدعاء ليس فيه قطيعة رحم، ولا يستجلب إثمًا فإن الموقف بإزائه يكون أحد ثلاث: إما أن يستجيب اللَّه دعاءه ويعطيه ما يريد فعلًا، كأن يطلب الإنسان من ربه بيتًا، فيهيئ اللَّه له الأسباب حتى يحصل على بيت يسكنه، وإما أن يدّخر اللَّه تعالى الاستجابة له في الآخرة كأن يكتب له بيتًا في الجنة ولا يستجيب له في الدنيا لسبب من الأسباب، وإما أن يعوِّضه اللَّه تعالى بأن يدفع عنه بلاءً كان قد كُتب عليه.

إذًا، ففي كل الأحوال فإن الإنسان لا يخسر بدعائه شيئًا، بل هو الرابح على أي حال، ولكن مع ذلك فإن الكثير من الناس لا يعتني بالدعاء، ولا يعقب صلوات بالأدعية، وكأنه ليست له حاجة في الدنيا، ولا يواجه أية مشكلة في حياته. إنّ علينا أن ندعو اللَّه دائمًا وأبدًا، وأن نسأله كل حاجاتنا ونطلب منه أن يكشف عنا السوء والبلاء.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٤.

ليس هذا فحسب، وإنما أيضًا علينا أن نطلب من إخواننا المؤمنين أن يدعوا لنا بالخير والعافية والأمن والأمان، ذلك لأن دعوة المؤمن في أخيه مستجابة، وعلينا ألَّا نحتقر أية دعوة، أيًّا كان صاحب الدعاء، فقد جاء عن الإمام علي عليه السلام أنه قال: «**لَا تَسْتَحْقِرُوا دَعْوَةَ أَحَدٍ، فَإِنَّهُ يُسْتَجَابُ لِلْيَهُودِيِّ فِيكُمْ، وَلَا يُسْتَجَابُ لَهُ فِي نَفْسِهِ**»[1].

فإذا دعا اليهودي لمسلم بالخير، لأنه أسدى له خدمة معينة، فإن هذه الدعوة تُستجاب، رغم أن دعوة اليهودي لنفسه لا تُستجاب.

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٢٩٤.

(5)



شروط الدعاء



ماهي شروط الدعاء؟

نستطيع أن نستلهم شروط الدعاء من خلال الأدعية القرآنية والأدعية المأثورة التي سنتطرق إليها في الأحاديث القادمة، إلّا أننا في هذا الحديث نبحث عن شروط الدعاء من خلال أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وأهل بيته عليهم السلام.

الصلاة على محمد وآله

قال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «**لَا يَزَالُ الدُّعَاءُ مَحْجُوبًا عَنِ السَّمَاءِ حَتَّى يُصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ**»[1].

إن العلاقة بين الإنسان وبين اللَّه هي علاقة المربوب بالرب، علاقة المخلوق بالخالق، وعلاقة الفقير الفاني بالحي القيوم، ولكن أسمى أنواع هذه العلاقة هي التي كانت بين الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته المعصومين عليهم السلام من جهة وبين ربهم الكريم من جهة أخرى، لقد كانوا عبادًا مربوبين بلغوا في العبودية ذروتها، وفي الطاعة للَّه أرفع مستواها، ونحن حينما نذكر رسول اللَّه ونصلي عليه وعلى آله، إنما نركز على هذه العلاقة، لنتخذ

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.

منها قدوة لأنفسنا: كيف ينبغي أن تكون صلتنا باللَّه؟. وإذا كانت صلتنا باللَّه صلة العبودية التامة والطاعة التامة، فكيف تكون صلة اللَّه بنا؟. ترى حين تكون صلتنا باللَّه كصلة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وصلة الأئمة عليهم السلام بربهم، فهل تكون صلة اللَّه بنا مثل صلته بهم؟.

لذلك ترانا نصلي على محمد وآل محمد في كل صلواتنا؛ إذ إن من لم يصلِّ على النبي وآله في صلاته، تبطل صلاته عند كثير من المذاهب الإسلامية.

إنّ هذه الصلاة تعني أننا نُلقي الضوء على هذه العلاقة لكي نستلهم منها، فحينما نصلي على محمد وآله، فإننا من جهة ننفي عنهم صفة الألوهية باعتبار أن الصلاة تأتي من فوق. ومن جهة أخرى، فإن الصلاة على الرسول وآله تشير إلى ثلاث علاقات:

أولًا: رابطتنا بهذه الصفوة الميمونة باعتبارنا نحن الذين ندعو اللَّه أن يصلي عليهم.

ثانيًا: علاقة اللَّه بهم باعتبار أن ربنا سبحانه وتعالى هو الذي يستجيب دعاءنا في أن يعطيهم الفضيلة والدرجة الرفيعة.

ثالثًا: علاقتهم باللَّه باعتبارهم مربوبين ومكرمين.

ولكن هنا يطرح السؤال التالي: ما هي علاقة الصلاة على النبي وآله بالأدعية؟. لماذا الدعاء يكون محجوبًا حتى يصلي المرء على النبي وآله؟.

الجواب هو: إنّ من يدعو للآخرين فإن اللَّه يستجيب له ويعطيه مثل ذلك، فقد جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام: «**دُعَاءُ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ يَسُوقُ إِلَى الدَّاعِي الرِّزْقَ، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْبَلَاءَ،**

وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: لَكَ مِثْلَاهُ»[١].

فحينما ندعو للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ونقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ، وَبَارَكْتَ، وَتَرَحَّمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ**» فإن الملائكة يقولون: ولك مثله، وتتفتح أبواب السماء أمام هذا الدعاء، وإذا انفتحت أبواب السماء لدعاء الخير، فإن الأدعية الأخرى تصعد مع ذلك الدعاء وتُستجاب، لذلك إذا أراد الواحد منا أن تستجاب دعوته فعليه أن يصلي على محمد وآله قبل ذلك، وفي حديث مروي عن الإمام علي عليه السلام يكشف لنا عن العلاقة بين الصلاة على النبي وآله، وبين استجابة الدعاء، فيقول: «**إِذَا كَانَتْ لَكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ حَاجَةٌ، فَابْدَأْ بِمَسْأَلَةِ الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ، ثُمَّ سَلْ حَاجَتَكَ. فَإِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ حَاجَتَيْنِ يَقْضِي أَحَدَهُمَا، وَيَمْنَعُ عَنِ الْآخَرِ**»[٢].

فاللَّه الغني الكريم حينما يستجيب دعاءك في الصلاة على رسوله وآل بيت الرسول، فإنه سوف يستجيب لك دعاءك الخاص بحوائجك، إذ إن اللَّه تعالى هو أكرم من أن يستجيب لدعاء، ويدع الآخر.

اذكرْ حاجاتك عند الدعاء

وجاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ يَعْلَمُ مَا يُرِيدُ الْعَبْدُ إِذَا دَعَاهُ، وَلَكِنْ يُحِبُّ أَنْ يَبُثَّ إِلَيْهِ الْحَوَائِجَ، فَإِذَا دَعَوْتَ فَسَمِّ حَاجَتَكَ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ**»[٣].

---

(١) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، ص١٥٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.

ونستلهم من هذا الحديث الشريف أمرين:

الأول: إن الإنسان لا يصح أن يقول: إن اللَّه تعالى هو العليم بما في الصدور، ولذلك فهو يعلم حوائجي ومشاكلي، ولا داعي للدعاء والسؤال، كلَّا.. فعلى الإنسان أن يدعو ربه ويسأله؛ إذ «**وَمَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ**».

الثاني: لا يصح أيضًا أن يدعو الإنسان ربه دعاءً عامًّا، أي أن يكتفي بالقول: اللهم اقضِ لي حوائجي، بل عليه أن يسميها واحدة واحدة فاللّه «**يُحِبُّ أَنْ يَبُثَّ إِلَيْهِ الْحَوَائِجَ**» بالأسماء والتفاصيل.

أما عن الحالة النفسية للإنسان.. فكيف يجب أن تكون حينما يدعو ربه؟.

نجد الجواب في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**عَلَيْكُمْ بِالدُّعَاءِ، فَإِنَّهُ شِفَاءٌ مِنْ كُلِّ دَاءٍ، وَإِذَا دَعَوْتَ فَظُنَّ أَنَّ حَاجَتَكَ بِالْبَابِ**»[1]. فالإنسان يدعو ربه بحالة نفسية مطمئنة وكأن الحاجة على الباب.

آداب الدعاء

للدعاء آداب عديدة تشير إليها الروايات والأحاديث المختلفة، نذكر هنا أهمها:

١- أن يكون الدعاء في السر، فالدعاء في العلن وفي صلاة الجماعة وأمام الآخرين عمل جيد بلا شك، إلّا أن الدعاء في جوف الليل بين العبد وربه، يختلف عن الدعاء الأول من حيث الإخلاص وعمق الاتصال باللَّه،

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.

لذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**دَعْوَةٌ فِي السِّرِّ، تَعْدِلُ سَبْعِينَ دَعْوَةً فِي الْعَلَانِيَةِ**»(١).

٢- أن يدعو الإنسان ربه في حالة الرخاء، والرفاه، وتواتر النعمة عليه أيضًا، وليس فقط عندما تحدث به الكربات والمشاكل. فحينما يدعو الإنسان ربه وهو لا يشكو من أية أمراض، أو مشاكل أو مصاعب في حياته فإن دعاءه يُستجاب، كما يؤثر هذا الأمر في أن يستجيب اللَّه دعاءه حين الكربات أيضًا؛ ذلك لأن هذا يعني أن الإنسان لم ينسَ ربه في حالة الرخاء والراحة، لذلك يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ فِي الشَّدَائِدِ وَالْكُرَبِ، فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ عِنْدَ الرَّخَاءِ**»(٢).

فعليك أن تُعمِّق روابطك باللَّه في أيام الرخاء أيضًا، حتى يذكرك الباري عزّ وجل في أيام الشدة ويستجيب لك في الكربات.

٣- أن يقرن الدعاء بالعمل، أما الإنسان الذي يجعل الدعاء تغطية للكسل، وتبريرًا للخمول فإن دعاءه لا يُستجاب.

لذلك قال الإمام علي عليه السلام: «**الدَّاعِي بِلَا عَمَلٍ كَالرَّامِي بِلَا وَتَرٍ**»(٣).

فالذي يرمي الرصاصة دون بندقية تنطلق منها فإن رميته هذه تكون هباءً ودون جدوى، إذ إن الرصاصة إنما تؤثر إذا انطلقت من فوهة ثابتة، وكذلك الدعاء يبقى مجرّد طقوس جافة وغير نافعة إذا لم يقترن مع العمل، فالعمل يُعتبر قاعدة ينطلق منها الدعاء المستجاب.

٤- أن يبدأ الإنسان دعاءه، أولًا بالثناء على اللَّه والحمد والشكر له، ثم

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
(٣) نهج البلاغة، حكمة رقم: ٥٣٤.

الصلاة على محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ثم يدعو بدعواته وحاجاته، وهذه الطريقة تكون أكثر ضمانًا للاستجابة. روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ شَيْئًا مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْمِدْحَةِ لَهُ، وَالصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ، ثُمَّ الاعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةِ**»[١].

من هنا أيضًا نشاهد أن الأدعية المأثورة عن رسول اللَّه ﷺ وأهل بيته عليهم السلام تنتهج هذا الأسلوب، ولكن يحدث أحيانًا أن يستغرق الإنسان المؤمن في الثناء والحمد للَّه، ويتفاعل مع الدعاء إلى درجة ينسى حاجاته الخاصة، فما هي النتيجة في هذه الحالة؟.

عن هذا يجيب الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَتَكُونُ لَهُ الْحَاجَةُ إِلَى اللَّهِ، فَيَبْدَأُ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللَّهِ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، حَتَّى يَنْسَى حَاجَتَهُ فَيَقْضِيهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْأَلَهُ إِيَّاهَا..**»[٢].

فاللَّه سبحانه وتعالى يقضي حاجته دون السؤال؛ لأنّ اللَّه يعلم بما في الصدور، ولأن العبد إنما نسي ذكر حاجاته بسبب استغراقه في الحمد والثناء والصلاة.

وَرُوِيَ عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عليه السلام «**أَنَّهُ إِذَا بَدَأَ الرَّجُلُ بِالثَّنَاءِ قَبْلَ الدُّعَاءِ فَقَدِ اسْتَوْجَبَ، وَإِذَا بَدَأَ بِالدُّعَاءِ قَبْلَ الثَّنَاءِ كَانَ عَلَى رَجَاءٍ، وَقَدْ أَدَّبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: السَّلَامُ قَبْلَ الْكَلَامِ**»[٣]، فحينما ندعو اللَّه علينا أن نسبق دعاءنا بالسلام، ولكن كيف يكون السلام على اللَّه؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٢.
(٣) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٣.

يكون ذلك بالحمد، والثناء، والتهليل، والتمجيد.

٥- أن يدعو الإنسان ربه وقد غمرته حالة من التذلل، والخشوع، والخضوع، وليس في حالة من الغرور والتكبر والتعالي، وحتى لو لم تحصل له حالة حقيقية من التذلل والخشوع، فعليه أن يتظاهر بذلك، جاء في الحديث المروي عن الإمام الصَّادق عليه السلام: «**إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ أَوْحَى إِلَى مُوسَى عليه السلام: إِذَا وَقَفْتَ بَيْنَ يَدَيَّ فَقِفْ وَقْفَ الذَّلِيلِ الْفَقِيرِ**»[١].

وتشير بعض الروايات إلى ضرورة أن يرفع الإنسان يديه أثناء الدعاء، ويمدهما أمامه، وينظر إليهما ولا ينظر إلى السماء، إمعانًا في التذلل والخشوع.

٦- عدم الاكتفاء بحاجات الذات، وإنما تعميم الدعاء إلى الآخرين، بل وتقديم أربعين مؤمنًا في الدعاء، ثم التعرُّض للحاجات الخاصة، وهذا الأسلوب هو أحد عوامل الاستجابة.

جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «**إِذَا دَعَا أَحَدٌ فَلْيَعُمَّ، فَإِنَّهُ أَوْجَبُ لِلدُّعَاءِ، وَمَنْ قَدَّمَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ، قَبْلَ أَنْ يَدْعُوَ لِنَفْسِهِ، اسْتُجِيبَ لَهُ فِيهِمْ وَفِي نَفْسِهِ**»[٢].

٧- أن يصوم الإنسان في الشدائد والحاجات، فإنه يساعد على استجابة الدعاء، قال الإمام أبو الحسن عليه السلام بهذا الشأن: «**إِذَا نَزَلَ بِالرَّجُلِ الشِّدَّةُ وَالنَّازِلَةُ فَلْيَصُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ﴾**[٣]، **وَالصَّبْرُ:**

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٣.
(٣) سورة البقرة، آية: ٤٥.

الصَّوْمُ. وَقَالَ عليه السلام: دَعْوَةُ الصَّائِمِ يُسْتَجَابُ عِنْدَ إِفْطَارِهِ»[1].

فالصائم الذي قاوم طوال النهار شهواته، يتمتع بروح أكثر شفافية عند نهاية الصوم، وبذلك يكون أقدر على تعميق الاتصال الروحي باللَّه، لذلك فإن رحمة اللَّه تنزل عليه، ويُستجاب دعاؤه، من هنا فإن على الإنسان أن يستغل لحظات الإفطار في أيام شهر رمضان المبارك للدعاء ليس للذات فقط، وإنما قبل ذلك لإخوانه المؤمنين وبالذات الذين يواجهون الطواغيت في السجون والمعتقلات، وأن يدعو للمجاهدين المسلمين في كل جبهات الصراع بين الحق والباطل.

٨- أن تكون بينك وبين اللَّه أعمال صالحة تدعو اللَّه سبحانه وتعالى على أساسها، وتجعلها وسيلة للتقرُّب إلى اللَّه؛ إذ إن الأعمال الصالحة تسبب بالطبع نشوء علاقة حسنة وإيجابية بين العبد وربه، فإذا وضع العبد أعماله الصالحة بين يدي اللَّه وسأله أن يعطيه حاجته فإن احتمالات الاستجابة تتضاعف، وفي هذا المجال نشير إلى رواية مفصلة مروية في كتاب البحار، إن «.. ثَلَاثَةِ نَفَرٍ كَانُوا يَمْشُونَ فِي صَحْرَاءَ إِلَى جَبَلٍ، فَأَخَذَتْهُمُ السَّمَاءُ فَأَلْجَأَتْهُمْ إِلَى غَارٍ كَانُوا يَعْرِفُونَ، فَدَخَلُوهُ يَتَوَقَّوْنَ بِهِ مِنَ الْمَطَرِ، وَكَانَ فَوْقَ الْغَارِ صَخْرَةٌ عَظِيمَةٌ تَحْتَهَا مَدَرَةٌ هِيَ رَاكِبَتُهَا، فَابْتَلَّتِ الْمَدَرَةُ فَتَدَحْرَجَتِ الصَّخْرَةُ، فَصَارَتْ فِي بَابِ الْغَارِ، فَسَدَّتْ وَأَظْلَمَتْ عَلَيْهِمُ الْمَكَانَ.

وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: قَدْ عَفَا الْأَثَرُ وَدَرَسَ الْخَبَرُ، وَلَا يَعْلَمُ بِنَا أَهْلُونَا، وَلَوْ عَلِمُوا مَا أَغْنَوْا عَنَّا شَيْئًا؛ لِأَنَّهُ لَا طَاقَةَ لِلْآدَمِيِّينَ بِقَلْبِ هَذِهِ الصَّخْرَةِ عَنْ

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣١٣.

هَذَا الْمَوْضِعِ، هَذَا وَاللَّهِ قَبْرُنَا الَّذِي فِيهِ نَمُوتُ، وَمِنْهُ نَحْشُرُ.

ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَوَلَيْسَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ عليه السلام وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عليهم السلام، أَمَرُوا أَنَّهُ إِذَا دَهِمَتْنَا دَاهِيَةٌ، أَنْ نَدْعُوَ اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ؟.

قَالُوا: بَلَى.

قَالُوا: فَلَا نَعْرِفُ دَاهِيَةً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ.

فَقَالُوا: نَدْعُو اللَّهَ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ، وَيَذْكُرُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا حَسَنَةً مِنْ حَسَنَاتِهِ الَّتِي أَرَادَ اللَّهَ بِهَا فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنَّا.

فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ رَجُلًا كَثِيرَ الْمَالِ، حَسَنَ الْحَالِ، أَبْنِي الْقُصُورَ، وَالْمَسَاكِنَ، وَالدُّورَ، وَكَانَ لِي أُجَرَاءُ، وَكَانَ فِيهِمْ رَجُلٌ يَعْمَلُ عَمَلَ رَجُلَيْنِ. فَلَمَّا كَانَ عِنْدَ الْمَسَاءِ عَرَضْتُ عَلَيْهِ أُجْرَةً وَاحِدَةً، فَامْتَنَعَ. وَقَالَ: إِنَّمَا عَمِلْتُ عَمَلَ رَجُلَيْنِ، فَأَنَا أَبْغِي أُجْرَةَ رَجُلَيْنِ.

فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّمَا شَرَطْتُ عَلَيْكَ عَمَلَ رَجُلٍ، وَالثَّانِي فَأَنْتَ بِهِ مُتَطَوِّعٌ، لَا أُجْرَةَ لَكَ. فَذَهَبَ وَسَخِطَ ذَلِكَ، وَتَرَكَهُ عَلَيَّ، فَاشْتَرَيْتُ بِتِلْكَ الْأُجْرَةِ حِنْطَةً فَبَذَرْتُهَا، فَزَكَتْ وَنَمَتْ، ثُمَّ أَعَدْتُ بَعْدَمَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ فَعَظُمَ زَكَاؤُهَا، وَنَمَاؤُهَا. ثُمَّ أَعَدْتُ بَعْدَ مُرْتَفِعٍ مِنَ الثَّانِي فِي الْأَرْضِ، فَعَظُمَ الزَّكَاءُ وَالنَّمَاءُ. ثُمَّ مَا زَالَتْ هَكَذَا حَتَّى عَقَدْتُ بِهِ الضِّيَاعَ، وَالْقُصُورَ، وَالْقُرَى، وَالدُّورَ، وَالْمَنَازِلَ، وَالْمَسَاكِنَ، وَقُطْعَانَ الْإِبِلِ، وَالْغَنَمِ، وَصُوَّارَ[1] الْعَنْزِ، وَالدَّوَابِّ، وَالْأَثَاثَ، وَالْأَمْتِعَةَ، وَالْعَبِيدَ، وَالْإِمَاءَ، وَالْفِرَاشَ، وَالْآلَاتِ، وَالنِّعَمَ الْجَلِيلَةَ، وَالدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ الْكَثِيرَةَ.

(١) قطيع البقر.

فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ سِنِينَ، مَرَّ بِيَ الْأَجِيرُ، وَقَدْ سَاءَتْ حَالُهُ، وَتَضَعْضَعَتْ، وَاسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْفَقْرُ، وَضَعُفَ بَصَرُهُ. فَقَالَ لِي: يَا عَبْدَاللَّهِ؛ أَمَا تَعْرِفُنِي؟ أَنَا أَجِيرُكَ الَّذِي سَخِطْتُ أُجْرَةً وَاحِدَةً ذَلِكَ الْيَوْمَ، وَتَرَكْتُهَا لِغِنَائِي عَنْهَا، وَأَنَا الْيَوْمَ فَقِيرٌ، وَقَدْ رَضِيتُ بِهَا فَأَعْطِنِيهَا.

فَقُلْتُ لَهُ: دُونَكَ هَذَا الضِّيَاعَ، وَالْقُرَى، وَالدُّورَ، وَالْقُصُورَ، وَالْمَسَاكِنَ، وَقُطْعَانَ الْإِبِلِ، وَالْبَقَرَ، وَالْغَنَمَ، وَصُوَّارَ الْعَنْزِ، وَالدَّوَابِّ، وَالْأَثَاثَ، وَالْأَمْتِعَةَ، وَالْعَبِيدَ، وَالْإِمَاءَ، وَالْفِرَاشَ، وَالْآلَاتِ، وَالنِّعَمَ الْجَلِيلَةَ، وَالدَّرَاهِمَ وَالدَّنَانِيرَ الْكَثِيرَةَ. فَتَنَاوَلْهَا إِلَيْكَ أَجْمَعَ مُبَارَكَةً لَكَ، فَهِيَ لَكَ.

فَبَكَى وَقَالَ: يَا عَبْدَاللَّهِ؛ سَوَّفْتَ حَقِّي، ثُمَّ الْآنَ تَهْزَأُ بِي!.

فَقُلْتُ: مَا أَهْزَأُ بِكَ، وَمَا أَنَا إِلَّا جَادٌّ مُجِدٌّ، فَهَذِهِ كُلُّهَا نَتَائِجُ أُجْرَتِكَ تِلْكَ، تَوَلَّدَتْ عَنْهَا، فَالْأَصْلُ كَانَ لَكَ، فَهَذِهِ الْفُرُوعُ كُلُّهَا تَابِعَةٌ لِلْأَصْلِ. فَهِيَ لَكَ، فَسَلَّمْتُهَا أَجْمَعَ.

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي، إِنَّمَا فَعَلْتُ هَذَا رَجَاءَ ثَوَابِكَ، وَخَوْفَ عِقَابِكَ. فَافْرِجْ عَنَّا بِمُحَمَّدٍ الْأَفْضَلِ الْأَكْرَمِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي شَرَّفْتَهُ بِآلِهِ أَفْضَلِ آلِ النَّبِيِّينَ، وَأَصْحَابِهِ أَكْرَمِ أَصْحَابِ الْمُرْسَلِينَ، وَأُمَّتِهِ خَيْرِ الْأُمَمِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عليه السلام: **فَزَالَ ثُلُثُ الْحَجَرِ. وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ الضَّوْءُ.**

وَقَالَ الثَّانِي: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي بَقَرَةٌ أَحْتَلِبُهَا، ثُمَّ أَرُوحُ بِلَبَنِهَا عَلَى أُمِّي، ثُمَّ أَرُوحُ بِسُؤْرِهَا عَلَى أَهْلِي وَوُلْدِي، فَأَخَّرَنِي عَائِقٌ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَصَادَفْتُ أُمِّي نَائِمَةً، فَوَقَفْتُ عِنْدَ رَأْسِهَا لِتَنْتَبِهَ لَا أنتبهها [أُنَبِّهُهَا] مِنْ طِيبِ وِسَادِهَا، وَأَهْلِي وَوُلْدِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، فَمَا زِلْتُ وَاقِفًا

لَا أَحْفِلُ بِأَهْلِي وَوُلْدِي، حَتَّى انْتَبَهَتْ هِيَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا وَسَقَيْتُهَا حَتَّى رَوِيَتْ، ثُمَّ عَطَفْتُ بِسُؤْرِهَا عَلَى أَهْلِي وَوُلْدِي.

اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَجَاءَ ثَوَابِكَ، وَخَوْفَ عِقَابِكَ، فَافْرِجْ عَنَّا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ الْأَفْضَلِ الْأَكْرَمِ، سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي شَرَّفْتَهُ بِآلِهِ أَفْضَلِ آلِ النَّبِيِّينَ، وَأَصْحَابِهِ أَكْرَمِ صَحَابَةِ الْمُرْسَلِينَ، وَأُمَّتِهِ خَيْرِ الْأُمَمِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عليه السلام: **فَزَالَ ثُلُثٌ آخَرُ مِنَ الْحَجَرِ، وَقَوِيَ طَمَعُهُمْ فِي النَّجَاةِ.**

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي هَوِيتُ امْرَأَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَرَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَأَبَتْ عَلَيَّ إِلَّا بِمِائَةِ دِينَارٍ، وَلَمْ أَكُنْ أَمْلِكُ شَيْئًا، فَمَا زِلْتُ أَسْلُكُ بَرًّا، وَبَحْرًا، وَسَهْلًا، وَجَبَلًا، وَأُبَاشِرُ الْأَخْطَارَ، وَأَسْلُكُ الْفَيَافِيَ وَالْقِفَارَ، وَأَتَعَرَّضُ لِلْمَهَالِكِ، وَالْمَتَالِفِ أَرْبَعَ سِنِينَ، حَتَّى جَمَعْتُهَا، وَأَعْطَيْتُهَا إِيَّاهَا، وَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ مِنْهَا مَقْعَدَ الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِهِ، ارْتَعَدَتْ فَرَائِصُهَا.

وَقَالَتْ لِي: يَا عَبْدَاللَّهِ؛ إِنِّي جَارِيَةٌ عَذْرَاءُ، فَلَا تَفُضَّ خَاتَمَ اللَّهِ، إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَإِنَّمَا حَمَلَنِي عَلَى أَنْ أُمَكِّنَكَ مِنْ نَفْسِي الْحَاجَةُ وَالشِّدَّةُ.

فَقُمْتُ عَنْهَا وَتَرَكْتُهَا، وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ الدِّينَارِ عَلَيْهَا. اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي إِنَّمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ رَجَاءَ ثَوَابِكَ، وَخَوْفَ عِقَابِكَ. فَافْرِجْ عَنَّا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ الْأَفْضَلِ الْأَكْرَمِ، سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الَّذِي شَرَّفْتَهُ بِآلِهِ أَفْضَلِ آلِ النَّبِيِّينَ، وَأَصْحَابِهِ أَكْرَمِ أَصْحَابِ الْمُرْسَلِينَ، وَأُمَّتِهِ خَيْرِ الْأُمَمِ أَجْمَعِينَ.

قَالَ عليه السلام: **فَزَالَ الْحَجَرُ كُلُّهُ وَتَدَحْرَجَ، وَهُوَ يُنَادِي بِصَوْتٍ فَصِيحٍ بَيِّنٍ يَعْقِلُونَهُ وَيَفْهَمُونَهُ: بِحُسْنِ نِيَّاتِكُمْ نَجَوْتُمْ، وَبِمُحَمَّدٍ الْأَفْضَلِ الْأَكْرَمِ، سَيِّدِ**

الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، الْمَخْصُوصِ بِآلِهِ أَفْضَلِ آلِ النَّبِيِّينَ، وَبِخَيْرِ أُمَّتِهِ سَعِدْتُمْ، وَنِلْتُمْ أَفْضَلَ الدَّرَجَاتِ»[1].

فاللَّه تعالى استجاب للرجال الثلاثة وفرّج عنهم بسبب أعمالهم الصالحة، إذ كان أحدهم قد اهتم بأموال الناس واستثمرها، ثم أعادها لصاحبها، والثاني كان كثير الاحترام والحب لوالديه، والثالث كان قد اقترب من الزنا، ولم يدع ذلك إلّا خوفًا من اللَّه.

وهكذا تكون الأعمال الصالحة عنصرًا فعّالًا في استجابة الدعاء.

(١) بحار الأنوار، ج٩١، ص١٣-١٥.





الفصل الثالث
التدبُّر في الدعاء





١ - مفردات الدعاء.

٢ - الخطوات الأساسية في التدبر.

٣- التدبر في الذكر.

(1)



مفردات الدعاء



الأدعية المأثورة عن النبي ﷺ، أو الأئمة الهداة عليهم السلام، إنما هي استلهام عن القرآن الحكيم، وتعبير آخر عن الأفكار والمفاهيم ذاتها التي عبّر عنها الذكر الحكيم بلغته الخاصة، وهي في الوقت ذاته تعبير عن الأدعية التي نزلت في العصور السابقة قبل الإسلام.

وهذه الأدعية التي نُقلت إلينا عبر الرواة الثقات، بل تداولتها الألسن والأيدي جيلًا بعد جيل، هي في الواقع تشكل صدى المعارف القرآنية.

فحينما أنزل القرآن على تلك القلوب النقية الطاهرة، والتي أُشربت بمعارف الكتاب العزيز، انعكست هذه المعارف على ألسنتهم، وعبَّروا عنها بالأدعية المأُثورة. فهي إذًا لا يمكن أن تُفصل عن القرآن الحكيم، وأشد ما يدهش الإنسان هو: كيف أن المسلمين انتبهوا إلى ضرورة تفسير القرآن بالأحاديث، باعتبارها جاءت مفسرة للقرآن، وهي تعبير عمّا تلقاه الرسول الكريم ﷺ والأئمة عليهم السلام من معارف القرآن، ولكنهم لم ينتبهوا إلى أهمية تفسير القرآن بالدعاء. علمًا بأن كثيرًا من آيات القرآن هي ذكر -كما صرح القرآن- وبصيرة وهدى وتزكية للنفوس، وهذه المفردات تشكّل مضامين الأدعية المأثورة كما سنبين ذلك فيما يأتي.

إن الأدعية المأثورة تركز -في الأغلب- على مفردات معينة تعبِّر عن المفاهيم والمعارف القرآنية، ومعرفة هذه المفردات ركن من أركان التدبر في الدعاء. ونحن نشير إلى هذه المفردات أولًا ثم بعد ذلك سنشير إلى بعض أساليب التدبر في الدعاء الذي يشبه إلى حد بعيد التدبر في القرآن الحكيم.

وتحتوي الأدعية المأثورة عادة على المفردات التالية:

الأولى: الذكر

ذكر اللَّه سبحانه وتعالى أمر يؤكد عليه القرآن الحكيم في كثير من آياته المباركة، ففي الآية (٤١) من سورة الأحزاب نقرأ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا**﴾[١].

وفي سورة البقرة: ﴿**وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ**﴾[٢].

والذكر يكون متبادلًا بين العبد وربه، فحينما يذكر الإنسان رب العالمين، فإن اللَّه تعالى يذكره أيضًا: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ**﴾[٣].

وفلسفة الذكر تأتي من أنه يعمل على زرع حب اللَّه في الإنسان، فلا يكفي أن يعرف الإنسان ربه، وإنما لا بد أن يحب اللَّه، وإذا وصل العبد إلى مرحلة الحب للَّه، واعتمر قلبه بمحبة اللَّه سبحانه وتعالى فإن الطاعات تتسم بطابعين:

---

(١) سورة الأحزاب، آية: ٤١.
(٢) سورة البقرة، آية: ١٩٨.
(٣) سورة البقرة، آية: ١٥٢.

أولًا: تصبح الطاعات ذات محتوى حقيقي، فالصلاة تصبح فعلًا معراجًا للإنسان، والصوم صبرًا، ومعينًا على مصاعب الحياة، وكل الطاعات تصبح ذات معنى ومحتوى، بعد أن كانت مجرد قشور بلا محتويات.

ثانيًا: تجري الطاعات من جوارح الإنسان بصورة طبيعية، كما يجري السيل من أعلى التل. جاء في بعض الأحاديث أن رسول اللَّه ﷺ، كان يجلس إلى الصلاة قبل وقتها، ثم ينظر إلى السماء بحثًا عن علامات وقت الصلاة، فإذا حان الوقت الشرعي، يقول: يا بلال، أرحنا بالصلاة. فحينما يكون رسول اللَّه ﷺ على موعد مع ربه سبحانه وتعالى، ينتظر هذا الموعد بفارغ الصبر، حتى إذا دخل الوقت صاح ببلال لكي يؤذن للصلاة. وهكذا يصبح المحب متشوقًا لطاعة اللَّه. بل ويرى راحته وسعادته في الاستجابة لنداء ربه.

وحينما يحب العبد ربه فإن اللَّه يحبه أيضًا، وإذا أحب اللَّه أحدًا فإن ملائكة اللَّه وأولياءه يحبونه، وكذلك الصخور في الأرض والمياه في البحار، والهواء في الفضاء وكل الطبيعة ستحبه، وهكذا يعيش الإنسان في مهرجان الحب، يعيش في عائلة واحدة مع الكون عضوًا محبوبًا وليس عضوًا شاذًّا، والدعاء الذي يحتوي على ذكر اللَّه، يؤدي إلى خلق هذا الحب في القلوب.

الثانية: العقائد

الدعاء يعمل على ترسيخ العقائد في قلب الإنسان. فليس كل مسلم يُعتبر مؤمنًا أيضًا؛ ذلك لأن الإيمان يعتبر مرحلة متقدمة عن الإسلام، والقرآن وضع شروطًا معينة للإيمان:

- ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١].

- ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾[٢].

هذه صفات المؤمن وقليلًا ما تتواجد فينا. فكيف نرتقي بإسلامنا إلى درجة الإيمان، وبإيماننا إلى درجة اليقين، وبيقيننا إلى درجة الكمال، وبكمالنا إلى العاقبة الحسنة؟.

إنما يكون ذلك عبر الأدعية المأثورة والتي تحتوي عادة على تنزيه اللَّه سبحانه وتعالى وتسبيحه، وتحميده، والثناء عليه، هذا على صعيد الإيمان باللَّه، ثم بعدئذٍ يتطرق الدعاء للصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وذكره والثناء عليه، وبيان حميد صفاته، مما يعمق إيمانك بالنبي أكثر من ذي قبل، فتحب الرسول وتؤمن برسالته، كما ويثني على أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتحتوي الأدعية على كلام كثير عن القرآن، وأهميته، وعن طريقة التدبر فيه وتلاوته، وانشراح الصدر بقراءته، وأخيرًا فإن الأدعية فيها الكثير من الحديث حول الآخرة وجزاء الإنسان في يوم الدين، وهكذا فإن الدعاء يؤدي دورًا أساسيًّا في ترسيخ عقائد الإنسان باللَّه، ورسالته، والرسول، والقرآن، والمعاد.

---

(١) سورة الأنفال، آية: ٢.

(٢) سورة المؤمنون، آية: ١-٥.

الثالثة: التزكية

يعمل الدعاء أيضًا على تزكية النفس، وتطوير تطلعات الإنسان وإصلاح أهدافه في الحياة. فلكل إنسان أهداف معينة في الحياة سواء كانت كبيرة أو صغيرة، حسنة أو سيئة. والأدعية تسعى من أجل تغيير أهداف الإنسان نحو الأفضل والأكمل.

أو بتعبير آخر: تغيير الإطار العام لحياة الإنسان؛ ذلك لأن الإنسان حينما يضع لنفسه هدفًا معينًا فإنه يسعى للوصول إليه، ومن أجل ذلك فإنه يقولب حياته طبقًا لذلك الهدف.

إذًا فإن الاستراتيجية العامة لحياة الإنسان يحددها هدفه في الحياة، وهذا الهدف يختلف من فئة لأخرى، فبعض الناس يبغون الوصول إلى الجنة ورضوان اللَّه سبحانه وتعالى، بينما البعض الآخر يبغي الحصول على الكرسي والمنصب، أما البعض الثالث فإنه يبغي الوصول إلى الثروة. وتأتي الأدعية لكي تزكّي نفس الإنسان، وترفع همته، وتجعله يتطلع إلى الأعلى، حتى لا تخبو شعلة التطلع في قلبه وهو يرتطم بمشاكل الحياة، فالكثير من البشر يتطلعون إلى تحقيق طموحات كبيرة حينما يكونون صغارًا أو شبابًا، لكن الاصطدام بمشاكل الحياة، ومواجهة الصعوبات والمشاق تؤدي إلى ضمور طموحاتهم وانطفاء شعلة الطموح في قلوبهم، فتتحول الطموحات شيئًا فشيئًا إلى أماني بعيدة، ثم هذه الأماني -بدورها- تتبخر ويصبح الإنسان بذلك مجرد جسم دون روح وتطلع.

فالمسألة إذًا هي تغيير طموحات الإنسان ورفعها إلى مستوى الطموحات

الإنسانية الكاملة.. إلى مستوى إنسانية الإنسان وكرامته، وهذا من أهداف الأدعية المأثورة.

الرابعة: الأخلاق

ويقوم الدعاء بتزكية النفس تجاه إصلاح أخلاق الإنسان وآدابه. والأخلاق مبنية على أساس إصلاح نفس الإنسان وطموحاته، وحينما تصبح طموحات الإنسان شريفة وفاضلة فإن أخلاقه تنبع من الأرضية الصالحة.

الخامسة: العمل الصالح

والدعاء في مجمله هو دعوة الإنسان إلى الأعمال الصالحة كالصلاة والصوم والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإصلاح ذات البين والإنفاق وما شابه.

ففي أدعية شهر رمضان -على سبيل المثال- نقرأ هذه الفقرة: «**وَأَنْ تَكْتُبَنِي مِنْ حُجَّاجِ بَيْتِكَ الْحَرَامِ، الْمَبْرُورِ حَجُّهُمْ، الْمَشْكُورِ سَعْيُهُمْ، الْمَغْفُورِ ذُنُوبُهُمْ، الْمُكَفَّرِ عَنْهُمْ سَيِّئَاتُهُمْ**»[1].

والملاحظ هنا هو أنّ الدعاء لا يقتصر على جعل طموح الإنسان متجهًا نحو الحج باعتباره واجبًا وهو جهاد الضعفاء، وإنما أكثر من ذلك يحدد برنامج الحج وما هو الهدف من الحج؟.

---

(١) بحار الأنوار، ج٩٥، ص١٠٥.

هذا بالإضافة إلى ذكر الجهاد في كثير من الأدعية كوظيفة أساسية من وظائف الإنسان المؤمن، ونقرأ في أدعية شهر رمضان: «**وَقَتْلًا فِي سَبِيلِكَ فَوَفِّقْ لَنا**..»[1].

هذه هي مجمل المفردات التي نستطيع أن نستوحيها ونستلهمها من الأدعية المأثورة وهي تعكس بشكل من الأشكال مجمل المعارف القرآنية.

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة، ج١، ص١٤٣.

(2)

الخطوات الأساسية في التدبر

سبق وأن ذكرنا أنّ الأدعية تحتوي -عادة- على عدة مفردات هي: الذكر، وترسيخ العقائد الإسلامية، وتوضيح نية الإنسان أو إصلاح أهدافه وتزكية نفسه، وتعليمه الأخلاق والآداب الحسنة، وتشجيعه بالتالي على الأعمال الصالحة وعلى كيفية أدائها.

هذه هي المفردات الخمس التي تشكل الهيكل العام للأدعية المأثورة، إلَّا أن (الذكر) يشكل الصبغة العامة لكل الأدعية، ولجميع مراحل الدعاء، فحتى عندما يشجعنا الدعاء على الأعمال الصالحة أو يزكي نفوسنا، فإنه يفعل ذلك عبر (الذكر). فالذكر بالرغم من أنه مفردة واحدة إلى جنب سائر المفردات، إلَّا أنه في الوقت نفسه الصبغة العامة لكل المفردات الأخرى أيضًا، وتُعتبر معرفة هذه المفردات والتفتيش عنها الخطوة الأولى والأساسية من التدبر في الدعاء، أما الخطوات الأخرى فإنها تتشابه إلى حدٍّ بعيد مع تلك الخطوات التي يجب اتِّباعها لدى التدبر في القرآن الحكيم؛ لأن لغة الأدعية شبيهة إلى حد بعيد بلغة القرآن فهي دون القرآن مستوى، وفوق كلام المخلوقين جميعًا، وبعض هذه الأدعية حسب ما نعرف إنما هي أحاديث قدسية رويت عن اللَّه سبحانه وتعالى عبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وبعضها ترجمة حقيقية للأدعية المأثورة في الكتب الإلهية السابقة كزبور داود عليه السلام.

إن الخطوات التي نتبعها لدى التدبر في القرآن وكذلك الأدعية هي بإيجاز على النحو التالي:

١- **التدبر في السياق،** لمعرفة جزئيات وخصوصيات العلاقة بين الكلمة الأولى والكلمة الثانية في القرآن أو في الدعاء، وهكذا بين كل جملتين، وبين كل آيتين في القرآن، وفقرتين في الدعاء، وهذه العلاقة هي إما علاقة واقعية خارجية، وإما علاقة نفسية، مثلًا نجد أنّ العلاقة بين الفقرتين التاليتين من (دعاء الافتتاح) هي علاقة واقعية: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ، وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ..**»[1].

فالعلاقة بين (الافتتاح) و(حمد اللَّه) هي علاقة واقعية؛ لأننا من دون نِعَم اللَّه التي يستوجب بها حمدًا متجددًا، لا نستطيع أن نفتتح حديثنا. أَوَلَيس اللسان من اللَّه؟. والعقل والإيمان والتوفيق من اللَّه؟. ثم لنتأمل فقرة: «**وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ**».

إنها تدل على أن الإنسان قد يفتتح حديثه ببداية صائبة إلَّا أنه سرعان ما ينحرف بالإفراط أو التفريط، واللَّه سبحانه وتعالى هو القادر على أن يسدّده للصواب.

إذًا فالعلاقة بين الفقرتين الأولى والثانية في مبتدأ دعاء الافتتاح هي علاقة واقعية خارجية.

وقد تكون العلاقة نفسية تربوية تعيشها نفس الإنسان وتحتاجها في عملية التزكية، كالعلاقة بين كل جملتين من الفقرة الثالثة من دعاء مكارم الأخلاق.

---

(١) الإقبال بالأعمال الحسنة، ج١، ص١٣٨.

«**وَأَوْسِعْ عَلَيَّ فِي رِزْقِكَ، وَلَا تَفْتِنِّي بِالنَّظَرِ، وَأَعِزَّنِي وَلَا تَبْتَلِيَنِّي بِالْكِبْرِ، وَعَبِّدْنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ، وَأَجْرِ لِلنَّاسِ عَلَى يَدِيَ الْخَيْرَ وَلَا تَمْحَقْهُ بِالْمَنِّ، وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ، وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ**»[1].

فالعلاقة بين «**وَهَبْ لِي مَعَالِيَ الْأَخْلَاقِ**» وبين «**وَاعْصِمْنِي مِنَ الْفَخْرِ**» بالإضافة إلى أنها علاقة خارجية واقعية فهي علاقة نفسية؛ لأن الإنسان الذي يملك معالي الأخلاق لا بد أن يحذر من «**الْفَخْرِ**»؛ لأن الفخر يهدّد عادة ذلك الرجل الذي يتصف بمعالي الأخلاق، كما أن الذي يكثر من العبادة لا بد أن يحذر من العُجب؛ لأن العُجب يأتي عادة بعد كثرة العبادة، «**وَعَبِّدْنِي لَكَ وَلَا تُفْسِدْ عِبَادَتِي بِالْعُجْبِ**».

وهكذا الذي يجري اللَّه على يديه الخير للناس لا بد أن يحذر من المنّ؛ لأن المن يأتي عادة بعد هذه الصفة.

إذًا فالعلاقة بين الفقرات المذكورة هي علاقة نفسية ترتبط بواقع نفس الإنسان. وهكذا الأمر بالنسبة إلى الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمناسبة ليلة النصف من شعبان نقرأ في هذا الدعاء: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا، وَقُوَانَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلِ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا، وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا**»[2].

---

(١) الصحيفة السجادية، دعاء مكارم الأخلاق ومرضي الأفعال.

(٢) بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٦١.

بالتدبر في هذا الدعاء نكتشف أنّ الفقرات الثلاث الأولى تتحدث عن مراحل كمال الإنسان من خشية اللَّه إلى طاعة اللَّه وإلى اليقين ثم في الفقرات التالية نجد الحديث عن الأهداف المادية للإنسان مثل: الصحة والعافية، ثم الأهداف الاجتماعية، ثم التطلعات البعيدة للإنسان، ونجد أن هذا التدرّج مرتبط بنفس البشر، باعتبار أن الإنسان الذي لا يملك الخشية من اللَّه، ليس من المستحسن أن يطلب من اللَّه الطاعة؛ لأن الطاعة تأتي بعد الخشية، والذي لا يملك الطاعة للَّه ليس من الصحيح أن يطلب اليقين لأن الطاعة تأتي قبل اليقين، والذي لم يكمل بناء نفسه ولم يحصل على درجات الخشية والطاعة واليقين ليس من الصحيح أن يفكر في عينه وأذنه ويده؛ لأن الصحة الجسمية تأتي أهميتها ودورها بعد الصحة النفسية والتكامل الروحي للإنسان، ومن لا يملك العين والأذن واليد وسائر الجوارح السليمة، ليس من المستحسن أن يدعو اللَّه سبحانه وتعالى بأن يرزقه القوة ضد أعدائه؛ لأن قوة الإنسان تأتي من خلال امتلاكه العين، واليد، والأذن وما أشبه والذي لم ينتصر بعد على الظالم الداخلي، ليس من الصحيح أن يفكر في الانتصار على الظالم الخارجي؛ لأن الإنسان يستطيع أن ينتصر على الظالم الخارجي بعد الانتهاء من الظالم الداخلي، من هنا فإن الدعاء يقول: «**وَاجْعَلْ ثَارَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا**»، ثم يقول: «**وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا**».

وهكذا نلاحظ أنّ التدرج في الدعاء إما يرتبط بالتدرج التربوي، وإما بالتدرج الخارجي الواقعي، إذًا فالخطوة الأولى هي التدبر في السياق لاكتشاف العلاقة الواقعية أو النفسية بين فقرات الدعاء المختلفة.

٢- **ملاحظة ظلال الكلمات**، إذ إن الكلمات بالإضافة إلى معانيها

القريبة، تحتوي على ظلال توحي إلينا بمجموعة أفكار معينة، مثلًا: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ**».

لماذا لم يقل: (أفتح الثناء)؟ لأن هناك فرقًا كبيرًا بين (أفتتح) و(أفتح) في الظلال، وإن كانت متقاربة في المعنى، وكذلك فقرة: «**وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوابِ بِمَنِّكَ**».

لماذا لم يقل: (وأنت مسدِّد للسليم..)، مثلًا؟. إذ إن الصواب في الفكر والسلامة في الجسم، هكذا فإن كل كلمة تحمل -بالإضافة إلى جوهر معناها- إيحاءات خارجية لا بد أن نجعلها ضمن تدبرنا، فقد جاء عَنِ الإمامِ الصَّادِقِ عليه السلام قَالَ: «**أَعْرِبُوا كَلَامَنَا فَإِنَّا قَوْمٌ فُصَحَاءُ**»[1]، أي حاولوا أن تفهموا كلامنا بعمق.

وجاء في حديث آخر مروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «..**وَلَا يَكُونُ الرَّجُلُ مِنْكُمْ فَقِيهًا حَتَّى يَعْرِفَ مَعَارِيضَ كَلَامِنَا**»[2]، أي آفاق كلامنا. فالرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الطاهرون عليهم السلام الذين تركوا لنا مجموعة الأدعية المأثورة، كانوا يتمتعون بأعلى درجات البلاغة، والتي تعني استخدام الكلمة في موضعها الخاص بالضبط دون أي كلمة أخرى.

وهناك خطوات أخرى مشتركة في التدبر لا يسع البحث الإشارة إليها، إلَّا أن هناك خطوة تختص بالتدبر في الدعاء، وهي:

٣- التدبر في أوقات الدعاء، إنّ الدعاء يختلف عبر مناسبات عديدة، فهناك أدعية النهار، وهناك أدعية الليل، وهناك أدعية المناسبات الدينية،

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص١٥١.

(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص١٨٤.

وأدعية المناسبات الطبيعية، وأدعية مرتبطة بتطورات جسم الإنسان، وهناك أدعية مرتبطة بتطورات روح الإنسان، بل وأكثر من ذلك نجد أن لكل يوم دعاءً خاصًّا.

وليس عبثًا تخصيص دعاءٍ مّا لوقت معين أو حالة خاصة. إن هنالك علاقة وثيقة بين الأدعية وبين المناسبات والأوقات التي خصّصت لها، بحيث لو غيّرنا الوقت أو المناسبة لفقدنا هذه العلاقة وبالتالي ميزة الدعاء. فمثلًا نحن نقرأ دعاء (الافتتاح) في أول الليل من ليالي شهر رمضان، ودعاء (أبي حمزة الثمالي) في السحر، وأدعية أخرى خاصة بالنهار، فلو قرأ الإنسان في وقت الظهر مثلًا دعاء (أبي حمزة الثمالي)، لم يتلذذ بمناجاة اللَّه بمثل ما لو قرأ هذا الدعاء في وقت السحر، وبالعكس لو قرأ أدعية النهار في آخر الليل. إنّ أدعية النهار تتناسب مع جو الصخب، بينما أدعية الليل تتناسب مع جو الهدوء والخشوع، وهكذا الأمر بالنسبة لمختلف الأوقات والمناسبات.

إذًا فعلينا التدبر في هذا الجانب من الأدعية، حتى نكتشف حقيقة العلاقة بين الأوقات والمناسبات، وبين الأدعية، وقد نستطيع الحصول على معارف قرآنية وإلهية كثيرة ومتنوعة من خلال ذلك.

وإذا أمعنَّا في أدعية الأيام -على سبيل المثال- لوجدنا أنها تبدأ في الغالب بالحديث عن الطبيعة وربطها بخالقها ومبدعها ومُنشئها وهو اللَّه سبحانه وتعالى، ففي دعاء يوم الاثنين، نقرأ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يُشْهِدْ أَحَدًا حِينَ فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَلَا اتَّخَذَ مُعِينًا حِينَ بَرَأَ النَّسَمَاتِ**»[1].

(١) مفاتيح الجنان، دعاء يوم الاثنين للإمام زين العابدين عليه السلام.

ونقرأ في بداية دعاء يوم الأربعاء: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ لِباسًا، وَالنَّوْمَ سُباتًا، وَجَعَلَ النَّهارَ نُشُورًا**»(١).

أما في دعاء يوم الخميس فنقرأ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ اللَّيْلَ مُظْلِمًا بِقُدْرَتِهِ، وَجَاءَ بِالنَّهَارِ مُبْصِرًا بِرَحْمَتِهِ، وَكَسَانِي ضِيَاءَهُ وَأَنَا فِي نِعْمَتِهِ**»(٢).

وفي دعاء يوم الجمعة نقرأ الفقرة التالية: «**الْحَمْدُ للَّه الْأَوَّلِ قَبْلَ الْإِنْشَاءِ وَالْإِحْيَاءِ، وَالْآخِرِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَشْيَاءِ**»(٣).

وهنا نلاحظ أنّ لغة الدعاء في يوم الجمعة اختلفت عن لغة الدعاء في الأيام الأخرى؛ إذ إنها بدأت باستعراض العقائد الإسلامية وبالذات مسألة التوحيد، وكذلك الأمر بالنسبة إلى أدعية الحالات المختلفة؛ إذ إننا نجد هناك علاقة متينة بين تلك الحالة وبين الدعاء، مثلًا الدعاء المأثور لحالة الغضب تتناسب لغته مع هذه الحالة إذ يذكِّر الإنسان بغضب اللَّه، وقدرته وجبروته حتى يخشع قلب الإنسان وتنطفئ سورة غضبه. والدعاء الذي يقرؤه الإنسان حينما يرزقه اللَّه ولدًا يحتوي على الشكر للَّه، ثم يشير الدعاء إلى أن هذا المولود سيرث الوالد، لكي ينبّهه على توارد الأجيال، وأن قدوم الجيل الجديد يأذن برحيل الجيل السابق فعليه أن يستعد لتوديع الحياة.

فنجد أن الدعاء يتناسب مع الحالة النفسية للإنسان، وأنه يشير إلى نقطة واقعية تتفاعل معها روح الإنسان. وحينما ينظر الإنسان إلى الهلال في أول الشهر يقرأ الدعاء التالي: «**أَيُّهَا الْخَلْقُ الْمُطِيعُ، الدَّائِبُ السَّرِيعُ، الْمُتَرَدِّدُ**

(١) مفاتيح الجنان، من دعاء يوم الأربعاء.
(٢) مفاتيح الجنان، من دعاء يوم الخميس.
(٣) مفاتيح الجنان، من دعاء يوم الجمعة.

فِي مَنَازِلِ التَّقْدِيرِ، الْمُتَصَرِّفُ فِي فَلَكِ التَّدْبِيرِ. آمَنْتُ بِمَنْ نَوَّرَ بِكَ الظُّلَمَ، وَأَوْضَحَ بِكَ الْبُهَمَ، وَجَعَلَكَ آيَةً مِنْ آيَاتِ مُلْكِهِ..»[1].

هنا أيضًا نلاحظ العلاقة المتينة والتناسب الكامل بين لغة الدعاء، وبين المناسبة.

فكل دعاء يأتي لمناسبة، يهدف تغيير واقع من نفس الإنسان، وربطه بواقع في الطبيعة، وبالحقائق الكونية، إذًا فإن من أهم البرامج الأساسية للتدبر في الدعاء هو ربط الدعاء بالمناسبة التي جاء فيها ومن أجلها، واكتشاف العلاقة بينهما.

(١) الصحيفة السجادية، كان من دعائه عليه السلام إذا نظر إلى الهلال.

(3)

التدبر في الذكر

يقوم (الذكر) في الدعاء على أساسين هامين:

الأساس الأول: معرفة اللَّه.

الأساس الثاني: معرفة النفس.

فما هي العلاقة بين معرفة اللَّه، ومعرفة النفس؟ ولماذا جاء في الحديث الشريف، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**..»[1].

الجواب: لأنه حسب المنظور الإسلامي، في هذا الوجود شيئان لا ثالث لهما.

شيئان متمايزان عن بعضهما تمام التمايز:

- اللَّه الخالق الرازق البارئ المصور له الأسماء الحسنى.
- وخلق اللَّه سبحانه وتعالى.

وأقول: شيئان، لمجرد التعبير؛ لأنني لا أجد تعبيرًا آخر أستطيع أن أطلقه في هذا المجال، وليس بين هذين الشيئين درجات وطبقات، أي لا يوجد بين اللَّه الخالق، وبين الخلق: أنصاف آلهة.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢.

فكل شيء -ما سوى اللَّه- مخلوق مربوب ضعيف بالذات، عاجز بالذات، محدود بالذات، وربنا هو القيوم عليه، وهو الغني والحي بالذات القاهر فوق عباده.. الغني عن الخلائق، القيوم في شأن المخلوقين، ويصح أن نطلق على اللَّه كلمة شيء ولكن بهذا المفهوم، لا بإثبات الشيئية له، وإنما فقط نقول: «**شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ**»، لأن التعابير تظل عاجزة عن الأداء حينما تصل إلى أفق الخالق سبحانه وتعالى.

فكل الألفاظ تعجز عن أن تصف ربنا سبحانه وتعالى، أو ليست الألفاظ بالتالي من صنعنا وفي مستوانا نحن البشر؟. فكيف تصف الألفاظ المخلوقة ذلك الخالق السامي الشامخ السامق، الذي كلَّت العقول عن وصفه، وسمت العقول إلّا إليه؟. نقول للَّه «**شَيْءٌ**» لمجرد التعبير عن أنه غير معدوم وغير مفقود وغير عاجز، ويكفينا أن نثبت للَّه سبحانه وتعالى خلوه عن صفات العجز، أما إثبات صفات الكمال بصورة نتوهم معها تلك الصفات، فهذا لا يجوز بالنسبة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، نحن نستطيع «**إِخْرَاجهُ عَنْ حَدِّ التَّعْطِيلِ**» فقط.

وحينما نقول: «**اللهُ مَوْجُود**»، يعني أنه غير مفقود، وحينما نقول: «**اللهُ غَنِيٌّ**»، نعني به أنه غير عاجز، أما ما هو غناه؟. كيف هو غناه؟. هذه قضايا لا تصل إليها عقولنا، كيف وأن العقول قد عجزت عن معرفة المخلوقات فكيف بالخالق سبحانه وتعالى، إذًا ففي هذا الكون شيئان: «**شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ**» وهو اللَّه الخالق سبحانه وتعالى، وشيء آخر هو المخلوق للَّه، وإذا أردنا أن نثبت صفة لربنا سبحانه وتعالى، فلا بد أن ننفي عنه صفة المخلوقين.

فإذا رأينا المخلوق عاجزًا، نقول: إنّ ربنا غني عن العجز، وإذا رأينا

المخلوق ضعيفًا، نقول: إنّ ربنا غني عن الضعف. إذا رأينا المخلوق محدودًا بوقت نقول: إنّ ربنا لا حدَّ له، وإذا رأينا المخلوق محدودًا بمكان نقول: إنّ ربنا لا مكان له، ولا نستطيع بأي شكل من الأشكال أن نقول: علامَ؟. وفيم؟. ولِمَ؟. ومتى؟. وكيف؟. فهذه الكلمات تتساقط كلها أمام عزة اللَّه وجلاله وغناه سبحانه وتعالى.

إذًا، فإذا لم يكن في الحياة سوى شيئين: الخالق والمخلوق، فكلما عرف الإنسان حقيقة مخلوقيته، وحقيقة ضعفه وعبوديته، عرف أيضًا ربه سبحانه وتعالى باعتبار خلقه خلو منه وهو خلو عن خلقه، أي إن صفات المخلوقين لا تثبت له.

من هنا فإننا نفهم مدى العلاقة بين معرفة اللَّه ومعرفة النفس، فلكي نصل إلى معرفة اللَّه، علينا أن ننطلق عبر معرفة أنفسنا: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[1].

معرفة النفس طريق لمعرفة اللَّه، عُدْ إلى نفسك وتساءل: أنا ضعيف أم قوي؟. عاجز أم قادر؟. فقير أم غني؟. وتعود إلى عمق واقعك باحثًا عن الإجابة الصائبة، فتكتشف بفطرتك الحقيقة: إنني ضعيف وعاجز وفقير، إذًا فأنا محتاج إلى من يكون قويًّا، وقادرًا، وغنيًّا.

عبر هذه المعادلة التي نجدها بوضوح وبكثافة في الأدعية نصل إلى معرفة اللَّه، هذه المعادلة تكشف لنا أنفسنا، فنعرف من جهة، مدى الضعف والعجز والفقر الذي ارتكسنا فيه، ونعرف من جهة أخرى رب العزة.. الخالق، القوي، القادر، الغني.

---

(١) سورة فصلت، آية: ٥٣.

ولكي نوضح الفكرة أكثر، نقرأ بعض الفقرات من دعاء الإمام الحسين عليه السلام المأثور عنه بمناسبة (يوم عرفة)، ولنقرأ الفقرات بمزيد من التدبر والعودة إلى الوجدان والفطرة: «**إِلَهِي أَنَا الْفَقِيرُ فِي غِنَايَ، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ فَقِيرًا فِي فَقْرِي؟. إِلَهِي أَنَا الْجَاهِلُ فِي عِلْمِي، فَكَيْفَ لَا أَكُونُ جَهُولًا فِي جَهْلِي؟..**»[1].

ثم يواصل الدعاء في فقرة أخرى: «**إِلَهِي أَخْرِجْنِي مِنْ ذُلِّ نَفْسِي، وَطَهِّرْنِي مِنْ شَكِّي وَشِرْكِي، قَبْلَ حُلُولِ رَمْسِي، بِكَ أَنْتَصِرُ فَانْصُرْنِي، وَعَلَيْكَ أَتَوَكَّلُ فَلَا تَكِلْنِي، وَإِيَّاكَ أَسْأَلُ فَلَا تُخَيِّبْنِي، وَفِي فَضْلِكَ أَرْغَبُ فَلَا تَحْرِمْنِي..**»[2].

وهكذا يستمر الدعاء في بيان وتوضيح هذه المعادلة.

إنّ جهل الإنسان الحقيقي، وضعفه وفقره الواقعيين، كل ذلك يكشف عن قيمومة اللَّه وغناه وقدرته. ونواصل قراءة فقرة أخرى من الدعاء: «**إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي؟، أَمْ كَيْفَ أُهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي؟. إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي؟. أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي؟. إِلَهِي كَيْفَ لَا أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْفُقَرَاءِ أَقَمْتَنِي؟. أَمْ كَيْفَ أَفْتَقِرُ وَأَنْتَ الَّذِي بِجُودِكَ أَغْنَيْتَنِي؟.**»[3].

وهكذا يكشف الإمام الحسين عليه السلام من خلال الدعاء هذه الحقيقة:

إنّ الإنسان مهما يكن غنيًّا فعليه أن يتساءل:

- مَن أين هذا الغنى؟.

---

(١) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.
(٢) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.
(٣) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

- ومن الذي يصون له الغنى ويحفظه؟.

- أَوَلَيس اللَّه سبحانه وتعالى؟.

إذًا، فغناه دليل حاجته، وهكذا الأمر بالنسبة للعالِم، فإذا لم يمده اللَّه بنور الوجود ونور العقل ونور العلم فإن علمه سيزول عنه. إذًا، فإن الإنسان جاهل إلَّا به، ولكننا كلما شعرنا بالضعف، والفقر، والمحدودية في حياتنا، فإننا نشعر من جهة أخرى بأننا أغنياء، لأن لنا ربًّا غنيًّا، وأننا أقوياء لأننا نتوكل على رب قوي، لذلك يقول الإمام الحسين عليه السلام في دعائه: «**إِلَهِي كَيْفَ أَخِيبُ وَأَنْتَ أَمَلِي؟**»، فالخيبة هي من ذات الإنسان ولكن حينما يكون اللَّه أمله، فإنه لا يخيب.

«**أَمْ كَيْفَ أُهَانُ وَعَلَيْكَ مُتَّكَلِي؟**»، ذات الإنسان هي الإهانة، ولكنه لا يهان حينما يتَّكل على اللَّه.

«**إِلَهِي كَيْفَ أَسْتَعِزُّ وَفِي الذِّلَّةِ أَرْكَزْتَنِي؟**»، حينما يريد الإنسان أن يستعز، ويجلب لنفسه العزة، ما الذي يستطيع أن يفعل إذا كان كل شيء من دون اللَّه ذليلًا؟.

«**أَمْ كَيْفَ لَا أَسْتَعِزُّ وَإِلَيْكَ نَسَبْتَنِي؟**»، إذًا فالعزة تأتي للإنسان من خلال انتسابه للَّه، يكفيه أن يقول: إني (عبد اللَّه) لكي يكون عزيزًا في الحياة. هذه المعادلة نجدها في دعاء شريف آخر، يقول: «**مَوْلَايَ؛ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ الْمَوْلَى وَأَنَا الْعَبْدُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْعَبْدَ إِلَّا الْمَوْلَى. مَوْلَايَ؛ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ الْمَالِكُ وَأَنَا الْمَمْلُوكُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الْمَمْلُوكَ إِلَّا الْمَالِكُ. مَوْلَايَ؛ يَا مَوْلَايَ، أَنْتَ الْعَزِيزُ وَأَنَا الذَّلِيلُ، وَهَلْ يَرْحَمُ الذَّلِيلَ إِلَّا الْعَزِيزُ**»[1].

(١) مفاتيح الجنان، من مناجات أمير المؤمنين عليه السلام.

إذًا، أساس الذكر هو فهم هذه المعادلة: (إذا عرفت نفسك عرفت ربك)، وبالعكس أيضًا صحيح (كلما تعرَّفت إلى اللَّه عرَّفك اللَّه نفسه سبحانه وتعالى وعرَّفك نفسك أيضًا) بالطبع هناك المعرفة العقلية وهي معرفة اللَّه بالعقل، وبالأدلة الكلامية، وهناك المعرفة الوجدانية التي يصل فيها الإنسان إلى حالة انكشاف الحقائق ليراها بنور قلبه.

وخلاصة القول: إن معرفة اللَّه سبحانه وتعالى إنما تتم بمعرفة خصوصيات النفس، وإنما يكون هذا بتدبرنا في الأدعية التي نقرؤها وبتفهمنا للصلاة التي نصليها لنعرف أنّ اللَّه يراقبنا وإننا إنما نناجيه ونخشاه ولا نخشى غيره.

وفي الدعاء يقول: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي أَخْشَاكَ كَأَنِّي أَرَاكَ..**»[1].

الحيُّ القيُّوم:

وينقسم الذكر -من جهة أخرى- إلى قسمين:

١- الذكر الذي تتجلى فيه صفة «**الْحَيُّ**» والذي يُعبر عنه بصفات الذات أو أسماء الذات، والمقصود بأسماء الذات هو مجموعة الصفات والأمور الخالدة والأزلية كعلم اللَّه وقدرته، وحياته، وغناه، ولأن البشر مخلوق، وهو عاجز عن توهم ربه والإحاطة بذاته سبحانه وتعالى، فإن علينا -بالنسبة لأسماء الذات- أن نُسبِّح اللَّه، ونُقدِّسه، وننزهه عن صفات المخلوقين، ونخرجه عن حدِّ التعطيل والتشبيه.

٢- الذكر الذي تتجلى فيه صفة «**الْقَيُّومُ**» وهي ما يُعبر عنها بصفات

(١) مفاتيح الجنان، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

الفعل أو أسماء الفعل، وهي تعني أسماء لمجموعة الصفات المنظورة من قبل اللَّه سبحانه وتعالى كصفات: الخالق، الرازق، الفعَّال لما يريد، المنشئ، المبدع، المعين، وهذه الأسماء تعبر عن الصفات التي ينعكس أثرها المباشر على المخلوقات، لذلك فإن الذكر في هذا المجال يتجسد في حمد اللَّه وثنائه، والشكر له.

وسنحاول -من خلال التدبر في دعاء الافتتاح- أن نكتشف هذين القسمين من أقسام الذكر، إن شاء اللَّه تعالى.

ودعاء الافتتاح، هو دعاء معروف ومروي عن الأئمة الطاهرين عليهم السلام، ومخصّص للقراءة في ليالي شهر رمضان المبارك، وقد اخترنا هذا الدعاء للتدبر والتأمل لأنه يجمع بين مفردتين أساسيتين من مفردات الأدعية، هما:

١- الذكر.

٢- ترسيخ العقائد الإسلامية.

الفصل الرابع

تأملات في دعاء الافتتاح

١ - الحمد والدعاء.

٢ - توحيد اللَّـه.

٣- خزائن اللَّـه لا تنفذ.

٤ - علاقة الإنسان باللَّـه.

٥ - الدعاء ومعالجة الغيب والشهود.

٦ - حاجة الإنسان إلى اللَّـه.

٧- الاعتماد على اللَّـه.

٨- معرفة الرسول.

٩- معرفة الوصي.

١٠ - حجج اللَّـه على العباد.

١١ - دور الامام المنتظر.

١٢ - أسس الدولة الإسلامية.

١٣ - الإيمان بالآخرة.

(1)



الحمد والدعاء



«اللَّهُمَّ إِنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ، وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوَابِ بِمَنِّكَ، وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ، وَأَعْظَمُ الْمُتَجَبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ.

اللَّهُمَّ أَذِنْتَ لِي فِي دُعَائِكَ وَمَسْأَلَتِكَ، فَاسْمَعْ يَا سَمِيعُ مِدْحَتِي، وَأَجِبْ يَا رَحِيمُ دَعْوَتِي، وَأَقِلْ يَا غَفُورُ عَثْرَتِي، فَكَمْ يَا إِلَهِي مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجْتَهَا، وَهُمُوم [غُمُوم] قَدْ كَشَفْتَهَا، وَعَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَهَا، وَرَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَهَا، وَحَلْقَةِ بَلَاءٍ قَدَّ فَكَكْتَهَا..»[1].

ينبغي للداعي أن يبدأ حديثه ودعاءه بالثناء على اللَّه سبحانه وتعالى. والثناء على اللَّه قد يكون بالشكر للَّه وحده، وقد يكون بتسبيحه سبحانه وتعالى وتقديسه «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَفْتَتِحُ الثَّنَاءَ بِحَمْدِكَ**»، سوف يكون أول ثَنائي لك حمدي لك. وقد تعني هذه الجملة أنّ الثناء إنما هو بما وهب اللَّه لنا وأعطانا من فضل يجب أن نحمده عليه، فثنائي عليك إنما يكون بحمدك، فلولا أنك رزقتني القدرة على الثناء ووفقتني للدعاء كيف كنت أستطيع أن أحمدك أو أثني عليك؟.

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء الافتتاح.

إنّ حُسن الافتتاح لا يدل على حُسن الختام، فربما يكون الإنسان في مفتتح حياته، ومفتتح حديثه حسنًا، صالحًا، صائبًا لكنه ينحرف بعدئذٍ تحت تأثيرات مختلفة، لذلك فنحن نطلب من رب القدرة لتستمر استقامتنا على الصواب: «**وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوَابِ بِمَنِّكَ**»، أنت الذي تُسدِّدني للصواب.

حينما يرمي الإنسان سهمًا ويصيب الهدف، يكون قد سدّد الرمية، لأنها أصابت هدفها، ونحن حينما ندعو ربنا نطلب منه أن يسدد دعوتنا للصواب ويستجيبها، وهو المسدِّد للصواب، إلَّا أننا يجب ألَّا نغفل عن أن نِعَم اللَّه تعالى علينا، ومنها تسديده لنا للصواب، ليس أمرًا نستحقه نتيجة أعمالنا وجهدنا، وإنما هي بمنِّ اللَّه سبحانه وتعالى، لذلك فإننا نقول في دعائنا وبكل خشوع: «**وَأَنْتَ مُسَدِّدٌ لِلصَّوَابِ بِمَنِّكَ**».

ينبغي أن يكون الداعي بين اليأس والرجاء، أو بتعبير أفضل بين الخوف والأمل: ﴿**وَيَدْعُونَنا رَغَبًا وَرَهَبًا**﴾[1]، خوفًا وأملًا، لذلك ترى في بداية دعاء الافتتاح يضع الإمام عليه السلام الدعاة بين الرغبة والرهبة: «**وَأَيْقَنْتُ**[2]

(١) سورة الأنبياء، آية: ٩٠.

(٢) تكتب بعض كتب الأدعية كلمة «**وَأَيْقَنْتُ**» بضمير المخاطب أي «**وَأَيْقَنْتَ**» ويعني هذا الاتجاه أن اللَّه هو الذي أيقن بأنه أرحم الراحمين. إذ إن كثيرًا ممن يقرؤون الدعاء قد لا يكونون من الموقنين، فكيف يمكن لغير الموقن أن يقول: «**وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**» في الوقت الذي لم يصل بعد إلى مرحلة اليقين؟. أما نحن فنفضل القراءة المعروفة وهي: «**وَأَيْقَنْتُ**» بضمير المتكلم، لأننا لا نعرف هل أن استخدام كلمة (اليقين) في اللَّه سبحانه وتعالى له معنى أم لا. ثم من جهة أخرى: إن الأدعية هي -في الغالب- اعتبارات، أي إنها تجعل الإنسان يفكر وكأنه من الموقنين، مثلًا حينما نقول: «**إِلَهِي إِنْ كَانَ النَّدَمُ عَلَى الذَّنْبِ تَوْبَةً، فَإِنِّي وَعِزَّتِكَ مِنَ النَّادِمِينَ**»، فليس هذا إخبارًا عن حالة سابقة، وإنما هو إنشاء لهذه الحالة، والأدعية هي عادة مجموعة إنشاءات إلّا أنها تتحدث بلغة الماضي ولكن تعبيرًا عن الحاضر. إذًا حينما نقول: «**وَأَيْقَنْتُ**» يعني: أننا ينبغي أن نرتفع

أَنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ»، إذا كنتَ أهلًا للعفو والرحمة فإن الرحمة تنزل عليك بحيث لا تستطيع استيعابها، مثلًا: حينما تهطل الأمطار من السماء كمظهر من مظاهر رحمة اللَّه، فإنها تكون من الكثرة بحيث تفيض الأودية بالماء، ولا تستطيع أن تستوعب الكمية الهائلة من الأمطار التي تنزل من السماء، أو إذا فتح اللَّه على الإنسان أبواب الرزق فإنه يغمر الإنسان بحيث لا يعرف ماذا يصنع به، هذا إذا كان الإنسان مستحقًا للرحمة.

أما إذا كان الإنسان مستحقًا للعذاب فإنَّ العذاب يأتيه بشدة وبصورة لا يتصورها. إذًا، فإن الإنسان بين أمرين:

إما رحمة واسعة نسألها من اللَّه، وإما عذاب شديد نستجير باللَّه منه، «**وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ**»، وليس غيرك يا رب «**أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ**»، فإذا كنتَ مذنبًا ودعوتَ اللَّه سبحانه وتعالى، مددتَ إليه يد الضراعة والمسكنة ليغفر لك ذنبك، فإن اللَّه لا يعفو عن الذنب فقط، وإنما يزيدك من رحمته، وهذا من أسماء اللَّه سبحانه وتعالى.

فالإنسان المذنب يطلب من اللَّه أن يتجاوز عن سيئاته ويغفر له ذنوبه من قبيل: ترك الصلاة، إيذاء الناس، وتضييع حقوقهم، اتِّهامهم واغتيابهم، تضليل الآخرين... إلخ، فإن اللَّه يغفر له إن شاء، ويزيده من نعمه بأن يعطيه الإيمان، والتقوى، والرحمة من عنده، «**وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ**» ، وإذا أراد ربنا أن يجازي أحدًا وأن ينتقم منه، فإن عذابه يكون شديدًا، وما نراه في هذه الدنيا من أنواع العذاب التي حلَّت بالأقوام الكافرة

إلى درجة اليقين، وإذا لم أكن من (الموقنين) فعلًا فإنني يجب أن أكرّر هذا الإيحاء حتى أرتفع إلى هذا المستوى، بل وتعبيرًا عن رغبتي الشديدة في بلوغ مرحلة اليقين.

مثل: قوم لوط أو بلاد عاد أو ثمود أو أصحاب الأيكة، وما نعرفه من غرق فرعون وآل فرعون في اليم، كل هذا شيء بسيط جدًّا من عذاب اللَّه سبحانه وتعالى، أما عذابه الشديد ونكاله ونقمته فهي في الآخرة.

«**وَأَعْظَمُ الْمُتَجَبِّرِينَ فِي مَوْضِعِ الْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»، كل أبناء آدم يذنبون إلّا المعصومين منهم، ولكن على الإنسان ألَّا يتحدى ربه، فبعض الذنوب يرتكبها الإنسان في حالة التحدي للَّه عز وجل.

إنّ كبرياء اللَّه وعظمته لن تسمحا لأحد بأن يتحداه، وعلى العبد أن يحذر من تحدي جبار السماوات والأرض بكثرة الذنوب والإصرار عليها، ممَّا قد يصل إلى درجة يخاطبه اللَّه تعالى فيها، فعن أبي عبد اللَّه الصادق عليه السلام قال: «**مَنْ هَمَّ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَعْمَلْهَا، فَإِنَّهُ رُبَّمَا عَمِلَ الْعَبْدُ السَّيِّئَةَ، فَيَرَاهُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَغْفِرُ لَهُ أَبَدًا**»[1].

وقد جاء في دعاء (أبي حمزة الثمالي) ما يشير إلى هذا المفهوم، إذ يقول الدعاء: «**إِلَهِي لَمْ أَعْصِكَ حِينَ عَصَيْتُكَ وَأَنَا بِرُبُوبِيَّتِكَ جَاحِدٌ، وَلَا بِأَمْرِكَ مُسْتَخِفٌّ، وَلَا لِعُقُوبَتِكَ مُتَعَرِّضٌ، وَلَا لِوَعِيدِكَ مُتَهَاوِنٌ. لَكِنْ خَطِيئَةٌ عَرَضَتْ، وَسَوَّلَتْ لِي نَفْسِي، وَغَلَبَنِي هَوَايَ، وَأَعَانَنِي عَلَيْهَا شِقْوَتِي، وَغَرَّنِي سِتْرُكَ الْمُرْخَى عَلَيَّ، فَقَدْ عَصَيْتُكَ وَخَالَفْتُكَ بِجُهْدِي، فَالْآنَ مِنْ عَذَابِكَ مَنْ يَسْتَنْقِذُنِي، وَمِنْ أَيْدِي الْخُصَمَاءِ غَدًا مَنْ يُخَلِّصُنِي..**»[2].

وعلى الإنسان أن يسارع إلى التوبة من الذنب، ولا يترك الذنوب تتراكم في حياته فإنها تكون أصعب للمغفرة، ثم إنّ تراكم الذنوب على قلب

(١) بحار الأنوار، ج٧٠، ص٣٥٧.
(٢) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

الإنسان تميت قلبه وتجعله أبعد عن الهداية، فيجب أن يبادر الإنسان إلى محوها بالتوبة.

إنّ من أشد العذاب الذي ينتقم اللَّه به من الكفار والمشركين في نار جهنم، هو أنّ اللَّه سبحانه وتعالى لا يأذن لهم بسؤاله عن شيء، فأهل النار لا يحق لهم التحدث مع اللَّه، إلَّا أن اللَّه لم يغلق باب التحدث معه وسؤاله التوبة والمغفرة في وجه المذنبين في الدنيا، فأنت العبد الضعيف المحتاج المسكين الذي لا تملك لنفسك شيئًا، تتحدى ربك وتذنب الذنب ثم تستغفره وتطلب منه العفو والتوبة، وهو يغفر لك، إنه فتح أمامك باب المغفرة، وأذن لك بالتوبة في الدنيا، أما في يوم الحساب فإن اللَّه يغلق هذا الباب، فعلينا أنْ نستغل الفرصة، ونبادر إلى التوبة وطلب الغفران.

«**اللَّهُمَّ أَذِنْتَ لِي فِي دُعَائِكَ**»، إلهي: أَنت الذي بدأت بالفضل وأَعطيتني الإذن بالدعاء والمسألة «**فَاسْمَعْ يَا سَمِيعُ مِدْحَتِي**»، إذًا فأنا أبدأ دعائي بمدح اللَّه وحمده سبحانه وتعالى «**وَأَجِبْ يَا رَحِيمُ دَعْوَتِي، وَأَقِلْ يَا غَفُورُ عَثْرَتِي**»، إننا نطلب من اللَّه أن يغفر لنا كل العثرات والزلل والذنوب والهفوات، وأن يُقيلها أي: يعتبرها وكأنها لم تكن، فالإقالة تعني أنك حينما تشتري بضاعة، ثم تكتشف أنها لا تفيدك، فترجع إلى البائع وتطلب منه أن يستردها ويعيد لك نقودك وكأن لم يكن بيع ولا شراء، هذه هي الإقالة، ونحن نطلب من اللَّه أن يعتبر ذنوبنا وكأنها لم تكن، ويمحوها من صفحات أعمالنا: «**وَأَقِلْ يَا غَفُورُ عَثْرَتِي**».

«**فَكَمْ يَا إِلَهِي مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجْتَهَا، وَهُمُومٍ قَدْ كَشَفْتَهَا، وَعَثْرَةٍ قَدْ أَقَلْتَهَا**»، يا إلهي: إذا غفرت لنا ذنوبنا، وأقلتَ عثراتنا فليست هي المرة الأولى، فما أكثر الذنوب التي غفرتَها، والكربات التي فرّجتَها، والعثرات التي أقلتَها.

إنّ الداعي يجب أن يتذكر كُرَبَه التي فرجها اللَّه، وهمومه التي كشفها اللَّه، وعثراته التي أقالها اللَّه سبحانه وتعالى، فإن هذا التذكر أدعى لأن يفتح اللَّه أبواب الإجابة أمامه.

ولكن لا ينحصر فضل اللَّه على الإنسان بكشف الهموم، وإقالة العثرات، وتفريج الكربات، بل أكثر من ذلك، «**وَرَحْمَةٍ قَدْ نَشَرْتَهَا، وَحَلْقَةِ بَلَاءٍ قَدْ فَكَكْتَهَا**»، قد يشعر الإنسان أحيانًا وكأن البلاء قد حاصره من كل مكان، وقد أعيته مذاهب الحياة، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، فإذا به يرى البلاء من كل مكان: أصدقاؤه يخونونه، أقاربه يتركونه، مجتمعه يرفضه، والحكومة تلاحقه، ومن جهة أخرى: جسمه ضعيف والمرض يهجم عليه، وكأن البلاء يهاجمه من كل مكان وليس له أي أمل، ولا يستطيع أن يمد يده إلى أي إنسان، هنالك يتَّجه قلبه إلى اللَّه سبحانه وتعالى فيفك اللَّه عنه حلقة البلاء ويجعله ينطلق في الحياة، وتعود كل المياه إلى مجاريها، وتغمره رحمة اللَّه ولطفه. إلّا أن مشكلة الإنسان أنه ينسى كل ذلك، فأنا وأنت لا شك قد ابتلينا في فترات من حياتنا بأنواع البلاء والمشاكل، ولم يفك حلقة البلاء عنا إلَّا اللَّه تعالى، ولكننا نسينا تلك اللحظات الصعبة، والدعاء يذكرنا بكل ذلك، ويزرع في قلوبنا الأمل باللَّه والرجاء برحمته.

(2)

توحيد اللّه

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً وَلا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا. الْحَمْدُ لِلَّهِ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ كُلِّهَا، عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ كُلِّهَا، الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَا مُضَادَّ لَهُ فِي مُلْكِهِ، وَلَا مُنَازِعَ لَهُ فِي أَمْرِهِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِ، وَلَا شَبِيهَ [شِبْهَ] لَهُ فِي عَظَمَتِهِ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ أَمْرُهُ، وَحَمْدُهُ الظَّاهِرِ بِالْكَرَمِ مَجْدُهُ، الْبَاسِطِ بِالْجُودِ يَدَهُ..».

****

عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، خَلَقَ اسْمًا بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مَنْعُوتٍ، وَبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ، وَبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ، وَبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ، وَبِاللَّوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ، مَنْفِيٌّ عَنْهُ الْأَقْطَارُ، مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ، مَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مُتَوَهِّمٍ، مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ، فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعًا، لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الْآخَرِ، فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ، لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا، وَحَجَبَ وَاحِدًا مِنْهَا، وَهُوَ الاسْمُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي أُظْهِرَتْ، فَالظَّاهِرُ هُوَ اللَّهُ وَتَبَارَكَ وَسُبْحَانَ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ أَرْبَعَةُ أَرْكَانٍ، فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْنًا.

ثُمَّ خَلَقَ لِكُلِّ رُكْنٍ مِنْهَا ثَلَاثِينَ اسْمًا، فِعْلًا مَنْسُوبًا إِلَيْهَا، فَهُوَ: الرَّحْمنُ الرَّحِيمُ * الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ * الْخالِقُ * الْبارِئُ * الْمُصَوِّرُ * ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[1]، الْعَلِيمُ * الْخَبِيرُ * السَّمِيعُ * الْبَصِيرُ * الْحَكِيمُ * الْعَزِيزُ * الْجَبَّارُ * الْمُتَكَبِّرُ * الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ * الْمُقْتَدِرُ * الْقادِرُ * السَّلامُ * الْمُؤْمِنُ * الْمُهَيْمِنُ * الْبارِئُ * الْمُنْشِئُ * الْبَدِيعُ * الرَّفِيعُ * الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ * الرَّازِقُ * الْمُحْيِي * الْمُمِيتُ * الْبَاعِثُ * الْوَارِثُ. فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ، وَمَا كَانَ مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى، حَتَّى تَتِمَّ ثَلَاثَمِائَةٍ وَسِتِّينَ اسْمًا، فَهِيَ نِسْبَةٌ لِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وهَذِهِ الْأَسْمَاءُ الثَّلَاثَةُ: أَرْكَانٌ وَحُجُبٌ للاسْمِ الْوَاحِدِ الْمَكْنُونِ الْمَخْزُونِ، بِهَذِهِ الْأَسْمَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمنَ أَيًّا ما تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْماءُ الْحُسْنى﴾[2]»[3].

اللَّه، تبارك، سبحانه، هذه أصول (أَسْمَاءُ اللَّه الْحُسْنَى)، واسم (اللَّه) تشتق منه أسماء أخرى كـ: «**الْعَلِيمُ**»، «**الْقَدِيرُ**»، «**الْخَبِيرُ**»، «**الْبَصِيرُ**»، «**السَّمِيعُ**»، «**الْحَكِيمُ**».

وما أشبه، هذه الأسماء التي تدل على صفات اللَّه الذاتية -حسب تعبير علماء الكلام- واسم «**تَبارَكَ**» تشتق منه أيضًا مجموعة أسماء هي (أسماء الفعل) فتبارك يعني: أعطى البركة، وكل ما يعطيه اللَّه سبحانه وتعالى لخلقه فهو بركة، وأسماء الفعل هي: «**الْخالِقُ، الرَّازِقُ، الْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ، الْمُصَوِّرُ، الْبارِئُ**». وما أشبه، هذه الأسماء التي تدل عن أفعال اللَّه سبحانه وتعالى، والاسم الثالث هو «**سُبْحانَ**»، وهو اسم يدل على تنزيه ربنا عن

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٥٥.

(٢) سورة الإسراء، آية: ١١٠.

(٣) بحار الأنوار، ج٤، ص١٦٦-١٦٧.

التشبيه بالخلق، وعن اتِّخاذ المثل له، وتجزئته سبحانه وتعالى، مثل اسم «**الصَّمَدُ * أَحَدٌ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾**[1]»، هذه هي أسماء اللَّه سبحانه وتعالى ويشتق منها ثلاثمائة وستون اسمًا على الأقل، من كل اسم تشتق مجموعة أسماء، تتفرع منها أسماء أخرى.

وفي هذه الفقرة من الدعاء، نتلو بعضًا من أسماء التسبيح والتنزيه التي يرمز إليها اسم (السبحان).

يقول بعض العلماء: إنّ أعظم أسماء اللَّه هو اسم (السبحان)، وإن أعظم الأذكار هو «**سُبْحَانَ اللَّه**»، لذلك فإن أفضل الأذكار في الركوع والسجود هو «**سُبْحَانَ اللَّه**». كما أنّ التسبيحات الأربع التي تُقرأ في الركعات الثالثة والرابعة من الفرائض تُبتدأ بـ«**سُبْحَانَ اللَّه**»، حتى في الأذكار التي تتلى عقب الفرائض والمشهورة باسم (تسبيحات الزهراء) قال بعض العلماء: إنّ الأفضل الابتداء بـ«**سُبْحَانَ اللَّه**» ثم «**الْحَمْدُ للَّه**» ثم «**اللهُ أَكْبَرُ**»، بعكس ما هو المتعارف عند عامة الناس.

والسؤال هو: لماذا اسم (السبحان) هو من أعظم أسماء اللَّه؟.

الجواب: لأنّ الإنسان يعرف بفطرته أنّ له خالقًا: ﴿**فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[2].

وفي آية أخرى يقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا...**﴾[3].

---

(١) سورة الإخلاص، آية: ٤.
(٢) سورة الروم، آية: ٣٠.
(٣) سورة الأعراف، آية: ١٧٢.

إذًا، إنّ فطرة العبودية للّه، وفطرة الاعتراف بالخالق، مرتكزة في كل النفوس، إلّا أنّ مشكلة الإنسان الحقيقية هي أنه يريد أن يفهم اللّه وأن يُحيط معرفةً باللّه، يريد أن يلمس وأن يحس ربه، لذلك فهو يُشبِّه ربه بخلقه، وهنا مكمن الانحراف في العبادة؛ إذ إن الإنسان يتجه مرة لكي يصنع صنمًا ويعبده، ويقول: هذا ربي، ومرة أخرى يتخذ نوعًا من النباتات والأشجار والحيوانات ليعبدها من دون اللّه، والبعض الآخر يعبد الشمس أو القمر، أو النجوم، فالجميع معترفون بأن لهم خالقًا، ولكن: من هو هذا الخالق؟.

هنا مكمن الاشتباه، وأساس ضلالة الإنسان وانحرافه؛ إذ إنه يحاول أن يُشبِّه خالقه بخلقه. أما لو عرف الإنسان هذه الحقيقة: أن ربه تعالى عن إحاطة الإنسان به علمًا، وأنه مُنزَّه وسبوح وقدوس عن التشبيه بالخلق، لو عرف أن اللّه أكبر من أن يُوصف، لاقترب إلى اللّه سبحانه وتعالى.

ولكن هناك مشكلة أخرى تعترض البشر حتى المؤمنين باللّه منهم، فحينما يريدون أن يقتربوا إلى اللّه تأتي المخلوقات وتحجبهم عن الخالق، فيتوجه الإنسان إلى المخلوق عوض التوجه إلى الخالق، و«**سُبْحَانَ اللَّه**»، هو الذكر الذي يُقرِّبك إلى اللّه سبحانه وتعالى، لأنه يبعدك عن التشبيه، ولذلك جاء في القرآن الكريم: ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[1].

فالسماوات والأرض بما تدل على محدوديتها وحاجتها وضعفها وعجزها وأنها قد ابتدأت في لحظة، وسوف تنتهي في لحظة وفي ساعة

(١) سورة الصف، آية: ١.

معينة، إنّ هذه السماوات والأرض تُسبِّح اللَّه، أي تُنزِّهه وتُقدِّسه عن صفات السماوات والأرض، ومن أبرزها (المخلوقية) بينما صفة اللَّه تعالى هي (الخالقية)، ومن صفات السماوات والأرض: العجز والحاجة، بينما من صفات اللَّه تعالى هي: الغنى والقدرة.

وربما نستطيع أن نعتبر البرهان الذي توصَّل عبره النبي إبراهيم عليه السلام إلى إثبات وجود اللَّه واتَّجه إلى عبادته، هو من قبيل هذا الأمر، حيث إنه لما رأى الكوكب، والقمر، والشمس، وقال عن كل واحد منها: هذا ربي، ولكنه لما رأى أفولها، وأنها لا يمكن أن تكون آلهة، توصل إلى هذه النتيجة: ﴿**إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنْ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

فتوجَّه إلى خالق الكوكب، والقمر، والشمس..

هذا البرهان هو في هذا الاتجاه، إذ إن الإنسان يُشبِّه ربه أولًا بالمخلوقات، إلّا إنه بعد الدقة والتعمق يعرف أن الخالق لا يمكن أن يكون مثل المخلوق، لأن المخلوق بصفاته المعروفة غير قادر على الاستقلالية، فالمحدود يحتاج إلى من يحده، والعاجز يحتاج إلى من يعطيه القدرة، والضعيف يحتاج إلى القوي، فإذًا يجب أن يكون الخالق قويًّا، عزيزًا، وقادرًا.

لذلك كلّما سبّحنا اللَّه وقدَّسناه ونزّهناه سبحانه وتعالى اقتربنا إليه. والآن لنتأمل فقرات الدعاء: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ صاحِبَةً وَلا وَلَدًا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**».

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٩.

لماذا لم يقل: لم يتخذ ولدًا ولا صاحبة؟ لأن الإنسان -في البدء- يتخذ لنفسه صاحبة وزوجة، ثم بعد ذلك يولد له الأولاد. واللَّه الخالق منزَّه عن ذلك «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ**»، الملكوت للَّه سبحانه وتعالى ليس له شريك فيه «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ**».

الصالحون من عباد اللَّه هم أولياء اللَّه: ولكن ليس للَّه ولي من الذل، أي إنه لا يحتاج إلى أحد، غني عن العالمين، بل العالَمون جميعًا يحتاجون إليه، والإنسان إذا أراد أن يعمل عملًا، فلا بد أن يُعينه فيه مجموعة من الأعوان والأنصار، أما اللَّه فهو لا يحتاج إلى أحد، أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾. لا يحتاج إلى من يُعينه في خلق السماوات والأرض، أو يساعده في تدبير شؤون السماوات والأرض «**وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ، وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**»، فاللَّه أكبر ممَّا يصفه الإنسان وممَّا تتوهمه العقول.

إنّ محاولة توهُّم اللَّه تعالى تجر الإنسان إلى عبادة المخلوقات، وهذا هو الذي أدّى بالسامري وأتباعه أن يتوهَّموا ربهم في عجل خلقوه بأيديهم: ﴿**فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ**﴾[1].

«**وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا**» أي يجب ألَّا يكون هناك أي توهّم للَّه، فاللَّه فوق الأوهام والخيال. كلما توهمته في ذهنك فهو مخلوق وليس بخالق. الخالق فوق توهّم الإنسان، والمطلوب في معرفتك باللَّه هو أن تخرجه من حدود التعطيل والتشبيه، فلا هو من خلقه ولا هو عدم، هو شيء لا كالأشياء، أما كيف؟. لا كيف له.. أين؟. لا أين له؟ متى؟. لا متى له. ما هي علامته؟

(١) سورة طه، آية: ٨٨.

لا علامة له. إن كل هذه الحروف غير صادقة في اللَّه، هذه كلها صفات المخلوق.

بعد أن ذكر الدعاء بعضًا من أسماء اللَّه السبحانية التي تقدسه وتنزهه عن كل نقص وعجز، يشير في هذه الفقرة إلى أسماء الفعل التي يرمز إليها اسم «**تَبارَكَ**»: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ كُلِّهَا**» هل يستطيع الإنسان أن يستغني عن أيّ نعمة من نعم اللَّه؟. أو هل يستطيع أن يحصل على هذه النعم من غيره؟. وأي نعمة من النعم التي أعطاها اللَّه لنا لا يستحق بها حمدًا جديدًا؟. كل النعم نحتاجها، وكل النعم من عنده، وكلها بحاجة إلى الحمد، لذلك فإننا نحمدها جميعًا وفي جملة صغيرة ونقول: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ بِجَمِيعِ مَحَامِدِهِ كُلِّهَا، عَلَى جَمِيعِ نِعَمِهِ كُلِّهَا**».

ولكن ماذا يعني بجميع محامده كلها؟.

الجواب: إننا قد نحمد اللَّه بتعابير مختلفة، فنقول: الحمد للَّه، حمدك يا رب، نحمدك يا أللَّه، لك الحمد يا حامد ويا حميد. إلّا أننا هنا نحمد اللَّه بجميع محامده على جميع نعمه.

«**الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَا مُضَادَّ لَهُ فِي مُلْكِهِ**»، حينما ملك اللَّه فليس هناك ملك آخر يستطيع أن يُضادَّ ربنا، هذا ما نعترف به بألسنتنا. ويأتي الدعاء لكي يعمل على إدخال هذه الحقيقة إلى القلب، حتى تتحول جزءًا من جنان البشر ومن تركيبته الداخلية، إن الإنسان كثيرًا ما يقول: «**الْحَمْدُ لِلَّه الَّذِي لَا مُضَادَّ لَهُ فِي مُلْكِهِ**»، ولكنه حين العمل يخضع للطاغوت، وللأنظمة المستكبرة، يخضع لغير اللَّه سبحانه وتعالى. إنّ ما تقرّ به ألسنة البشر يجب أن يتحوَّل إلى إيمان قلبي ينعكس بدوره على مواقف وأعمال الإنسان في حياته اليومية.

«**وَلَا مُنَازِعَ لَهُ فِي أَمْرِهِ**»، إذا أمر اللَّه أمرًا، انتهى كل شيء، فلا معقب لحكمه، ولا أحد يستطيع أن يقول: لماذا؟. أو أن يقف بوجه أمر اللَّه، فلو أراد اللَّه أن يرفع إنسانًا، لا يستطيع العالم كله أن يضعه، ولو شاء اللَّه أن يضع إنسانًا ويهينه، فإن كل قوى العالم لا تستطيع مجتمعة أن تُكرمه، إنّ أمر اللَّه ومشيئته لا منازع لهما، ولا يقدر أحد أن يتحداهما.

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لا شَرِيكَ لَهُ فِي خَلْقِهِ، وَلَا شَبِيهَ [شِبْهَ] لَهُ فِي عَظَمَتِهِ**»، فعندما خلق السماوات والأرض لم يتخذ شريكًا، وعظمة اللَّه ليست ممَّا تصل إليها عظمة أحد، «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ أَمْرُهُ، وَحَمْدُهُ**»، كان اليهود يقولون: إن اللَّه سبحانه وتعالى مغلول اليدين، لا يقدر على شيء، وقد كانت لهذه الفكرة امتدادات، منها الكفر بعقيدة (البداء) والإيمان (بالبداء). يعني الإيمان بأن اللَّه سبحانه وتعالى قادر أن يتَّخذ قرارًا جديدًا في كل لحظة وفي كل شأن من الشؤون، فليس هناك ما يحتم على اللَّه شيئًا أبدًا، فاللَّه فوق الحتميات، إذا أراد اللَّه الآن وفي هذه اللحظة أن يعدم الكون كله، لفعل ذلك في أقل من طرفة عين، فهو الفاشي في الخلق أمره.

أفلا يستطيع الذي خلق الكون أول مرة وأعطاه الوجود، أن يعدمه ويسلب منه نعمة الوجود في لحظة واحدة؟. إنّ من أهم عقائدنا ومن أكثرها تقدمية وحضارية وتحررية هي عقيدة (البداء) ففي اعتقادنا يستطيع اللَّه أن يُغيِّر وأن يُبدِّل القدر. يُنزل عليك البلاء ثم تدعو اللَّه سبحانه وتعالى، فيرفع القدر، هذا هو (البداء) وليس كل ما خَطَّ في اللوح المحفوظ هو الذي يحدث حتمًا ودون أي تغيير، كلَّا.. إنّ التغيير ممكن، لذلك نقرأ في أدعية شهر رمضان المبارك: «**وَإِنْ كُنْتُ مِنَ الْأَشْقِيَاءِ فَامْحُنِي مِنَ الْأَشْقِيَاءِ، وَاكْتُبْنِي مِنَ السُّعَدَاءِ**»[1].

(١) بحار الأنوار، ج٩٥، ص١٦٢.

فإذا كان اسمي في اللوح المحفوظ مكتوبًا من الأشقياء، فإنني أدعو اللَّه، وأعمل الصالحات، والتمس إلى الرب الكريم، فيستجيب اللَّه لي، ويُغيِّر ذلك القرار، «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ أَمْرُهُ، وَحَمْدُهُ**»، أمر اللَّه منتشر في الخلق، وهو قادر على أن يُغيِّر ويُبدِّل في كافة الأمور والشؤون حسب مشيئته الحكيمة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى حمد اللَّه، وهذا يعني أن أمره حميدٌ أيضًا، «**الظَّاهِرِ بِالْكَرَمِ مَجْدُهُ**»، إنّ مجد اللَّه وعظمته يظهران بالكرم، فاللَّه لا يستخدم عظمته ومجده وقدرته في ظلم المخلوقات وقمع الضعفاء والعاجزين كما يفعل بعض المخلوقين حينما يحصل على القوة والعظمة الظاهرية، أما اللَّه فإنه ذو مجدٍ وكرم في آن واحد، «**الْبَاسِطِ بِالْجُودِ يَدَهُ**»، أما جود اللَّه ويده، فإنهما مبسوطان على كل الخلائق، ولولا جود اللَّه ونعمه التي يبسطها بيده على الخلق، لانعدم الوجود ولتحوَّل كل شيء إلى رماد.

(3)

خزائن اللَّه.. لا تنفذ

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ أَمْرُهُ، وَحَمْدُهُ الظَّاهِرِ بِالْكَرَمِ مَجْدُهُ الْبَاسِطِ بِالْجُودِ يَدَهُ، الَّذِي لَا تَنْقُصُ خَزَائِنُهُ وَلَا تَزِيدُهُ [يَزِيدُهُ] كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكَرَمًا إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ مَعَ حَاجَةٍ بِي إِلَيْهِ عَظِيمَةٍ، وَغِنَاكَ عَنْهُ قَدِيمٌ، وَهُوَ عِنْدِي كَثِيرٌ، وَهُوَ عَلَيْكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ.

اللَّهُمَّ إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبِي، وَتَجَاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي، وَصَفْحَكَ عَنْ ظُلْمِي، وَسَتْرَكَ عَلَى [عَنْ] قَبِيحِ عَمَلِي، وَحِلْمَكَ عَنْ كَثِيرِ [كَبِيرِ] جُرْمِي، عِنْدَمَا كَانَ مِنْ خَطَايَ [خَطَئِي] وَعَمْدِي، أَطْمَعَنِي فِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، الَّذِي رَزَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَرَيْتَنِي مِنْ قُدْرَتِكَ، وَعَرَّفْتَنِي مِنْ إِجَابَتِكَ. فَصِرْتُ أَدْعُوكَ آمِنًا، وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا، لَا خَائِفًا وَلَا وَجِلًا، مُدِلًّا عَلَيْكَ فِيمَا قَصَدْتُ، فِيهِ [بِهِ] إِلَيْكَ، فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي [عَلَيَّ] عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ».

❊ ❊ ❊ ❊

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الْفَاشِي فِي الْخَلْقِ أَمْرُهُ، وَحَمْدُهُ الظَّاهِرِ بِالْكَرَمِ مَجْدُهُ الْبَاسِطِ بِالْجُودِ يَدَهُ، الَّذِي لَا تَنْقُصُ خَزَائِنُهُ».

كيف لا تنقص خزائنه بكثرة العطاء، بل ولا تزيده إلَّا جودًا وكرمًا؟.

الجواب: إنّ عطاء اللَّه سبحانه وتعالى إنما هو من خزائن لا تنفذ، إنّ خزائن اللَّه عظيمة وكبيرة ولا نفاذ لها؛ لأن خزائن اللَّه، ورحمته، ونعمه إنما هي من كلمة واحدة: ﴿**كُنْ فَيَكُونُ**﴾، إن اللَّه تبارك وتعالى يخلق بكلمة ﴿**كُنْ**﴾ واحدة، ملايين الكرات وملايين المجرّات، فكيف تنفذ خزينة مَنْ كانت قدرته بهذه السعة؟.

إلَّا أنّ الأمر هو أبعد من هذا الواقع بكثير، إذ إن كثرة العطاء من قبل اللَّه، ليس فقط لا تنقص خزائنه، بل وتزيده جودًا وكرمًا.

فاللَّه يهب للإنسان العقل، والإنسان يعرف بعقله ربه فيدعوه، فيزيده اللَّه من فضله ويعطيه الإيمان، فإذا زُوِّد بالعقل والإيمان، يعرف أن رحمة اللَّه واسعة، وفضله عميم فيدعوه، فيزيده اليقين، ثم يدعو فيدخله الجنة، ثم يدعو فيرفعه اللَّه إلى درجة الرضوان، فَنِعَمُ اللَّه متسلسلة، وكلما أعطى نعمة استتبعها بنعمة أخرى، وهكذا نرى أنّ كثرة العطاء تزيد اللَّه كرمًا وجودًا وعطاءً؛ لذلك فلو أعطانا اللَّه نعمة واحدة، فلا يجوز لنا أن نيأس، بل علينا أن ننتظر نعمًا أخرى تتلاحق بعدها.

إذ إن عطاء اللَّه الكثير لا يعني أنّ ربنا سيصبح بخيلًا سبحانه وتعالى عن ذلك، فعطاؤه غير محدود، وجوده لا يقف عند حدٍّ.

إنّ اللَّه يخاطب رسوله محمدًا ﷺ الذي جعله من أشرف الخلائق أجمعين وفضَّله على الأنبياء والمرسلين وأعطاه ما لم يعطِ أحدًا من النعم والشرف والذكر الحسن، حتى قرن اسمه باسمه، يخاطبه قائلًا: ﴿**وَمِنَ**

اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[١].

ويقول له أيضًا: ﴿**وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٢].

وهذا يعني: حتى رسول اللَّه الذي أعطاه اللَّه هذه النعم الكثيرة، مع ذلك لا يقول له ربه: كفى، بل يحثّه على الدعاء والسؤال حتى يزيده اللَّه من فضله وعطائه، فاللَّه إذًا: «**وَلَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكَرَمًا**».

أتدري من هو البخيل العاجز الفقير؟.

إنه نحن، فإذا وقف الواحد منا بجانب البحر، ولكنه لم يأخذ شيئًا من الماء، فهل يكون البحر بخيلًا؟. إذا وقف العطشان على شاطئ النهر، ولكنه لم يمدّ يده ليغترف غرفة ويروي بها ظمأه، فمن هو البخيل: النهر الجاري، أم هذا الإنسان؟.

والإنسان الذي لا يطلب الفضل والنعمة من اللَّه، هو البخيل.

أما رب الرحمة فهو واسع العطاء، ولا حدود لجوده وكرمه، فاللَّه يقول: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾.. ولكن الإنسان يبخل بهذا الدعاء فيحرم نفسه من عطاء ربه.

وهكذا كلما كان تطلع الإنسان أبعد، وهمّه أرفع، استوعب رحمة اللَّه سبحانه وتعالى أكثر؛ ولذلك فإن على الإنسان أن يستغل أوقات الدعاء: ليالي الجمعة، شهر رمضان المبارك، وفي الأسحار، ليمدّ يده لرحمة اللَّه ولبحر جوده، وألَّا يطلب من اللَّه أشياء تافهة وبسيطة، بل عليه أن يطلب كل ما عظم من الأمور، ليس لنفسه فحسب، وإنما لإخوانه المؤمنين

---

(١) سورة الإسراء، آية: ٧٩.

(٢) سورة طه، آية: ١١٤.

أيضًا، ومن هنا يقول الفقهاء: إنه يستحب في صلاة الليل أن يدعو الإنسان لأربعين مؤمنًا: «**مَنْ قَدَّمَ أَرْبَعِينَ رَجُلًا مِنْ إِخْوَانِهِ فَدَعَا لَهُمْ، ثُمَّ دَعَا لِنَفْسِهِ، اسْتُجِيبَ لَهُ فِيهِمْ وَفِي نَفْسِهِ**»[1]، فاللَّه تعالى كريم، ويبقى على الإنسان أن يكون كريمًا -أيضًا- حينما يدعو ربه، ويطلب منه: «**وَلَا تَزِيدُهُ كَثْرَةُ الْعَطَاءِ إِلَّا جُودًا وَكَرَمًا إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ**» إنه القوي القادر المهيمن وهو «**الْوَهَّابُ**» الذي لا تنقطع هباته اللامتناهية عن عباده.

****

بعد سرد هذه المجموعة من النعوت الفاضلة والأسماء الحسنى للَّه نواصل الدعاء ونقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ قَلِيلًا مِنْ كَثِيرٍ مَعَ حَاجَةٍ بِي إِلَيْهِ عَظِيمَةٍ، وَغِنَاكَ عَنْهُ قَدِيمٌ، وَهُوَ عِنْدِي كَثِيرٌ، وَهُوَ عَلَيْكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ**».

إن ما يطلبه الإنسان من اللَّه، مهما كان عظيمًا وهامًّا في تصوره، إلَّا أنه قليل جدًّا إذا قيس بملكوت اللَّه وجبروته وقدرته اللامحدودة، ويستطيع الواحد منا أن يعرف هذه الحقيقة من خلال المعادلة التالية: إنني واحد من سبعة آلاف مليون بشر يعيشون على وجه الكرة الأرضية، وقد عاش قبلهم وسيعيش بعدهم ألوف الملايين، ثم إنّ هذه الأرض إذا قيست إلى المجرة التي نحن فيها، فإنها تُشبه الذرة التائهة في صحراء واسعة، والمجرة التي نحن فيها بالنسبة إلى سائر المجرات التي نعرفها هي الأخرى كالذرة التائهة في الفضاء اللامتناهي. وأما الكون الذي نعرفه، فهو بالنسبة إلى رحمة اللَّه يعتبر أصغر من الذرة التائهة، إذًا فكل ما نطلبه من اللَّه العلي القدير من المغفرة، والرحمة والعافية، والرزق، والفلاح، فهو شيء قليل جدًّا من

(١) بحار الأنوار، ج٩٠، ص٣٨٣.

بحر جوده اللامتناهي، ولكن بالرغم من تفاهة طلباتنا وصغر حجمها بالنسبة إلى رحمة اللَّه الواسعة، فإن حاجتنا إليها شديدة: «**مَعَ حَاجَةٍ بِي إِلَيْهِ عَظِيمَةٍ**».

إن حاجتنا نحن إلى رحمة اللَّه عظيمة لأنه لا نحصل على أحد سواه نسأله من رحمته، كما لا يمكننا أن نتحمّل عذاب اللَّه وهجرانه وغضبه إن لم يغفر لنا: «**وَغِنَاكَ عَنْهُ قَدِيمٌ**»، فكل ما يحتاج إليه الإنسان، فإن اللَّه غني عنه.. فيا رب أنت غني عني وعن عذابي، فلماذا تعذبني؟.

إنك لا تنقصك المغفرة، فلماذا لا تغفر لي؟ وهذه هي لغة الإلحاح في الدعاء، وعلى الإنسان العاجز الضعيف أن يطلب دائمًا من ربه بإلحاح وإصرار، لأنه هو المحتاج إلى عطاء ربه «**وَهُوَ عِنْدِي كَثِيرٌ وَهُوَ عَلَيْكَ سَهْلٌ يَسِيرٌ**».

إنّ ما نطلبه من اللَّه كثير عندنا، إلَّا أنه عند اللَّه سهل ويسير، فحينما خلق اللَّه سبحانه وتعالى السماوات والأرض بكلمة واحدة وقال لها: كن، هل أَصابه تعب أو لغوب؟. كلَّا.. إن ربنا سبحانه وتعالى أعز وأعلى من أن يعتريه تعب أو لغوب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الاستجابة لدعواتنا، فإنها أسهل وأيسر من كل شيء على اللَّه سبحانه وتعالى.

* * * *

*** «اللَّهُمَّ إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبِي، وَتَجَاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي، وَصَفْحَكَ عَنْ ظُلْمِي، وَسَتْرَكَ عَلَى [عَنْ] قَبِيحِ عَمَلِي، وَحِلْمَكَ عَنْ كَثِيرِ [كَبِيرِ] جُرْمِي، عِنْدَمَا كَانَ مِنْ خَطَايَ [خَطَئِي] وَعَمْدِي، أَطْمَعَنِي فِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ، الَّذِي رَزَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَرَيْتَنِي مِنْ قُدْرَتِكَ، وَعَرَّفْتَنِي مِنْ إِجَابَتِكَ».**

إنّ أهم حاجة للإنسان هو أنْ يرفع الحواجز بينه وبين اللَّه، وإن الحاجز الرئيس بين الإنسان وربه هو حاجز الذنوب، فاللَّه لا يحتجب عن خلقه إلَّا أن تحجبهم الذنوب دونه، إذًا فإنّ السؤال الأول هو أن يعفو اللَّه عن ذنوبنا، ويتجاوز عن خطيئاتنا، ويصفح عن ظلمنا، ويستر على قبيح أعمالنا، ويحلم عن جرائمنا الكثيرة، واللَّه تعالى يستجيب لنا في كل ذلك ويغمرنا برحمته الواسعة، ولطفه العميم، الرحمة هي التي تجعلنا نسأل اللَّه أكثر.. فأكثر.. ونمدّ إليه أيدينا، إننا أذنبنا ذنوبًا كثيرة، ولكن اللَّه لم يؤاخذنا بها، ولم يعذبنا بالرغم من استمرارنا على الذنوب، بل العكس هو الصحيح، إذ لا تزال رحمته تشملنا من كل جهة ويزيدنا من نعمه، يلوِّح لنا بالمغفرة، ويدعونا للتوبة والعودة إليه مهما أذنبنا وأخطأنا.

إنّ هذه الرحمة من ربنا سبحانه وتعالى تشجعنا على أن نذهب إلى بابه ونسأله، مع أنّ وجوهنا مسودة بالذنوب، لكن وجهه الكريم هو الذي يجعلنا نسأله سبحانه وتعالى.

إن اللَّه خلق العباد ليرحمهم لا ليعذبهم: «**سُبْحَانَ مَنْ لَا يَعْتَدِي عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ، سُبْحَانَ مَنْ لَا يَأْخُذُ أَهْلَ الْأَرْضِ بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ**»[1].

«**اللَّهُمَّ إِنَّ عَفْوَكَ عَنْ ذَنْبِي، وَتَجَاوُزَكَ عَنْ خَطِيئَتِي، وَصَفْحَكَ عَنْ ظُلْمِي، وَسَتْرَكَ عَلَى [عَنْ] قَبِيحِ عَمَلِي، وَحِلْمَكَ عَنْ كَثِيرِ [كَبِيرِ] جُرْمِي، عِنْدَمَا كَانَ مِنْ خَطَايَ [خَطَئِي] وَعَمْدِي، أَطْمَعَنِي..**»، كل هذه النعم المتتالية تجعلني أطمع: «**فِي أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَا أَسْتَوْجِبُهُ مِنْكَ**»، كل تلك التي جعلتني أنا الفقير الذي لا أستوجب رحمتك، أن أطرق بابك وأسألك من رحمتك الواسعة، «**الَّذِي رَزَقْتَنِي مِنْ رَحْمَتِكَ، وَأَرَيْتَنِي مِنْ قُدْرَتِكَ، وَعَرَّفْتَنِي مِنْ إِجَابَتِكَ**»،

(١) مفاتيح الجنان، من التعقيبات المشتركة. (من أدعية رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم).

فكم من المرات، ييأس الإنسان من الحياة، ويعجز عن حل مشاكله، إلَّا أنه باللجوء إلى اللَّه، والطلب منه، تتفتح عليه أبواب رحمة اللَّه، ويريه من قدرته ليزداد إيمانًا، ويعرّفه من إجابته لكي لا ييأس بعد ذلك من شيء، ويعتمد على اللَّه في حل مشاكله.

❊ ❊ ❊ ❊

❊ «فَصِرْتُ أَدْعُوكَ آمِنًا، وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا، لَا خَائِفًا وَلَا وَجِلًا، مُدِلًّا عَلَيْكَ فِيمَا قَصَدْتُ، فِيهِ [بِهِ] إِلَيْكَ، فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي [عَلَيَّ] عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ، وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ».

حينما يرتكب الإنسان خطأ تجاه صديقه، أو من هو أكبر منه في أي مجال من مجالات الحياة، ويحاول أن يعتذر عن ذلك الخطأ، تنتابه حالة من القلق: هل سيقبل الطرف الآخر عذره، أم أنه سيرده على أعقابه؟. إلّا أننا بإزاء اللَّه سبحانه وتعالى، وبالرغم من كل ذنوبنا، وأخطائنا، ومعاصينا، لا نعيش هذا القلق، بل ندعوه وقلوبنا مطمئنة، ونسأله المغفرة ونحن نشعر بالأمن: «**فَصِرْتُ أَدْعُوكَ آمِنًا، وَأَسْأَلُكَ مُسْتَأْنِسًا**»، ولكن بالإضافة إلى حالة الاطمئنان والأمن القلبي، فإنني (مستأنس) أيضًا، لأنني أعرف أنني مُقبل على مناهل رحمة اللَّه، وينابيع عفوه ومغفرته، وسوف أرتوي منها بكل راحة وأُنس «**لَا خَائِفًا وَلَا وَجِلًا**» فما دمت أدعو الرب الرحيم الذي يحب عباده فلا داعي للخوف والوجل، إلَّا أنّ الإنسان المذنب المقصِّر يذهب أبعد من هذا: «**مُدِلًّا عَلَيْكَ فِيمَا قَصَدْتُ، فِيهِ [بِهِ] إِلَيْكَ**»، فهو يتدلل على ربه، ولكن كيف؟.

«**فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي [عَلَيَّ] عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ**»، فقد يتأخر اللَّه في الاستجابة لدعوات الإنسان المذنب العاصي لسبب من الأسباب، فينبري بجهله وغروره معاتبًا ربه: «**وَلَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي**».

فنحن لا نعرف كامل مصالحنا ولا نعرف الحكمة وراء عدم استجابة اللَّه سبحانه وتعالى لبعض دعواتنا، فقد يطلب أحدنا من ربه أن يرزقه مالًا كثيرًا، أو يعطيه سلطة وحكومة، من دون أن يعرف أن المال الكثير والسلطة تفسده وتجعله ينسى نفسه ويطغى على الآخرين وبذلك يستحق عذاب اللَّه الشديد، إذًا فقد يكون التأخر في الاستجابة لبعض دعواتنا لأجلِ مصلحتنا التي لا نستطيع أن نعرفها.

﴿**وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتْ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ**﴾[1].

فالحياة ليست لعبة، وإنما هي مبنية على أساس مجموعة من الحكم والمصالح التي لا يعرفها إلّا اللَّه: «**لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الْأُمُورِ**»، فاللَّه وحده يعرف مصائر الناس وعواقبهم، وعلى أساسها قد يتأخر الرب في الاستجابة، وقد لا يستجيب أبدًا لبعض الدعوات لأنها لا تكون في مصلحة الإنسان.

(١) سورة المؤمنون، آية: ٧١.

(4)

علاقة الإنسان.. باللَّه

«فَلَمْ أَرَ مَوْلًى [مُؤَمَّلًا] كَرِيمًا، أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ، مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ، فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ، كَأَنَّ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ [ثُمَّ لَمْ] يَمْنَعْكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي، وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، فَارْحَمْ عَبْدَكَ الْجَاهِلَ، وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسَانِكَ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ مَالِكِ الْمُلْكِ، مُجْرِي الْفُلْكِ، مُسَخِّرِ الرِّيَاحِ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، دَيَّانِ الدِّينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حِلْمِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قُدْرَتِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى طُولِ أَنَاتِهِ فِي غَضَبِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ [الْقَادِرُ] عَلَى مَا يُرِيدُ..».

* «فَلَمْ أَرَ مَوْلًى [مُؤَمَّلًا] كَرِيمًا، أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ، مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ، إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ، وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ، وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ، فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ..».

إنّ العلاقة بين الإنسان وربه، علاقة غريبة، فبينما الإنسان هو المحتاج والفقير، والمفروض أن يكون هو الذي يسعى نحو ربه ويفتش عن الوسائل التي تُقرِّبه إليه زلفى، نجد أنّ العكس هو الصحيح في أكثر الأحيان؛ إذ

إن اللَّه تعالى هو الذي يدعو الإنسان ويتحبب إليه، بينما الإنسان يرفض الاستجابة، ويبتعد عن اللَّه استجابة لضغوط الأهواء، والشهوات، ومتع الحياة، وهذه الفقرة من دعاء الافتتاح، تسلّط الضوء على هذه المفارقة الغريبة في علاقة الإنسان بربه.

«**فَلَمْ أَرَ مَوْلًى [مُؤَمَّلًا] كَرِيمًا، أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ، مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ**». بالرغم من حاجة الإنسان إليه وعبوديته له، وبالرغم من لؤمه الذي يتجلى في ارتكاب الذنوب والإصرار على المعاصي، إلَّا أن اللَّه يصبر عليه وعلى ذنوبه وأخطائه. فلا يوجد أصبر من اللَّه على عباده المذنبين، والدليل على ذلك هو: «**إِنَّكَ تَدْعُونِي فَأُوَلِّي عَنْكَ**»، فكم يحدث أن اللَّه تعالى يدعونا للصلاة مثلًا عبر المؤذن الذي ينادي في أوقات الفرائض: حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على خير العمل، إلَّا أننا لا نستجيب، ونبقى مشغولين بالأعمال التافهة؟

فاللَّه يدعونا ونحن نوليّ عنه.

«**وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ**»، فاللَّه يُحبك ويريدك أن تحبه، يريد أن تكون العلاقة بينك وبينه علاقة حب متبادلة، ورب العزة بيده كل شيء، وهو يتفضَّل عليك بالنعم المتواترة حتى تحبه، ويريدك أن تخضع له وتعبده، وتطيع تعاليمه حتى يحبك، إلَّا أنك ترفض ذلك عمليًّا: «**وَتَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأَتَبَغَّضُ إِلَيْكَ**»، فكلما يهدي اللَّه إلينا هدايا طيبة حتى نحبه، نحن نعكس الأمر ونرسل له بذنوبنا، وفي دعاء أبي حمزة الثمالي: «**وَلَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَلَكٌ كَرِيمٌ يَأْتِيكَ [عَنَّا] بِعَمَلٍ قَبِيحٍ**»[1].

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

«**وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ، فَلَا أَقْبَلُ مِنْكَ**»، يرسل اللَّه للإنسان رسالة الحب والود، إلَّا أن الإنسان لا يقبل بذلك ويردها دون أن يفتح الرسالة، والقرآن هو رسالة اللَّه للإنسان، فكم نحن نقرأ القرآن؟.

وإذا قرأنا القرآن في شهر رمضان المبارك كعادة موروثة، فهل نتدبر في آياته، أم أن كل اهتمامنا ينصب على كمية الآيات والسور التي نقرؤها في كل يوم؟.

* * * *

*** «كَأَنَّ لِـيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ، فَلَمْ [ثُمَّ لَمْ] يَمْنَعْكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي، وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ، فَارْحَمْ عَبْدَكَ الْجَاهِلَ، وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسَانِكَ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ»**.

هذا الإنسان العاجز الضعيف الذي لا يستطيع أن يواصل الحياة لحظة واحدة من دون نعم اللَّه وألطافه، ومن دون حب اللَّه ووده، يرفض تحبب اللَّه وتوده، وكأن له اليد العليا على خالق الكون، وله الفضل والطول عليه: «**كَأَنَّ لِيَ التَّطَوُّلَ عَلَيْكَ**» إلّا أن هذا النوع من العلاقة السلبية التي يقيمها الإنسان بينه وبين ربه لا يمنع اللَّه من مواصلة الرحمة والنعمة للإنسان: «**فَلَمْ [ثُمَّ لَمْ] يَمْنَعْكَ ذَلِكَ مِنَ الرَّحْمَةِ لِي، وَالْإِحْسَانِ إِلَيَّ، وَالتَّفَضُّلِ عَلَيَّ بِجُودِكَ وَكَرَمِكَ**».

وفي دعاء أبي حمزة الثمالي أيضًا نقرأ مثل هذه الفقرات: «**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا أَدْعُو غَيْرَهُ، وَلَوْ دَعَوْتُ غَيْرَهُ لَمْ يَسْتَجِبْ لِي دُعَائِي. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا أَرْجُو غَيْرَهُ، وَلَوْ رَجَوْتُ غَيْرَهُ لَأَخْلَفَ رَجَائِي.. فَرَبِّي أَحْمَدُ شَيْءٍ**

عِنْدِي وَأَحَقُّ بِحَمْدِي»[1].

وهكذا تحكم بني آدم هذه المفارقة: كلما غمره اللَّه بلطفه ورحمته ردَّ الإنسان بالذنب والجفاء، والإنسان إنما يرتكب الذنب تحت ضغط الشهوات، ووقوع الإنسان في الخطأ هو أمر طبيعي، واللَّه تعالى يغفر له ذلك.

أما الجفاء فهو أسوأ من الذنب بكثير، وهو يعني ألَّا يسأل الإنسان ربه، ولا يدعوه في شيء، ولا يستغفره من ذنوبه، وإذا جافى الإنسان ربه وقاطعه، فإلى من يلجأ؟. وهل هناك غير اللَّه نلتمس منه حوائجنا، ونلجأ إليه في الرخاء والشدة؟.

نحن نحيا بلطف اللَّه ورحمته، ونعيش على أرضه وتحت سمائه، وبيده كل حركاتنا وسكناتنا، فكيف إذًا نقاطعه ونجافيه؟.

رُوِيَ أَنَّ الْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ عليه السلام جَاءَهُ رَجُلٌ وَقَالَ: «أَنَا رَجُلٌ عَاصٍ، وَلَا أَصْبِرُ عَنِ الْمَعْصِيَةِ، فَعِظْنِي بِمَوْعِظَةٍ.

فَقَالَ عليه السلام: **افْعَلْ خَمْسَةَ أَشْيَاءَ وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ،**

- **فَأَوَّلُ ذَلِكَ: لَا تَأْكُلْ رِزْقَ اللَّهِ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.**

- **وَالثَّانِي: اخْرُجْ مِنْ وَلَايَةِ اللَّهِ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.**

- **وَالثَّالِثُ: اطْلُبْ مَوْضِعًا لَا يَرَاكَ اللَّهُ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.**

- **وَالرَّابِعُ: إِذَا جَاءَ مَلَكُ الْمَوْتِ لِيَقْبِضَ رُوحَكَ فَادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ.**

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

- وَالْخَامِسُ: إِذَا أَدْخَلَكَ مَالِكٌ فِي النَّارِ فَلَا تَدْخُلْ فِي النَّارِ، وَأَذْنِبْ مَا شِئْتَ»[1].

«فَارْحَمْ عَبْدَكَ الْجَاهِلَ، وَجُدْ عَلَيْهِ بِفَضْلِ إِحْسَانِكَ، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ»، وهكذا يتضرع الإنسان إلى ربه طالبًا رحمته، ومعترفًا بجهله، وحاجته الملحة إلى فضل اللَّه وإحسانه.

وبهذا التضرع ينتهي القسم الأول من دعاء الافتتاح، وكما قلنا سابقًا: إن الأدعية المأثورة تبدأ عادة بحمد اللَّه وتنزيهه وتسبيحه، ثم بعد ذلك يأتي دور التضرع للَّه وطلب الحاجات منه، لذلك فإن القسم الأول من دعاء الافتتاح ابتدأ بالحمد والثناء والتسبيح، ثم انتقل إلى الطلب والتضرع، وهكذا أيضًا يبتدئ القسم الثاني برحلة جديدة في الحمد والتسبيح والتنزيه، ثم ينتقل بعدئذٍ إلى الطلب. وفي هذا القسم يبدأ الطلب بالصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثم الصلاة على الأئمة المعصومين عليهم السلام، وفي نهاية الدعاء نجد مجموعة من الطلبات الاستراتيجية الهامة التي تتعلّق بمصير الإنسان في الحياة، وبواقعه السياسي وبقضايا المواجهة مع أعداء الأمة الإسلامية.

****

*** «الْحَمْدُ لِلَّهِ مَالِكِ الْمُلْكِ، مُجْرِي الْفُلْكِ، مُسَخِّرِ الرِّيَاحِ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، دَيَّانِ الدِّينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»**.

ربما يكون هنالك فرق بين معرفة اللَّه ومجرد الإيمان باللَّه، فحالة (المعرفة) هي حالة متقدمة عن الإيمان، إذ إن (المعرفة) هي الرؤية القلبية

(١) بحار الأنوار، ج٧٥، ص١٢٦.

المباشرة، وحالة المعرفة والعرفان هي حالة الاتصال الغيبي بين قلب الإنسان ورب الإنسان، فكيف تحصل حالة العرفان هذه؟.

إن من وسائل الوصول إلى حالة العرفان هو الإيمان التفصيلي، أو تفصيلات الإيمان، فنحن بصورة مجملة مؤمنون بأن هذا الكون الواسع قد خلقه اللَّه سبحانه وتعالى، وأنه هو الذي يدبر أموره، هذا هو الإيمان، أما إذا أراد الإنسان أن يصل إلى (معرفة اللَّه)، وإلى اتصال قلبه باللَّه وإلى درجة اليقين، فإن عليه أن يفصِّل هذا الإيمان المجمل، وأن يتوجه إلى كل جزء من مخلوقات اللَّه في الكون ويتدبر في خلقه وصنعه، فيتدبر في خلق اللَّه لهذا الشجرة، وهذا البستان، وهذه الشمس، وهذا القمر، وهذه النجمة، وهذه الكرة، وهكذا... حتى ينبعث في قلب الإنسان نور اليقين، وتغمره حالة المعرفة.

فكل شيء يراه الإنسان يتجلى فيه اسم من أسماء اللَّه سبحانه وتعالى، فحينما يرى الشجرة لا يفكر في ثمرتها وقيمتها فقط، بل ويفكر أيضًا في إتقان الصنع، وإبداع الخلق، وجمال الصورة، ونظام الحياة، ومن خلال إتقان الصنع يصل الإنسان إلى اسم اللَّه البديع المدبِّر، ومن خلال قوة ومتانة الصنع يقول: سبحان اللَّه القوي القدير. ومن خلال تفاعل الشجرة مع الكون، يقول: سبحان اللَّه مدبِّر الأمور، المقدِّر الحكيم. فإذًا، كل شيء يهدي الإنسان العارف إلى اسم من أسماء اللَّه، وإذا عرف الإنسان ربه عبر أسمائه الحسنى سبحانه، فإنه يزداد تألقًا في سماء الإيمان، كلما عرف اسمًا جديدًا من أسماء اللَّه عز وجل، يرتقي درجة جديدة من درجات اليقين.

من هنا نجد أنّ القسم الثاني من دعاء الافتتاح، يبدأ بحمد اللَّه وثنائه مشيرًا إلى تفاصيل الإبداع والإتقان في الخلق، في محاولة لدفع الإنسان

المؤمن إلى المزيد من التدبر والتفكر في صنع اللَّه، ليكسب المزيد من اليقين والمعرفة: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ مَالِكِ الْمُلْكِ**» فالملك كله للَّه.

«**مُجْرِي الْفُلْكِ**»، إنّ كل شيء في هذا الكون يجري ويدور، فالأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس، والشمس بذاتها تدور وتتحرك، والكرات كلها في حالة دوران مستمر، فمن الذي يجريها ويحركها؟. هو اللَّه سبحانه وتعالى!. هذا هو أحد المعاني لجريان الفلك، أما المعنى الآخر فهو: السفينة، فاللَّه تعالى هو الذي يُجريها وسط البحار المتلاطمة بواسطة القوانين الطبيعية التي وضعها رب العالمين.

«**مُسَخِّرِ الرِّيَاحِ**»، إننا نعرف أن حركة الرياح إنما هي بسبب تحولات تحدث في الشمس، فالرياح تحدث في الأرض إذا حدث انفجارٌ ما في عمق الشمس، ولكن الأمر هو أبعد وأدق من ذلك، فالرياح تتحرك بانتظام دقيق، وهي التي تدير الكثير من شؤون الكون، والرياح مثل رسل اللَّه سبحانه وتعالى، تلقِّح الأشجار، وتكشف السحب، وتغير الهواء، وتجري السفن في أعالي البحار، ومئات العمليات الأخرى التي تقوم بها الرياح، فمن الذي ينظّمها ويهديها ويحرّكها غير اللَّه سبحانه وتعالى؟. وبعض الرياح تكون رياح عذاب حينما تهب على القرية المذنبة وتُبيدها عن آخرها، بينما القرية القريبة منها تكون بعيدة عن تأثيرات الرياح.

إنّ الرياح لا تعقل شيئًا، فمن الذي يُوجُهها، ويُحرّكها حسب مصلحة معينة غير اللَّه تعالى؟.

«**فَالِقِ الْإِصْبَاحِ**»، وهو الذي فلق الصبح وجعله ينفجر من ضمير الظلام الدامس لتتنفس الحياة، وتدور عجلة البشرية في نشاط دائب.

«**دَيَّانِ الدِّينِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**»، واللَّه هو الذي يعطي جزاء الناس ويحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة، لأنه رب العالمين.

* * * *

* «**الْحَمْـدُ لِلَّهِ عَلَى حِلْمِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قُدْرَتِهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى طُـولِ أَنَاتِهِ فِي غَضَبِهِ، وَهُوَ قَادِرٌ [الْقَادِرُ] عَلَى مَا يُرِيدُ..**».

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حِلْمِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ**»، في هذه الفقرة من الدعاء نجد مظاهر أخرى من المفارقة السابقة التي ذكرناها في علاقة الإنسان بربه، فاللَّه تعالى يحلم عن الإنسان المذنب العاصي بالرغم من علمه بكل ذلك، فأنت قد تغتاب شخصًا لا يسمعك، ولكن اللَّه يراك ويسمعك، وما من ذنب يرتكبه الإنسان إلَّا ويراقبه اللَّه ويراه، جاء في حديث شريف، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ عليه السلام لَمَّا رُفِعَ فِي الْمَلَكُوتِ، وَذَلِكَ قَوْلُ رَبِّي: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾[1]، قَوَّى اللَّهُ بَصَرَهُ لَمَّا رَفَعَهُ دُونَ السَّمَاءِ حَتَّى أَبْصَرَ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ظَاهِرِينَ وَمُسْتَتِرِينَ، فَرَأَى رَجُلًا وَامْرَأَةً عَلَى فَاحِشَةٍ، فَدَعَا عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَا.**

ثُمَّ رَأَى آخَرَيْنِ فَدَعَا عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَا، ثُمَّ رَأَى آخَرَيْنِ فَدَعَا عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ فَهَلَكَا، ثُمَّ رَأَى آخَرَيْنِ فَهَمَّ بِالدُّعَاءِ عَلَيْهِمَا بِالْهَلَاكِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمُ، اكْفُفْ دَعْوَتَكَ عَنْ عِبَادِي وَإِمَائِي، فَإِنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، الْجَبَّارُ الْحَلِيمُ، لَا تَضُرُّنِي ذُنُوبُ عِبَادِي، كَمَا لَا تَنْفَعُنِي طَاعَتُهُمْ، وَلَسْتُ

(١) سورة الأنعام، آية: ٧٥.

أَسُوسُهُمْ بِشِفَاءِ الْغَيْظِ كَسِيَاسَتِكَ. فَاكْفُفْ دَعْوَتَكَ عَنْ عِبَادِي، فَإِنَّمَا أَنْتَ عَبْدٌ نَذِيرٌ، لَا شَرِيكٌ فِي الْمَمْلَكَةِ، وَلَا مُهَيْمِنٌ عَلَيَّ، وَلَا عَلَى عِبَادِي، وَعِبَادِي مَعِي بَيْنَ خِلَالٍ ثَلَاثٍ:

- إِمَّا تَابُوا إِلَيَّ فَتُبْتُ عَلَيْهِمْ، وَغَفَرْتُ ذُنُوبَهُمْ، وَسَتَرْتُ عُيُوبَهُمْ.

- وَإِمَّا كَفَفْتُ عَنْهُمْ عَذَابِي، لِعِلْمِي بِأَنَّهُ سَيَخْرُجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ ذُرِّيَّاتٌ مُؤْمِنُونَ، فَأَرْفُقُ بِالْآبَاءِ الْكَافِرِينَ، وَأَتَأَنَّى بِالْأُمَّهَاتِ الْكَافِرَاتِ، وَأَرْفَعُ عَنْهُمْ عَذَابِي لِيَخْرُجَ ذَلِكَ الْمُؤْمِنُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ. فَإِذَا تَزَايَلُوا حَقَّ بِهِمْ عَذَابِي، وَحَاقَ بِهِمْ بَلَائِي.

- وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هَذَا، وَلَا هَذَا، فَإِنَّ الَّذِي أَعْدَدْتُهُ لَهُمْ مِنْ عَذَابِي أَعْظَمُ مِمَّا تُرِيدُهُمْ بِهِ، فَإِنَّ عَذَابِي لِعِبَادِي عَلَى حَسَبِ جَلَالِي وَكِبْرِيَائِي.

يَا إِبْرَاهِيمُ، فَخَلِّ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي، فَإِنِّي أَرْحَمُ بِهِمْ مِنْكَ، وَخَلِّ بَيْنِي وَبَيْنَ عِبَادِي، فَإِنِّي أَنَا الْجَبَّارُ الْحَلِيمُ، الْعَلَّامُ الْحَكِيمُ، أُدَبِّرُهُمْ بِعِلْمِي، وَأُنَفِّذُ فِيهِمْ قَضَائِي وَقَدَرِي»[1].

وهكذا نجد أن اللَّه تعالى يحلم عن عباده بعد علمه بكل معاصيهم، وهو قادر على أن يأخذهم إلَّا أنه يعفو عنهم.

«**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَفْوِهِ بَعْدَ قُدْرَتِهِ**»، وكذلك يصبر اللَّه طويلًا على عبده ولا ينزل عليه غضبه، فقد يُمهل اللَّه إنسانًا عشرات السنين وهو سادر في الذنوب والمعاصي لعله يهتدي في النهاية ويعود إلى رشده.

«**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى طُولِ أَنَاتِهِ فِي غَضَبِهِ، (كل ذلك) وَهُوَ قَادِرٌ [الْقَادِرُ]**

(١) بحار الأنوار، ج١٢، ص٦٠.

عَلَى مَا يُرِيدُ»، ولأن اللَّه يعفو، ويحلم، ويصبر على المذنبين بالرغم من قدرته وجبروته، كان العفو، والحلم، والصبر من أسمائه الحسنى.

(5)

الدعاء ومعالجة الغيب والشهود

«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْخَلْقِ، بَاسِطِ الرِّزْقِ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْفَضْلِ [وَالتَّفَضُّلِ] وَالْإِنْعَامِ [الْإِحْسَانِ]. الَّذِي بَعُدَ فَلَا يُرَى، وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى، تَبَارَكَ وَتَعَالَى. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُنَازِعٌ يُعَادِلُهُ، وَلَا شَبِيهٌ يُشَاكِلُهُ، وَلَا ظَهِيرٌ يُعَاضِدُهُ. قَهَرَ بِعِزَّتِهِ الْأَعِزَّاءَ، وَتَوَاضَعَ لِعَظَمَتِهِ الْعُظَمَاءُ، فَبَلَغَ بِقُدْرَتِهِ مَا يَشَاءُ..».

* * * *

* **«الْحَمْدُ لِلَّهِ خَالِقِ الْخَلْقِ، بَاسِطِ الرِّزْقِ، فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَالْفَضْلِ [وَالتَّفَضُّلِ] وَالْإِنْعَامِ [الْإِحْسَانِ]. الَّذِي بَعُدَ فَلَا يُرَى، وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى، تَبَارَكَ وَتَعَالَى»**.

إنّ التأمل في هذه الفقرة من الدعاء يصل بنا إلى عدة أفكار من أبرزها فكرتان:

الفكرة الأولى: إنّ هناك علاقة وثيقة بين «**خَالِقِ الْخَلْقِ**» و«**بَاسِطِ الرِّزْقِ**»، إذ إنه حسب ما يبدو لنا من آيات القرآن الحكيم ومن التدبر في طبيعة الكون الذي نعيشه، هو أنّ خلق اللّه سبحانه وتعالى للأشياء لم يكن بتحويلها من العدم إلى الوجود، بل إنّ ذات الأشياء لا تزال هي العدم. إنما

اللَّه تعالى رش عليها وميضًا من نور الوجود، فهي موجودة باللَّه، قائمة به، وربنا هو القيوم على كل شيء، ولو أنّ ربنا ترك الموجودات لحظة واحدة لانعدمت، ولم يبقَ منها شيء. إن كل هذه السماوات العملاقة، وهذا الفضاء اللامتناهي بما فيه من مجرات هائلة، إنما هي قائمة بإذن اللَّه: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولاَ وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ**﴾[1].

إنّ مفهوم العطاء المستمر، والفيض المستمر، هو مفهوم يتناسب مع الرزق؛ لأن الذي أعطى الوجود للأشياء لا يزال يعطي لها تكامل هذا الوجود، واستمراريته واحتياجاته بصورة منتظمة.

إنّ وجودنا بحاجة في استمراره إلى اللَّه سبحانه وتعالى، والوجه الظاهر لهذه الحقيقة هو رزق اللَّه سبحانه وتعالى، فلو أمسك اللَّه رزقه عنا، لو أمسك هذا الأوكسجين الذي نتنفسه، وهذا الأكل الذي نتغذى به ومن خلاله تنمو خلايا وأنسجة جسمنا، لكان مصيرنا الموت بالطبع، ليس الموت وحده، بل والتفتُّت والتحوُّل إلى تراب.

إذًا، فلو أمسك اللَّه تعالى عن الخلق رزقه المستمر، والعطاء المتواصل لانتهى المخلوق، من هنا نكتشف مدى العلاقة بين الأمرين: «**خَالِقِ الْخَلْقِ**» و«**بَاسِطِ الرِّزْقِ**»، فالذي خلق الخلق هو الذي يبسط الرزق وينشره، والرزق هنا هو أشمل ممَّا يتصوره الإنسان في الوهلة الأولى؛ إذ إنه يشمل كل مقومات الوجود واستمرارية الحياة.

«**فَالِقِ الْإِصْبَاحِ**» وهذا هو الآخر يرتبط بقضية الرزق واستمراريته، إذ إن

(١) سورة فاطر، آية: ٤١.

الصباح هو خير فرصة للجميع للتحرك والسعي لاكتساب الرزق، واللَّه هو الذي يفلق الصبح ويفجّره ليتنفس من بطن الظلام: «**فَالِقِ الْإِصْبَاحِ، ذِي الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ**».

الفكرة الثانية: إنّ الرؤية الإسلامية هي رؤية عمومية كلية تربط الموجودات الظاهرية بالغيبيات الباطنة، والحقائق المركبة بالحقائق المجردة، وهذه الفكرة تتجلى في هذه الفقرة من الدعاء، حيث يربط بين الخلق الأول الذي لم نشهده والرزق المبسوط المتجدد الذي نراه ونلمسه كل لحظة، وهذا الرزق المشهود هو خير دليل على ذلك الخلق الغيبي، وهكذا يربط الدعاء بين ذلك الغيب وهذا الشهود، بين ذلك الماضي وهذا الحاضر، بين ذلك الذي لم نره وهذا الذي لا نزال نراه في كل لحظة، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى، نرى أنّ هذه الفقرة تربط بين الخلق الأول والرزق المتجدد وفلق الإصباح وجلال اللَّه وإكرامه كمجموعة مترابطة من الحقائق، وبين أنّ ربنا قريب يسمع النجوى، وبعيد بجلاله وعظمته، فهو قريب من جهة، بعيد من جهة. قريب لأنه مهيمن محيط سميع بصير، وبعيد لأنه عظيم جليل لا يشبه خلقه، ولا يشبهه خلقه، يقول الدعاء: «**الَّذِي بَعُدَ فَلَا يُرَى**» هل يستطيع الإنسان المحدود أنْ يرى اللَّه سبحانه وتعالى أنه بعيد من هذه الناحية، بعيد عن رؤية العين وبعيد عن أوهام الخيال.

«**وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى**» لو ناجى الإنسان صاحبه بصوت منخفض لا يسمعه أحد، فإن اللَّه سبحانه وتعالى يسمعه قبل صاحبه، ولذلك فهو من هذه الجهة قريب إلى الإنسان، بل هو أقرب إليه من حبل الوريد: «**وَقَرُبَ فَشَهِدَ النَّجْوَى، تَبَارَكَ وَتَعَالَى**».

إنّ «**تبارك**» يرمز إلى سلسلة من أسماء اللَّه الخالق الرازق الباسط القابض. واسم «**تعالى**» يرمز إلى سلسلة أخرى من أسماء اللَّه: سبوح قدوس منزه، وكل الأسماء التي تنتهي إلى تقديس اللَّه.

* * * *

*** «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُنَازِعٌ يُعَادِلُهُ، وَلَا شَبِيهٌ يُشَاكِلُهُ، وَلَا ظَهِيرٌ يُعَاضِدُهُ. قَهَرَ بِعِزَّتِهِ الْأَعِزَّاءَ، وَتَوَاضَعَ لِعَظَمَتِهِ الْعُظَمَاءُ، فَبَلَغَ بِقُدْرَتِهِ مَا يَشَاءُ..».**

جاء في حديث مروي عن الإمام علي عليه السلام أنه قال في صفة المؤمنين: «**عَظُمَ الْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ**»[1].

هذه المعادلة تتجلى في قلوب المؤمنين الصادقين، فكلما عَظُم الخالق في أنفسهم صَغُرت الخلائق في أعينهم، ووجدوا ما دون اللَّه تافهًا لا يساوي شيئًا ولا يقدر على شيء، لذلك فإن قلوبهم لا تتعلق بحطام الدنيا، ولا يدخل فيها حب الماديات.. بل حب ما سوى اللَّه.

جاء في بحار الأنوار: «وجدت في بعض الكتب أن عيسى عليه السلام، كان مع بعض الحواريين في بعض سياحته، فمروا على بلد، فلما قربوا منه، وجدوا كنزًا على الطريق. فقال من معه: ائذن لنا يا روح اللَّه؛ أن نقيم هاهنا، ونحوز هذا الكنز، لئلَّا يضيع.

فقال عليه السلام: لهم أقيموا هاهنا، وأنا أدخل البلد، و لي فيه كنز أطلبه. فلما دخل البلد وجال فيه، رأى دارًا خربة فدخلها، فوجد فيها عجوزة.

---

(١) نهج البلاغة، (١٩٣) من خطبة له عليه السلام يصف فيها المتقين.

فقال عليه السلام لها: أنا ضيفك في هذه الليلة، وهل في هذه الدار أحد غيرك؟.

قالت: نعم؛ لي ابن مات أبوه، وبقي يتيمًا في حجري، وهو يذهب إلى الصحاري، ويجمع الشوك، ويأتي البلد فيبيعها، ويأتيني بثمنها نتعيش به.

فهيَّأت لعيسى عليه السلام بيتًا، فلما جاء ولدها قالت له: بعث اللَّه في هذه الليلة ضيفًا صالحًا، يسطع من جبينه أنوار الزهد والصلاح، فاغتنم خدمته وصحبته.

فدخل الابن على عيسى عليه السلام وخدمه وأكرمه، فلما كان في بعض الليل سأل عيسى عليه السلام الغلام عن حاله ومعيشته وغيرها، فتفرّس عليه السلام فيه آثار العقل والفطانة والاستعداد للترقي على مدارج الكمال، لكن وجد فيه أن قلبه مشغول بهمٍّ عظيم.

فقال عليه السلام له: يا غلام؛ أرى قلبك مشغولًا بهمٍّ لا يبرح، فأخبرني به لعله يكون عندي دواء دائك. فلما بالغ عيسى عليه السلام، قال: نعم في قلبي همٌّ وداء، لا يقدر على دوائه أحد إلَّا اللَّه تعالى.

فقال عليه السلام: أخبرني به، لعل اللَّه يلهمني ما يزيله عنك.

فقال الغلام: إني كنت يومًا أحمل الشوك إلى البلد، فمررت بقصر ابنة الملك فنظرت إلى القصر، فوقع نظري عليها، فدخل حبها شغاف قلبي، وهو يزداد كل يوم، ولا أرى لذلك دواء إلَّا الموت.

فقال عيسى عليه السلام: إن كنت تريدها أنا أحتال لك حتى تتزوجها. فجاء الغلام إلى أمه وأخبرها بقوله، فقالت أمه: يا ولدي؛ إني لا أظن هذا الرجل يعد بشيء لا يمكنه الوفاء به، فاسمع له وأطعه في كل ما يقول.

فلما أصبحوا قال عيسى عليه السلام للغلام: اذهب إلى باب الملك، فإذا أتى خواص الملك ووزراؤه ليدخلوا عليه قل لهم: أبلغوا الملك عني أني جئته خاطبًا كريمته. ثم ائتني وأخبرني بما جرى بينك وبين الملك.

فأتى الغلام باب الملك، فلما قال ذلك لخاصة الملك، ضحكوا وتعجبوا من قوله، ودخلوا على الملك، وأخبروه بما قال الغلام، مستهزئين به، فاستحضره الملك، فلما دخل على الملك وخطب ابنته قال الملك مستهزئًا به: أنا لا أعطيك ابنتي إلّا أن تأتيني من اللآلي واليواقيت والجواهر الكبار كذا وكذا، ووصف له ما لا يوجد في خزانة ملك من ملوك الدنيا.

فقال الغلام: أنا أذهب وآتيك بجواب هذا الكلام. فرجع إلى عيسى عليه السلام فأخبره بما جرى، فذهب به عيسى عليه السلام إلى خربة كانت فيها أحجار ومدر كبار، فدعا اللَّه تعالى فصيرها كلها من جنس ما طلب الملك، وأحسن منها.

فقال عليه السلام: يا غلام، خذ منها ما تريد، واذهب به إلى الملك.

فلما أتى الملك بها تحيَّر الملك وأهل مجلسه في أمره، وقالوا: لا يكفينا هذا. فرجع إلى عيسى عليه السلام فأخبره.

فقال عليه السلام: اذهب إلى الخربة وخذ منها ما تريد، واذهب بها إليهم. فلما رجع بأضعاف ما أتى به أولًا زادت حيرتهم، وقال الملك: إن لهذا شأنًا غريبًا، فخلا بالغلام واستخبره عن الحال، فأخبره بكل ما جرى بينه وبين عيسى عليه السلام، وما كان من عشقه لابنته. فعلم الملك أن الضيف هو عيسى عليه السلام.

فقال: قل لضيفك يأتيني، ويزوجك ابنتي.

فحضر عيسى عليه السلام وزوجها منه، وبعث الملك ثيابًا فاخرة إلى الغلام، فألبسها إياه، وجمع بينه وبين ابنته تلك الليلة، فلما أصبح طلب الغلام وكلَّمه، فوجده عاقلًا فَهِمًا ذكيًّا، ولم يكن للملك ولد غير هذه الابنة، فجعل الغلام ولي عهده، ووارث ملكه، وأمر خواصه وأعيان مملكته ببيعته وطاعته.

فلما كانت الليلة الثانية مات الملك فجأة، وأجلسوا الغلام على سرير الملك، وأطاعوه وسلموا إليه خزائنه. فأتاه عيسى عليه السلام في اليوم الثالث ليودعه.

فقال الغلام: أيها الحكيم؛ إن لك عليَّ حقوقًا لا أقوم بشكر واحد منها لو بقيت أبد الدهر، ولكن عرض في قلبي البارحة أمر لو لم تجبني عنه لا أنتفع بشيء ممَّا حصلتها لي.

فقال عليه السلام: وما هو؟.

قال الغلام: إنك إذا قدرت على أن تنقلني من تلك الحالة الخسيسة إلى تلك الدرجة الرفيعة في يومين، فلم لا تفعل هذا بنفسك، وأراك في تلك الثياب، وفي هذه الحالة.

فلما أحفى في السؤال، قال له عيسى عليه السلام: إن العالِم باللَّه وبدار كرامته وثوابه، والبصير بفناء الدنيا وخستها ودناءتها، لا يرغب إلى هذا الملك الزائل، و هذه الأمور الفانية، وإن لنا في قربه تعالى، ومعرفته ومحبته لذَّات روحانية، لا نعد تلك اللذات الفانية عندها شيئًا.

فلما أخبره بعيوب الدنيا وآفاتها، ونعيم الآخرة ودرجاتها قال له الغلام: فلي عليك حجة أخرى، لم اخترت لنفسك ما هو أولى، وأحرى وأوقعتني

في هذه البلية الكبرى.

فقال له عيسى عليه السلام: إنما اخترت لك ذلك لأمتحنك في عقلك وذكائك، وليكون لك الثواب في ترك هذه الأمور الميسرة لك أكثر وأوفى، وتكون حجة على غيرك.

فترك الغلام الملك ولبس أثوابه البالية، وتبع عيسى عليه السلام.

فلما رجع عيسى إلى الحواريين قال عليه السلام: هذا كنزي الذي كنت أظنه في هذا البلد فوجدته والحمد للَّه»[1].

وحينما تتجلى عظمة اللَّه في نفس الإنسان وتصغر الدنيا في عينه، فإن كل مصائب الدنيا ومشاكلها تهون أمامه. من هنا نرى أنّ الأنبياء العظام عليهم السلام يضربون للبشرية خير الأمثلة في الصبر، والاستقامة، والتحدي، ومقاومة الضغوط والمشاكل؛ ذلك لأنه عَظُمَ الخالق في أعينهم فَصَغُرَ ما دونه في أعينهم. فالنبي إبراهيم عليه السلام يستجيب لنداء ربه، ويُقْدِمُ على ذبح ابنه، وقبل ذلك يترك ذريته في أرض لا زرع فيها ولا ضرع، وفي المواجهة مع الطاغوت يُرمى به في لهيب النار، فلا يتكلّم ولا حتى بكلمة واحدة. وكذلك النبي نوح الذي صبر تسعمائة وخمسين عامًا يدعو قومه. وهكذا بالنسبة إلى بقية الرسل والأنبياء عليهم السلام فمن أين حصلوا على هذا التعالي والتكامل؟. كيف تساموا على الدنيا وما فيها؟. وكيف استقاموا؟. إن وراءهم ينبوعًا من النور والإرادة، ينبوعًا من القوة.

إنه ينبوع الإيمان باللَّه، فقد تجلَّت عظمة اللَّه في أنفسهم فهانت عليهم الدنيا. ونحن بدورنا مدعوون لكي نعمّق هذا الإيمان إلى درجة الاستهانة

(١) بحار الأنوار، ج١٤، ص٢٨٠-٢٨١.

بكل الصعاب والمشاكل.

إن الإيمان العميق هو الذي يمنح الإنسان قدرة فائقة على الصمود في سجون الطغاة ومقاومة فريدة لكل أساليب التعذيب. والإيمان هو الذي يجعل المؤمن المجاهد يستقبل حكم الإعدام بابتسامة عريضة؛ لأن المشنقة سوف تعرج به إلى اللَّه سبحانه وتعالى.

إن الإيمان باللَّه وعظمته لا يجعلنا نفقد توازننا واستقامتنا في لحظات المواجهة الحاسمة مع الحياة.

والفقرة التالية من الدعاء تشير إلى هذه الفكرة: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مُنَازِعٌ يُعَادِلُهُ، وَلَا شَبِيهٌ يُشَاكِلُهُ**»، فليس هناك من ينازع اللَّه، ويكون عدلًا له، ولا شبيه يشبه ربنا «**وَلَا ظَهِيرٌ يُعَاضِدُهُ**». ثم يقول الدعاء: «**قَهَرَ بِعِزَّتِهِ الْأَعِزَّاءَ**»، فكل الأعزّاء أذلّة ومقهورون لجبار السماوات والأرض، «**وَتَوَاضَعَ لِعَظَمَتِهِ الْعُظَمَاءُ، فَبَلَغَ بِقُدْرَتِهِ مَا يَشَاءُ**»، إن قدرة اللَّه تعالى لا متناهية، وهي تُحيط بكل شيء، وبكل ما يشاء ربنا العزيز القدير.

(6)

حاجة الإنسان إلى اللَّه

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُجِيبُنِي حِينَ أُنَادِيهِ، وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وَأَنَا أَعْصِيهِ، وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلَا أُجَازِيهِ، فَكَمْ مِنْ مَوْهِبَةٍ هَنِيئَةٍ قَدْ أَعْطَانِي، وَعَظِيمَةٍ مَخُوفَةٍ قَدْ كَفَانِي، وَبَهْجَةٍ مُونِقَةٍ قَدْ أَرَانِي، فَأُثْنِي عَلَيْهِ حَامِدًا، وَأَذْكُرُهُ مُسَبِّحًا. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُهْتَكُ حِجَابُهُ، وَلَا يُغْلَقُ بَابُهُ، وَلَا يُرَدُّ سَائِلُهُ، وَلَا يُخَيَّبُ [يَخِيبُ] آمِلُهُ».

****

يتجلى ذكر اللَّه سبحانه وتعالى عندما يذكر الإنسان أسماءه الحسنى، ويذكِّر نفسه في الوقت ذاته باضطراره وضعفه وحاجته إلى اللَّه سبحانه، فلو استطاع الإنسان أن يعرف نفسه، وإن يصل بمعرفته لنفسه درجة يعلم بها أنّ كل ما أصابه من خير فهو من اللَّه، وما أصابه من شر فهو من نفسه، ويعلم بها أن طبيعته مرتكزة في وحل الضعف والعدم والعجز والعجل، لو وصل الإنسان إلى هذا المستوى من المعرفة، لوصل إلى قمة العبودية وذروة الطاعة له، فاللَّه سبحانه وتعالى يريد أنْ يُعرِّفك نفسك من خلال أعمالك الصالحة، وإذا عرفتَ نفسك معرفة حقيقية فإنك تستطيع أن

تعرف ربك أيضًا: «**مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ**»[١].

وبالطبع ليست العملية بهذه السهولة -كما قد يتصوَّر بعض الناس-؛ إذ إن وصول الإنسان إلى هذا المستوى من المعرفة بحاجة إلى عمل كثير ومركّز ومستمر. كيف؟.

نستطيع تحديد الإجابة من خلال ما جاء في بعض الأحاديث من: «**إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ الْأَجْسَامِ بِأَلْفَيْ عَامٍ..**»[٢]، وأنها كانت موجودة في عالم الأشباح، وهذا العالم يختلف عن عالم الذر، ثم انتقلت إلى عالم الذر، ومن عالم الذر إلى عالم النسل، ومن عالم النسل تنتقل إلى البرزخ، ومن البرزخ إلى يوم القيامة، ومن يوم القيامة إلى المصير النهائي، إما إلى الجنة أو إلى النار.

رَوَى عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ إِسْمَاعِيلَ الْبَرْمَكِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنَا جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ أَيُّوبَ الْخَزَّازُ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْفَضْلِ الْهَاشِمِيُّ، قَالَ: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِاللَّهِ عليه السلام: لِأَيِّ عِلَّةٍ جَعَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَرْوَاحَ فِي الْأَبْدَانِ، بَعْدَ كَوْنِهَا فِي مَلَكُوتِهِ الْأَعْلَى، فِي أَرْفَعِ مَحَلٍّ؟.

فَقَالَ عليه السلام: **إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ عَلِمَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ فِي شَرَفِهَا وَعُلُوِّهَا، مَتَى مَا تُرِكَتْ عَلَى حَالِهَا، نَزَعَ أَكْثَرُهَا إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ دُونَهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَجَعَلَهَا بِقُدْرَتِهِ فِي الْأَبْدَانِ الَّتِي قَدَّرَ لَهَا فِي ابْتِدَاءِ التَّقْدِيرِ، نَظَرًا لَهَا وَرَحْمَةً بِهَا، وَأَحْوَجَ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ، وَعَلَّقَ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ وَرَفَعَ بَعْضَهَا عَلَى**

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٣٢.

(٢) انظر: بحار الأنوار، كتاب السماء والعالم، أبواب الإنسان والروح والبدن.

بَعْضٍ فِي الدُّنْيَا، وَرَفَعَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ فِي الْآخِرَةِ، وَكَفَى بَعْضَهَا بِبَعْضٍ، وَبَعَثَ إِلَيْهِمْ رُسُلَهُ، وَاتَّخَذَ عَلَيْهِمْ حُجَجَهُ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، يَأْمُرُونَ بِتَعَاطِي الْعُبُودِيَّةِ، وَالتَّوَاضُعِ لِمَعْبُودِهِمْ، بِالْأَنْوَاعِ الَّتِي تَعَبَّدَهُمْ بِهَا، وَنَصَبَ لَهُمْ عُقُوبَاتٍ فِي الْعَاجِلِ، وَعُقُوبَاتٍ فِي الْآجِلِ، وَمَثُوبَاتٍ فِي الْعَاجِلِ، وَمَثُوبَاتٍ فِي الْآجِلِ، لِيُرَغِّبَهُمْ بِذَلِكَ فِي الْخَيْرِ، وَيَزِيدُهُمْ فِي الشَّرِّ، وَلِيَدُلَّهُمْ بِطَلَبِ الْمَعَاشِ وَالْمَكَاسِبِ، فَيَعْلَمُوا بِذَلِكَ أَنَّهُمْ بِهَا مَرْبُوبُونَ وَعِبَادٌ مَخْلُوقُونَ، وَيُقْبِلُوا عَلَى عِبَادَتِهِ، فَيَسْتَحِقُّوا بِذَلِكَ نَعِيمَ الْأَبَدِ وَجَنَّةَ الْخُلْدِ، وَيَأْمَنُوا مِنَ الْفَزَعِ إِلَى مَا لَيْسَ لَهُمْ بِحَقٍّ.

ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا ابْنَ الْفَضْلِ؛ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحْسَنُ نَظَرًا لِعِبَادِهِ مِنْهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ. أَلَا تَرَى أَنَّكَ لَا تَرَى فِيهِمْ إِلَّا مُحِبًّا لِلْعُلُوِّ عَلَى غَيْرِهِ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُمْ لِمَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى الرُّبُوبِيَّةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى النُّبُوَّةِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدْ نَزَعَ إِلَى دَعْوَى الْإِمَامَةِ بِغَيْرِ حَقِّهَا، وَذَلِكَ مَعَ مَا يَرَوْنَ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنَ النَّقْصِ وَالْعَجْزِ وَالضَّعْفِ وَالْمَهَانَةِ وَالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ وَالْآلَامِ وَالْمُنَاوَبَةِ عَلَيْهِمْ وَالْمَوْتِ الْغَالِبِ لَهُمْ وَالْقَاهِرِ لِجَمْعِهِمْ.

يَا ابْنَ الْفَضْلِ؛ إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَ لَا يَفْعَلُ بِعِبَادِهِ إِلَّا الْأَصْلَحَ لَهُمْ، وَ﴿لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، وَلكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1]»[2].

والتأكيد على قراءة الأدعية المأثورة إنما هو من أجل أن تتحوَّل روح الاستقلال، والشعور بالاستغناء والطغيان، إلى روح العبودية والذلة والإحساس بالحاجة إلى اللَّه سبحانه وتعالى، ولا شك أن العبودية والذلة للَّه سبحانه، تختلف عنها أمام الخلق، فالعبودية للَّه عِزٌّ، والذل أمام اللَّه

(١) سورة يونس، آية: ٤٤.

(٢) علل الشرائع، ج١، ص١٥-١٦.

سبحانه وتعالى فخر، واستعطاء اللَّه غنى، لذلك نقرأ في هذه المقطوعة من دعاء الافتتاح: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُجِيبُنِي حِينَ أُنَادِيهِ**»، فأنا ضعيف أمام اللَّه، وأحتاج إليه في كل شؤوني، وحينما أناديه ألقاه مجيبًا.

«**وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وَأَنَا أَعْصِيهِ**»، فكل إنسان لا يخلو من عورة وعيب، وافتضاح الناس أمام بعضهم البعض في الدنيا، يعني عجز الإنسان عن التعامل مع الآخرين؛ ولذلك كان الإنسان بحاجة إلى أن يستر اللَّه عيوبه في الدنيا والآخرة، إلَّا أننا أحوج إلى ستر اللَّه في الآخرة منا إلى ستره في الدنيا؛ إذ إن افتضاح عيوب الإنسان وتعريته في الدنيا لا يتعدى الدائرة الاجتماعية الضيقة التي يعيش فيها الفرد، وهي عبارة عن عدد محدود من الأفراد، بينما في يوم القيامة حيث يقف الواحد منا مع مئات المليارات من البشر، امام اللَّه سبحانه وتعالى، فإن افتضاح الإنسان وتعريته أمام هذا العدد الهائل من الناس لأمر صعب وشاق للغاية.

إذًا، فنحن نحمد اللَّه على أنه يستر عوراتنا، وحمد اللَّه يجب أن يتجسّد في الكف عن معصية اللَّه: «**وَيَسْتُرُ عَلَيَّ كُلَّ عَوْرَةٍ وَأَنَا أَعْصِيهِ**».

فستر اللَّه تعالى على الإنسان يجب أن يتحوّل إلى رادع عن المعصية، وليس دافعًا للتوغل في الذنوب، وإذا لم يكن للإنسان إيمان راسخ يمنعه عن المعصية، فلا بد أن يتمتع -على الأقل- بالحياء من اللَّه الذي يستر العيوب والعورات عن الخلائق.

«**وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلَا أُجَازِيهِ**»، فاللَّه تعالى يبارك لنا في حياتنا، بل كل جزء من حياتنا هو نعمة عظيمة من اللَّه، الزوجة والأولاد نعم من اللَّه، والعزة والحرية والقدرة هي الأخرى نِعَم من اللَّه، إلَّا أننا بإزاء كل نِعَم اللَّه

العظيمة لا نجازيه، بل نواصل العيش غافلين عن كل ذلك: «**وَيُعَظِّمُ النِّعْمَةَ عَلَيَّ فَلَا أُجَازِيهِ**».

«**فَكَمْ مِنْ مَوْهِبَةٍ هَنِيئَةٍ قَدْ أَعْطَانِي، وَعَظِيمَةٍ مَخُوفَةٍ قَدْ كَفَانِي**»، إنّ مواهب اللَّه غالبًا ما تكون واضحة يعرفها الإنسان ويلمسها في حياته، وأحيانًا يشكر اللَّه عليها، إلَّا أنّ لطف اللَّه الخفي هو ما يدفعه اللَّه عن الإنسان من عظائم الأمور والأخطار، فالإنسان معرَّض في أية لحظة لمئات الأخطار والمشاكل، للمرض، والفقر، والهزيمة، والموت، واللَّه تعالى هو الذي يدفع كل ذلك عن الإنسان: ﴿**لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّه**﴾[1].

فلكل إنسان عدد من الملائكة الذين وكّلهم اللَّه به، وهم بمثابة الحرَّاس الذين يحفظونه من التعرض للأخطار، ولو عاد كل واحد منا إلى نفسه لتذكَّر عشرات الموارد التي كاد يتعرض فيها لأخطار جسيمة، إلَّا أن يدًا غيبية كانت تنقذه وتدفعه بعيدًا عن ذلك.

يقول الطب الحديث: إنّ السبب الظاهر لمرض السرطان هو وجود خلية فاسدة في أي منطقة من مناطق الجسم، تقوم هذه الخلية بتوليد المثل فتحوّل كل الخلايا المجاورة لها إلى خلايا فاسدة أيضًا، وحينذاك تتسع الرقعة لتشمل مساحة كبيرة من الجسم يستحيل علاجها على الطب.

ويضيف الطب الحديث: إنّ هذه الخلية الفاسدة هي موجودة في كل جسم منذ الولادة، إلَّا أنها غير نشطة لأسباب غير معروفة طبيًّا، ويحدث أحيانًا وفي بعض الأجسام -ولأسباب غير معروفة أيضًا- أنْ تنشط

(١) سورة الرعد، آية: ١١.

وتتحرّك هذه الخلية الفاسدة وتقوم بإفساد أكبر قدر ممكن من الخلايا المجاورة شيئًا فشيئًا.

إذًا، فكل واحد منا مهدّد بالإصابة بهذا المرض الخطير، وكل لحظة من حياتنا يمكن أن تتحوّل إلى لحظة النهاية والموت بالسرطان، لكن اللَّه سبحانه وتعالى يبعد كل هذه التهديدات وهذه المخاطر عنا، فهل نحن نشكره؟. كلَّا.

«**وَبَهْجَةٍ مُونِقَةٍ قَدْ أَرَانِي**»، إنّ كل ما في الحياة من جمال وروعة يعطيه اللَّه لنا، وهو دليل آخر على ضعفنا وحاجتنا إلى رحمته وفضله، ولكن كيف؟.

أحيانًا حينما تكون في الصحراء، وقد ضقت ذرعًا بالظلام والبرد والوحشة فترى الصبح بتألقه وضيائه يقدم عليك، فينفتح قلبك، وتنشرح نفسك، وتتجدد آمالك، هذه هي البهجة المونقة، والروعة والجمال. وأحيانًا تكون جالسًا عصرًا في جو حار وخانق ومزعج، وفجأة ترى السماء قد امتلأت سحابًا وأمطرت مطرًا حسنًا، والجو آخذ في البرد، فتنتعش وتغمرك بهجة مونقة.

إذًا، فهناك لحظات البهجة والسرور يغمر اللَّه الإنسان بها ليشعر أنه بحاجة إلى اللَّه دائمًا وابدًا.

«**فَأُثْنِي عَلَيْهِ حَامِدًا، وَأَذْكُرُهُ مُسَبِّحًا**»، فمن جهة أثني على اللَّه أي أذكره بالخير وأحمده، وفي الوقت نفسه أجري ذكر اللَّه على لساني وأسبّحه وأنزّهه عن أن يُشبَّه المخلوقين.

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَا يُهْتَكُ حِجَابُهُ**»، هل استطاع أحد أن يصل إلى اللَّه

سبحانه وتعالى؟. فحجابه لا يُهتك، وهو مستور في سرادقات عرشه وبعزة مجده. «**وَلَا يُغْلَقُ بَابُهُ**»، أبواب الناس تُغلق في الليل، حتى أكثر الحكومات عدالة تغلق مكاتبها في فترات معينة من اليوم، إلَّا أن أبواب اللَّه تبقى مفتوحة في أي وقت من الأوقات، ويستطيع الإنسان أن يطرقها في أية لحظة يحتاج فيها إلى ربه: «**وَلَا يُغْلَقُ بَابُهُ، وَلَا يُرَدُّ سَائِلُهُ**»، وحينما يطرق الإنسان باب ربه فإنه لا بد أن يجد الإجابة الملائمة، فاللَّه لا يرد من يسأله ويدعوه «**وَلَا يُخَيَّبُ [يَخِيبُ] آمِلُهُ**»، لا يحتاج الإنسان أن يسأل ربه، بل يكفي أن تأمل ربك في قلبك، حتى تجد اللَّه عند قلبك المنكسر، فاللَّه يستحيل أن يُخيِّب آمله، إلَّا أنّ الشرط هو ألَّا نُخادع أنفسنا، وأن يكون أملنا في اللَّه وحده، لا نشرك به أحدًا.

(7)



الاعتماد على اللَّه



«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُؤْمِنُ الْخَائِفِينَ، وَيُنَجِّي [يُنْجِي] الصَّالِحِينَ [الصَّادِقِينَ]، وَيَرْفَعُ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وَيَضَعُ الْمُسْتَكْبِرِينَ، وَيُهْلِكُ مُلُوكًا وَيَسْتَخْلِفُ آخَرِينَ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَاصِمِ الْجَبَّارِينَ، مُبِيرِ الظَّالِمِينَ، مُدْرِكِ الْهَارِبِينَ، نَكَالِ الظَّالِمِينَ، صَرِيخِ الْمُسْتَصْرِخِينَ، مَوْضِعِ حَاجَاتِ الطَّالِبِينَ، مُعْتَمَدِ الْمُؤْمِنِينَ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مِنْ خَشْيَتِهِ تَرْعَدُ السَّمَاءُ وَسُكَّانُهَا، وَتَرْجُفُ الْأَرْضُ وَعُمَّارُهَا، وَتَمُوجُ الْبِحَارُ وَمَنْ يَسْبَحُ فِي غَمَرَاتِهَا. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا، وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَخْلُقُ وَلَمْ يُخْلَقْ، وَيَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ، وَيُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

****

تعالج الأدعية المأثورة واقعًا نفسيًّا للإنسان ينعكس في تصرفاته الاجتماعية، وعندما نتأمل في فقرة من فقرات الدعاء لا بد أن نتساءل: أي واقعٍ تعالجه هذه الفقرة؟. وأي انحراف تُصحِّحه؟. وأي ضعف يسعى الدعاء من أجل أن يجبره؟. وأي عجز يسعى من أجل أن يقيمه؟.

وبتعبير آخر: ما هو الهدف المباشر وراء هذه الكلمة أو تلك من الدعاء؟.

وحينما نتعمّق في كل ذلك فإنه ينفعنا؛

أولًا: في معرفة نواحي الضعف في أنفسنا.

ثانيًا: في معرفة كيفية معالجة هذه النواحي، عبر الدعاء وعبر ما يُثيره في أنفسنا من إحساسات، وما يُعلِّمنا من دروس.

وفي حالة التأمل في كلمة من كلمات الدعاء، يجب ألَّا نقتصر على فهم الدعاء فحسب، وإنما علينا أنْ نصل إلى تلك الطريقة التي اتبعها الدعاء من أجل معالجة هذه الناحية من النقص في أنفسنا، وإذا وصلنا إلى تلك الطريقة فيمكن أن نستفيد منها ولو بصورة غير صورة الدعاء.

فمثلًا علينا أن نسأل: من أجل ماذا تسعى هذه الفقرة من الدعاء؟.

الجواب: إنها تجبر ضعفًا موجودًا في واقع النفس البشرية، إنه ضعف الإنسان أمام الطبيعة وخوفه منها، ضعف الإنسان أمام المجتمع وخشيته منه، ضعف الإنسان أمام السلطات التي تمثل القوى الاجتماعية وخوفه منها، هذا الضعف لا بد أن يجبر لكي يتكامل الإنسان. فالإنسان الخائف الذي يخشى الطبيعة، أو المجتمع، أو السلطة الفاسدة الحاكمة، لا يكون إنسانًا متكاملًا ولا مستقلًا، بل أكاد أقول: ولا إنسانًا مؤمنًا؛ لأن المؤمن لا يكون جبانًا، إن المؤمن الذي يترك دينه خوفًا من الناس وخوفًا من المجتمع وخوفًا من الطبيعة، ماذا ينفعه إيمانه؟. الإيمان هو سلاح الإنسان ضد الطبيعة، والحصن الذي يحافظ على استقلال المؤمن، فإذا كان هذا الحصن مخترقًا، فكيف ينفع الإنسان؟. ماذا ينفع الإيمان الذي لا يحصن استقلالك؟. إنه يشبه الدواء الذي لا ينفعك في حالة المرض، وإنما يفيدك فقط حينما تكون متمتعًا بكامل صحتك.. فما هي فائدة هذا الدواء إذًا؟.

الإيمان هو حصن المؤمن وسلاحه، والإنسان يستخدم سلاحه ضد عدوه، وضد كل ما يخاف منه، والإنسان بطبيعته وفطرته يخشى الطبيعة، يخشى الظلام والهوام والدواب، يخشى الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق والرياح، ومن هنا نشأت عبادة البشر -عبر التاريخ- للظواهر الطبيعية؛ إذ إنهم كانوا يخشونها فيتحولون إلى عبادتها، ولذلك كان كل مجتمع يعبد الظاهرة الطبيعية التي يعايشها ويخاف منها، فمنهم من يعبد الرعد والبرق والسحاب، ومنهم من يعبد البحر إذا كان يعيش على سواحل البحار، وهناك من يعبد النهر لأنه يسكن على شاطئه، وهكذا نجد الأقباط السابقين في مصر كانوا يعبدون النيل لأنهم كانوا يعيشون على ضفافه، وكانوا يطعمونه كل عام واحدة من أجمل فتياتهم.

ولهذا السبب كان جماعة من الناس يعبدون رؤساء العشائر رموز القوة الاجتماعية، وكانت الأصنام عادة رموزًا لقوى اجتماعية معينة.

كل ذلك لأن في طبيعة الإنسان تكمن حالة الانسحاب والتبعية، حالة الذل التي تجعله يعبد ما يخشاه ويخافه.

وهذه الفقرة من الدعاء تجبر هذا الضعف البشري، إذ تقول للإنسان: إنك قوي حتى ولو لم تملك السلاح والقوة المادية؛ إذ إنك تملك التوكل على اللَّه والاعتماد عليه، تملك سلاحًا أمضى من أي سلاح، وهو سلاح الدعاء، فعندما تدخل على حاكم فاسد جبار، اقرأ هذا الدعاء لكي تغمر قلبك قوة في المواجهة، وعندما تواجه انحرافًا اجتماعيًّا، فاقرأ هذا الدعاء حتى يمنحك القدرة على مقاومته وتصحيحه.

إذًا، فإنّ كل دعاء يعالج واقعًا نفسيًّا، وضعفًا قائمًا في النفس البشرية،

وعند التدبر في الدعاء يجب أن نحاول اكتشاف الأهداف المباشرة من وراء كل فقرة، وكلمة، على هذا الأساس نواصل التدبر في هذه الفقرة من دعاء الافتتاح:

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يُؤْمِنُ الْخَائِفِينَ**»، الخوف هو الوتر الحساس في حياة الإنسان، والذي تؤكده هذه الفقرة من الدعاء في بدايتها، فالذي يخاف ويرتجف من السلطان الجائر، كيف يستطيع مقاومته، والذي يخاف الطبيعة ومظاهرها، كيف يمكنه تسخيرها والاستفادة منها.. إذًا بأي حبل يستطيع هذا الخائف أن يعتصم حتى يطمئن قلبه، وتسكن نفسه؟.

الجواب: بحبل اللَّه الذي يؤمن الخائفين، والمؤمن هو من أسماء اللَّه الحسنى «**وَيُنَجِّي الصَّالِحِينَ**»، إذا كانت أعمالك صالحة فلا تخشى أحدًا أو شيئًا لأن اللَّه تعالى سوف ينجيك وينقذك إذا واجهت أية مصاعب، «**وَيَرْفَعُ الْمُسْتَضْعَفِينَ**»، وإذا استضعفك الآخرون، وسلبوا قدراتك، واستثمروك اقتصاديًّا وإعلاميًّا، وأغلقوا في وجهك مسارب الحياة والتقدم، فإن هناك رب العزة الذي يرفع المستضعفين ويأخذ بأيديهم إلى ساحل النجاة والحياة الحرة الكريمة، ولكن بشرط واحد هو أن تبقى في نفس المستضعَف شعلة الأمل متوهجة، وألَّا ينتهي إلى اليأس والقنوط والاستسلام للواقع الفاسد.

«**وَيَضَعُ الْمُسْتَكْبِرِينَ**»، لا يمكن أن يستمر الطغاة والمستكبرون في تسلطهم الظالم على الشعوب المستضعَفة، إنّ هذا لا يتفق مع سنن اللَّه في الحياة، فلا بد أن يدحر اللَّه كل المستكبرين والطواغيت، وأن يرفع في مكانهم الذين استُضعفوا ويجعلهم أئمة.

«**وَيُهْلِكُ مُلُوكًا وَيَسْتَخْلِفُ آخَرِينَ**»، إنّ هؤلاء الملوك، والطغاة،

والجبابرة الذين يمسكون بين أصابعهم مصائر الشعوب، ويتلاعبون بمقدرات الأمم المستضعفة، لا يشكّلون قوة حقيقية في الحياة، فاللَّه القاهر يهلك الملوك ويقضي على الطغاة ويستخلف مكانهم آخرين.

«**وَالْحَمْدُ لِلَّهِ قَاصِمِ الْجَبَّارِينَ**»، إنّ الذين يتجبرون في الأرض، ويحسبون أنفسهم أنصاف آلهة، ويزرعون الخوف والهلع في قلوب الجماهير، ويعيثون في الأرض فسادًا، سوف يقصم اللَّه ظهورهم. «**مُبِيرِ الظَّالِمِينَ**»، أما الظالمون الذين يظلمون الناس فإن اللَّه يهلكهم عن آخرهم، ويبيدهم إبادة تامة، وما أكثر عِبَر الحياة في هذا المجال، فأين الذين كانوا يظلمون الناس في البلاد؟. لقد أبادهم اللَّه، وشتت شملهم في آفاق الأرض.

«**مُدْرِكِ الْهَارِبِينَ**»، وهل يستطيع الظالم أن يهرب؟. أجل، قد يهرب من أيدي المظلومين، إلّا أنه لا يستطيع الهرب من اللَّه القاهر الجبار، فاللَّه مدركه أينما يولي وجهه، فهو «**مُدْرِكِ الظَّالِمِينَ، مُدْرِكِ الْهَارِبِينَ، نَكَالِ الظَّالِمِينَ**»، سوف يعذبهم عذابًا شديدًا، «**صَرِيخِ الْمُسْتَصْرِخِينَ**»، فالذي يستصرخ ربه، ويدعوه إلى إغاثته، فإن اللَّه صريخه، أي يُجيبه ويكون عند استغاثته.

«**مَوْضِعِ حَاجَاتِ الطَّالِبِينَ**»، إنّ الذين يطلبون من اللَّه حاجاتهم مهما تكن كثيرة، فإن اللَّه موضع حاجاتهم ويستجيب لهم، فإن الآمال والطموحات الكبيرة لا تتحقق إلّا باللَّه

«**مُعْتَمَدِ الْمُؤْمِنِينَ**»، أما المؤمنون فإنهم يعتمدون على اللَّه سبحانه وتعالى ويتوكّلون عليه. هذا بالنسبة إلى الطغاة والقوى الاجتماعية.

أما في مجال القوى الطبيعية، فيقول الدعاء:

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي مِنْ خَشْيَتِهِ تَرْعَدُ السَّمَاءُ وَسُكَّانُهَا**»، الإنسان يخشى السماء وما فيها من رعود وبروق، ويرجو رحمة اللَّه من السماء أيضًا، إلّا أن الحقيقة هي غير ذلك، فالسماء لا تشكّل خطرًا يُخاف منه؛ إذ إن السماء وسكانها ترتعد من خشية اللَّه سبحانه وتعالى فلماذا نخشى الطبيعة إذًا؟.

«**وَتَرْجُفُ الْأَرْضُ وَعُمَّارُهَا**»، فالأرض والذين يعمرون الأرض ويحيونها يرتجفون خوفًا من اللَّه وخشيته، «**وَتَمُوجُ الْبِحَارُ وَمَنْ يَسْبَحُ فِي غَمَرَاتِهَا**»، هذه الحيوانات البحرية الهائلة، التي يزن بعضها (١٠٠) طن، ويصل طول بعضها ثلاثين مترًا، كل هذه ترتعد فَرَقًا وخشية من رب العالمين.

إذًا، يجب ألَّا يخشى الإنسان المؤمن الظواهر الطبيعية.. ألَّا يخاف السماء والأرض والبحار، فكل هذه مخلوقات للَّه ومسخَّرات بأمره.

والآن، ما دمنا قد وصلنا إلى هذه المرحلة واكتشفنا أن الملوك والجبابرة والظالمين والمستكبرين لا يشكّلون أية قوة بإزاء اللَّه رب العالمين، وأنه سوف يُبيدهم عن آخرهم، وأن السماء والأرض والبحار وكل ظواهر الطبيعة ليست عدوة الإنسان حتى يخاف منها ويخشاها، بل هي كلها ترتعد وترتجف أمام ملكوت اللَّه، علينا إذًا أن نحمد اللَّه على هدايته إيانا إلى هذه الحقيقة الإيمانية. لقد كنا سابقًا نخشى مخلوقات اللَّه فنعبدها من دونه، ولكن اللَّه هدانا إلى الصراط السوي.

«**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا، وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ**»، فاللَّه تعالى هو الذي يُعرِّف نفسه بنفسه، ولولا هداية اللَّه للإنسان لظلّ سادرًا في غوايته، والإنسان هو المخلوق العاجز الضعيف الذي يحتاج اللَّه في

كل شيء، واللَّه هو الغني القيوم، هو الذي يخلق الأشياء، ولا يخلقه شيء، ويرزق الإنسان ولا يحتاج إلى رزق أحد، ويُطعم البشر ولا حاجة له إلى الطعام.. بيده الموت، والحياة، والنشور.. بل هو القادر على كل شيء ولا يعجزه أمر: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدانا لِهذا، وَما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدانَا اللَّهُ. الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَخْلُقُ وَلَمْ يُخْلَقْ، وَيَرْزُقُ وَلَا يُرْزَقُ، وَيُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ، وَيُمِيتُ الْأَحْيَاءَ، وَيُحْيِي الْمَوْتَى، وَهُوَ حَيٌّ لا يَمُوتُ، بِيَدِهِ الْخَيْرُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**».

(8)



معرفة الرسول



«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ عَبْدِكَ، وَرَسُولِكَ وَأَمِينِكَ، وَصَفِيِّكَ وَحَبِيبِكَ، وَخِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ، وَحَافِظِ سِرِّكَ، وَمُبَلِّغِ رِسَالاتِكَ، أَفْضَلَ، وَأَحْسَنَ، وَأَجْمَلَ، وَأَكْمَلَ، وَأَزْكَى، وَأَنْمَى، وَأَطْيَبَ، وَأَطْهَرَ، وَأَسْنَى، وَأَكْثَرَ مَا صَلَّيْتَ، وَبَارَكْتَ، وَتَرَحَّمْتَ، وَتَحَنَّنْتَ، وَسَلَّمْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَصِفْوَتِكَ، وَأَهْلِ الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ».

****

كانت الفقرات السابقة من دعاء الافتتاح تركّز -في الغالب- على المفردة الأولى من مفردات الدعاء، وهو: ذكر اللَّه سبحانه وتعالى، والتذلل له في مقام العبودية، أما الفقرات التالية فإنها تدعو إلى ترسيخ العقائد الإسلامية، ومن أبرز هذه العقائد بعد ذكر اللَّه وبعد الإيمان به ومعرفته، هو معرفة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومعرفة الأئمة الهداة من آل بيته عليهم السلام. وبالطبع لا تكفي هنا المعرفة الفوقية التي نسميها بالإسلام، بل لا بد أن تتحوّل هذه المعرفة إلى معرفة راسخة في قلب الإنسان، تنعكس على أعماله وتصرفاته، وبالذات فيما يخص أولياء اللَّه من الأنبياء والصديقين والصالحين، إذ يجب أن تتحوّل المعرفة إلى حب، وإلى نوع من الانسجام

النفسي يجعل الإنسان يتّبعهم دون صعوبة.

تحتوي هذه الفقرة على عدة مفردات:

الأولى: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ**»، الصلاة على النبي، ثم الصلاة من طرف خفي على الصديقين والأنبياء والصالحين والسابقين على النبي، ومن ثم تحديد صفات النبي ﷺ.

والآن لنتأمل في كل فقرة من الفقرات، وفي البدء نسأل: ماذا تعني الصلاة على النبي؟. ولماذا نحن معنيون بهذه الصلاة ونؤكّدها ونقدّمها بين يدي دعواتنا إلى اللَّه سبحانه وتعالى. لماذا؟.

إن فلسفة الصلاة على النبي ﷺ تتحدّد من خلال النقاط الثلاث التالية:

النقطة الأولى: تحديد العلاقة بيننا وبين الرسول، وهي علاقة الحب والعطاء، لقد بذل الرسول ﷺ مجهودًا ضخمًا لتبليغ الرسالة الإسلامية، وتحمل المسؤوليات الجسام في هذا السبيل، وقد هدانا اللَّه بسببه، فما هو عطاؤنا للرسول؟.

نحن لا نملك شيئًا نُعطيه لرسول اللَّه ﷺ، وهو الآخر لا يطلب منا أجرًا، إن نهاية الاعتراف بالشكر للرسول ﷺ تكمن في الصلاة عليه، في أنْ ندعو اللَّه ليجزيه خير الجزاء.

إن شكرنا لخدمات رسول اللَّه ﷺ وجهوده ومساعيه من أجل إنقاذنا وإنقاذ البشرية من ظلمات الجهل والجهالة والشرك، هو أن ندعو اللَّه بأن يجزيه أجرًا حسنًا.

النقطة الثانية: تحديد العلاقة بين اللَّه والرسول ﷺ وهي الأخرى علاقة العطاء، فليس رسول اللَّه ﷺ ابنًا للَّه سبحانه وتعالى، ولا هو غني عن رب العالمين، بل العكس تمامًا، إنه عبدٌ ومحتاجٌ إلى اللَّه، وهذه العلاقة هي العلاقة بين رسول اللَّه ﷺ وبين رب العالمين، لذلك فإننا نطلب من اللَّه أن يعطي للرسول، وهذا لا يكون إلّا بسبب حاجة الرسول ﷺ إلى رحمة اللَّه سبحانه وفضله وعطائه.

النقطة الثالثة: كما سبق وأن قلنا: إذا دعا الإنسان بلسان غيره فسوف يُستجاب دعاؤه، فدعاؤك لي مستجاب، ودعائي لك مستجاب أيضًا، وبما أننا قد أذنبنا فإننا لا نملك وجوهًا كريمة أمام اللَّه، وإن ذنوبنا تحول بيننا وبين اللَّه، لذلك فإننا ندعو لرسول اللَّه ونُصلّي عليه، وهو ﷺ يدعو لنا، ودعاء الرسول شفاعته: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا**﴾[1].

لو أن الرسول ﷺ يدعو لنا ويشفع لنا فإن دعاءه مستجاب، وهذا لا يعني أن دعاء الرسول ﷺ أو استغفاره لقومه يحتم على اللَّه شيئًا، ولكن يعني أن وجه الرسول ﷺ كريم عند اللَّه، ونحن نُقدّم هذا الوجه بين يدي حاجاتنا ونتوسَّل إلى ربنا فيستجيب اللَّه سبحانه.

أما **المفردة الثانية**؛ في هذه الفقرة من الدعاء، فهي بيان مواصفات الرسول ﷺ وأبرزها ما يلي:

«**عَبْدِكَ**»، إنه عبد اللَّه، إننا نقول عادة: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وهذا يعني أننا نُقدِّم صفة العبودية على صفة الرسالة، والسبب في ذلك هو

(١) سورة النساء، آية: ٦٤.

أننا نريد أن ننفي عن أنفسنا غبار الشرك؛ لأن الإنسان حينما يُعظّم أحدًا في نفسه، يقع فريسة لوساوس الشيطان التي تدعوه إلى إشراكه في عبادة اللَّه، لذلك فإننا نؤكّد أن رسول اللَّه ﷺ بالرغم من عظمته وشرف مقامه إلّا أنه بالتالي عبد للَّه سبحانه وتعالى، وهذا أمر ضروري للغاية؛ لأن كثيرًا من الناس حينما يحبون أحدًا يدفعهم حبهم لكي يرفعوا المحبوب إلى مستوى الألوهية وهذا خطير جدًّا، إذ إن رفع الأولياء أو الأنبياء والصالحين إلى مستوى الألوهية يضع حجابًا بين الإنسان والاقتداء بسيرة صاحب الشأن.

«**وَرَسُولِكَ وَأَمِينِكَ**»، إنه حمل رسالة اللَّه إلينا، وكان أمينًا في رسالته. لم يُغيّر ولم يُبدّل، إن إيماننا بأمانة رسول اللَّه يجعلنا نعتقد بأن أي مخالفة صغيرة أو كبيرة لرسول اللَّه تعني مخالفة للَّه سبحانه وتعالى.

«**وَصَفِيِّكَ**»، إن اللَّه تعالى أصطفى الرسول ﷺ من بين خلقه، أي إنه لو كان في عصر الرسول ﷺ من هو أكثر جدارة بحمل الرسالة لكان اللَّه يجعل رسالته في ذلك الإنسان، إذًا اختيار اللَّه للرسول إنما كان بسبب أنه كامل الشخصية، وليس عبثًا ومن دون حكمة.

«**وَحَبِيْبِكَ**»، والرسول هو حبيب اللَّه، يحبه اللَّه وهو يحب اللَّه، ونحن نحب الرسول، وفي مهرجان الحب يشترك الجميع، فيرتفعون إلى مستوى التفاعل والانسجام.

«**وَخِيَرَتِكَ مِنْ خَلْقِكَ**»، أي الذي اخترته من خلقك، وهذا المعنى قريب من معنى «**وَصَفِيِّكَ**».

«**وَحَافِظِ سِرِّكَ**»، فللَّه تعالى سر مستودع عند رسوله، وهذا السر ينتقل عبر أولياء اللَّه، إذًا، هنالك أشياء لم نعلمها، وهي مفهومة للقيادة

المعصومة.

إن عقولنا مهما سمت فهي لا تصل إلى مستوى عقول القيادة.

«**وَمُبَلِّغ رِسَالاتِكَ**»، تبليغ الرسالة ليس عملًا سهلًا؛ لأن تبليغ الرسالة يعني أن الإنسان يتجرَّد عن كل شيء: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنْ النَّاسِ**﴾[1].

أما **المفردة الثالثة**؛ وهي طبيعة الصلاة، فالدعاء يصف الصلاة على النبي بـ: «**أَفْضَلَ، وَأَحْسَنَ، وَأَجْمَلَ، وَأَكْمَلَ، وَأَزْكَى، وَأَنْمَى، وَأَطْيَبَ، وَأَطْهَرَ، وَأَسْنَى**».

فماذا تعني هذه الكلمات؟.

الجواب: إنّ الصلاة تعني رحمة اللَّه سبحانه وتعالى لعباده، وهي ليست بشكل واحد ولا بدرجة واحدة، ولا تأتي في ظرف واحد، إن رحمة اللَّه مختلفة درجاتٍ وأوقاتاً وألوانًا، ونحن نطلب لرسول اللَّه ﷺ أفضلها وأحسنها وأجملها، وأكملها وأزكاها.. والتعابير هذه تدل على نوع الرحمة التي نطلبها لرسول اللَّه ﷺ.

ثم إن الصلاة على النبي ﷺ لا تعني منع الصلاة على عباد اللَّه الصالحين. إن رحمة اللَّه واسعة تشمل الرسول وغير الرسول، لذلك يقول الدعاء: «**وَأَكْثَرَ مَا صَلَّيْتَ، وَبَارَكْتَ، وَتَرَحَّمْتَ، وَتَحَنَّنْتَ، وَسَلَّمْتَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ عِبَادِكَ، وَأَنْبِيَائِكَ وَرُسُلِكَ، وَصِفْوَتِكَ، وَأَهْلِ الْكَرَامَةِ عَلَيْكَ مِنْ خَلْقِكَ**»، هذه الصلاة هي من طرف خفي، وبصورة غير مباشرة لأنبياء اللَّه عليهم السلام، والصالحين من عباده وصفوته وأهل الكرامة عليه.

(١) سورة المائدة، آية: ٦٧.

وهنا يجب أن نُشير إلى أننا بالرغم من صلاتنا على الرسول إلَّا أننا مقصَّرون بإزائه؛ ذلك لأن المطلوب منا هو أن نعرف سيرته وآدابه، وأخلاقه الحسنة، ثم نقتدي به عمليًّا في حياتنا اليومية، إلّا أننا نرى الأكثرية الساحقة من المسلمين لا يعرفون سيرة الرسول، ولا يقرؤون كتابًا واحدًا حول الرسول طيلة حياتهم، فكيف يواجهون غدًا رسول اللَّه ﷺ؟.

إن من أبسط حقوق الرسول ﷺ علينا هو أن نقرأ سيرته ونتعمَّق في حياته، ثم نُطبِّق كل ذلك في سلوكنا بشكل كامل.

(9)

معرفة الوصي

«اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَصِيِّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ، وَأَخِي رَسُولِكَ، وَحُجَّتِكَ عَلَى خَلْقِكَ، وَآيَتِكَ الْكُبْرَى، وَالنَّبَإِ الْعَظِيمِ»

****

بعد الصلاة على الرسول ينتقل الدعاء للصلاة على وصيه وخليفته من بعده، وهو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

إن في صلاتنا ودعائنا للإمام علي عليه السلام الفوائد نفسها والمفردات نفسها التي ذكرناها في الصلاة على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونحن أيضًا لا نستطيع أن نقدّم للإمام علي عليه السلام الذي غيّر مسار التاريخ، والذي أعطانا نموذجًا للحكومة الإسلامية، والذي لم يدعْ طاقة ولا قوة يمتلكها إلَّا بذلها في سبيل اللَّه، نحن لا نملك أن نقدّم له شكرًا أو أجرًا، وإنما فقط نستطيع أن نصلي عليه وندعو اللَّه لكي يؤتيه أجره، ويُرضيه عنا بما شاء سبحانه وتعالى.

«اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَصِيِّ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، عَبْدِكَ وَوَلِيِّكَ، وَأَخِي رَسُولِكَ»، كما في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كذلك في الإمام

عليه السلام، يجب ألَّا يدفعنا تعظيمنا له وحبنا إياه، إلى تأليهه، والغلو فيه، فهو عبد للَّه، وولي من أوليائه الصالحين، وأخو رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم، وحجة اللَّه على خلقه.

«**وَحُجَّتِكَ عَلَى خَلْقِكَ، وَآيَتِكَ الْكُبْرَى**»، في هذه الفقرة تستوقفنا كلمة «**وَآيَتِكَ الْكُبْرَى**»، فكيف يكون الإمام علي عليه السلام الآية الكبرى لرب العالمين؟.

قبل أن نُجيب عن هذا السؤال لا بد أن نشير إلى حقيقة أنّ كل شيء في الكون هو آية للَّه سبحانه وتعالى:

وفي كل شيء آيلة تدلّ على أنه واحد

وتتفاضل آيات اللَّه سبحانه وتعالى، ليس بالنسبة إلى اللَّه، لأن اللَّه عزّ وجل يخلق الكون من دون أن يتعب، أو يمسه لغوب، إنما إذا أراد شيئًا يقول له: ﴿**كُنْ فَيَكُون**﴾، وخلقه لملايين المجرات لا يختلف عن خلقه للبعوضة الصغيرة، وإنما تختلف الآيات بالتفاضل فيما بينها، وبما أعطاها اللَّه سبحانه وتعالى من قدرات.

ومن آيات اللَّه التي نعرفها وهي قريبة منا الملائكة الذين يُعتبرون من أعظم آيات اللَّه سبحانه وتعالى؛ لأن ملائكة اللَّه هم الموكلون بالكون، ففيهم حملة عرش اللَّه، وملائكة السماء، وملائكة الأرض والبحار، والرياح، والجبال، وكل هذه تستجيب لأمر اللَّه عبر ملائكته الموكلين بها، وعندما نقرأ سورة البقرة نجد أنّ اللَّه سبحانه وتعالى أمر جميع ملائكته بالسجود لآدم أبي البشر!. لماذا؟.

لأن آدم عليه السلام هو خليفة اللَّه، وهو مستودَع روح اللَّه سبحانه: ﴿**فَإِذَا**

سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[١].

ذلك الروح يقول عنه ربنا في آية أخرى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾**[٢].

ويقول سبحانه وتعالى عنه أيضًا: **﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾**[٣].

إن هذا الروح الذي نفخ اللَّه منه في آدم عليه السلام هو من أهم خلق اللَّه، يؤيد به اللَّه عباده المكرمين، لذلك أمر اللَّه كل ملائكته فيما بينهم حملة عرشه، والكرّوبيين، وملائكة السماوات والأرض، وملائكة المجرات المختلفة كلها، أن يسجدوا لآدم.. لماذا؟.

لأن آدم عليه السلام فيه الروح!. إذًا، فإن آدم الذي استوعب الروح ونفخ اللَّه فيه من روحه أصبح أفضل كل الخلق.

وإذا كان أفضل الخلق، فهو آية كبرى بالنسبة إلى الآيات الأخرى!. فالسماء والأرض والجبال والمجرّات كلها آيات اللَّه، ولكن آدم آية كبرى؛ لأن السماء والأرض والجبال، والبحار والأنهار، وكل المخلوقات الأخرى مستجيبة للملائكة، والملائكة بدورها سجدت لآدم عليه السلام، وإذا عرفنا أن خاتم النبيين سيدنا ونبينا محمدًا صلى الله عليه وآله وسلم، هو أشرف وأعظم من كل الأنبياء، بل إنه مكمل رسالاتهم، لأنه خاتمهم. لو عرفنا ذلك فلا بد أن نعرف أن وصي خاتم النبيين، والذي هو صنوه ونفسه، حيث يقول ربنا

(١) سورة الحجر، آية: ٢٩.
(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٥.
(٣) سورة القدر، آية: ٣-٥.

سبحانه وتعالى في آية المباهلة: ﴿**وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ**﴾[١]، وقد ورد في أكثر تفاسير المسلمين أنّ المراد بـ﴿**وَأَنْفُسَنَا**﴾، هنا هو الإمام علي عليه السلام، فلا بد أن نعرف أن عليًّا هو أفضل من آدم عليه السلام.

إذًا إذا كانت السماوات مستجيبة للملائكة، والملائكة ساجدة لآدم، وعلي أفضل من آدم عليه السلام، فما هي الآية الكبرى لرب العالمين؟. هل السماوات؟. أم الملائكة؟. أم ذلك الذي تسجد الملائكة له ولأمثاله، أم أنه علي بن أبي طالب عليه السلام، خليفة رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم وخاتم الأنبياء عليهم السلام؟.

وهنا لا بد أن نطرح هذا السؤال: لماذا يُفضّل اللَّه بني آدم على الملائكة، بل على المخلوقات كلها؟.

الجواب: لأن اللَّه حمّل علمه لبني آدم، وحمّل بني آدم شيئًا قد يكون أهم من العلم، وهو الحرية والإرادة التي في قلب بني آدم!.

أما الملائكة فقد جعل اللَّه لهم الروح وأعطاهم الإيمان، والعلم، والفضيلة إلا أنه لم يُعطهم الشهوات!، فالملائكة يعبدون اللَّه دون أن يأخذهم الأرق والنوم والتعب، وعبادتهم للَّه هي من سجيتهم. أما الحيوانات فالأمر بالنسبة لها أوضح؛ لأن اللَّه لم يعطها العقل ولا العلم ولا الإرادة، بل هي كتلة من الغرائز والشهوات، فالحيوانات ليست مفضلة على بني آدم. أما الإنسان فقد أعطاه اللَّه العلم والعقل والإرادة، ثم ركّب عليه الشهوات، فإذا اتّبع هذا الإنسان عقله وعبد اللَّه سبحانه وتعالى، واختار بحريته الكاملة هذا الطريق، كان قريبًا إلى اللَّه ومُكرّمًا عنده؛ لأنه

(١) سورة آل عمران، آية: ٦١.

كان مخيّرًا بين أن يهبط وبين أن يرتفع، ولكنه اختار الارتفاع بفعله. فعظمة الإنسان تنبع من أنه هو الذي يريد، هو الذي يقرّر، أما الملائكة فهي لا تقرّر، باعتبارها هي مخلوقة في هذا الاتجاه، تريد ولكن ليس بصعوبة، وعلي بن أبي طالب عليه السلام يُجسِّد القمة في هذا الارتفاع والسمو بعد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم.

إن عليًّا يحمل جسمه المبارك في غزوة أُحُدٍ «**تِسْعُونَ جِرَاحَةً**»[١]، تحتاج إلى العلاج، ولكنه -وقبل أن يستريح من عناء القتال والجروح- يأتيه منادي رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم يدعوه إلى الحرب من جديد فيتحمّل كل ذلك الأذى والجراح ويتوجّه من جديد إلى ساحة الحرب[٢]. كان بإمكانه أن يأكل مصفّى العسل ولباب القمح، وأن يلبس أفضل الملابس وهو أمير المؤمنين عليه السلام، واللَّه لم يُحرّم عليه ذلك، ولكنه لم يفعل[٣]. كان يقسّم الأموال بين الناس بالسوية[٤]، وكان بإمكانه ألَّا يفعل ذلك.

كان بإمكانه أن ينام الليل، ولكنه في بعض الليالي كان يصلي ألف ركعة[٥]. وكان عليه السلام يُغشى عليه في الليل من كثرة الصلاة، وعبادة اللَّه[٦]. ويذكر لنا التاريخ أنّ الإمام عليًّا عليه السلام كان يأتي إلى المسجد قُبيل الفجر فيصلي بالناس الصبح، ثم يُعقِّب إلى أن تطلع الشمس وتنتشر،

(١) تفسير القمي، ج١، ص١١٦.
(٢) تاريخ الطبري، ج٢، ص٥١٤، و: ٥٢٧.
(٣) الكافي، ج١، ص٤١٠-٤١١.
(٤) الاختصاص، ص١٥٢.
(٥) الكافي، ج٤، ص١٥٤.
(٦) بحار الأنوار، ج٤١، ص١٤٨.

ثم ينتقل من محرابه إلى مكان آخر من المسجد يقضي بين الناس[١]، وإذا اجتمع إليه الفقراء والمساكين يعلمهم الفقه والقرآن، ويحل مشاكلهم[٢]، ثم كان يتركهم ويتحرك في أسواق الكوفة، وقد روى جابر عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: «**كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بِالْكُوفَةِ عِنْدَكُمْ يَغْتَدِي كُلَّ يَوْمٍ بُكْرَةً مِنَ الْقَصْرِ فَيَطُوفُ فِي أَسْوَاقِ الْكُوفَةِ، سُوقًا سُوقًا، وَمَعَهُ الدِّرَّةُ عَلَى عَاتِقِهِ، وَكَانَ لَهَا طَرَفَانِ، وَكَانَتْ تُسَمَّى السَّبِيبَةَ. فَيَقِفُ عَلَى أَهْلِ كُلِّ سُوقٍ، فَيُنَادِي:**

يَا مَعْشَرَ التُّجَّارِ، اتَّقُوا اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعُوا صَوْتَهُ عليه السلام أَلْقَوْا مَا بِأَيْدِيهِمْ، وَأَرْعَوْا إِلَيْهِ بِقُلُوبِهِمْ، وَسَمِعُوا بِآذَانِهِمْ. فَيَقُولُ عليه السلام: قَدِّمُوا الاسْتِخَارَةَ، وَتَبَرَّكُوا بِالسُّهُولَةِ، وَاقْتَرِبُوا مِنَ الْمُبْتَاعِينَ، وَتَزَيَّنُوا بِالْحِلْمِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْيَمِينِ، وَجَانِبُوا الْكَذِبَ، وَتَجَافَوْا عَنِ الظُّلْمِ، وَأَنْصِفُوا الْمَظْلُومِينَ، وَلَا تَقْرَبُوا الرِّبَا، وَأَوْفُوا ﴿الْكَيْلَ وَالْمِيزانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾[٣]، ﴿وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٤]، فَيَطُوفُ عليه السلام فِي جَمِيعِ أَسْوَاقِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ يَرْجِعُ فَيَقْعُدُ لِلنَّاسِ»[٥].

ثم يتمشى في أزقة الكوفة لعله يجد ذا حاجة لم يجد إلى المسجد سبيلًا، لعله يجد فقيرًا أو مسكينًا فيساعده، أو لعله يجد فسادًا فيصلحه. وبعد صلاة الظهرين يأتي إلى بيته ويسأل زوجته: «**عِنْدَكُمْ شَيْءٌ، وَإِلَّا**

(١) بحار الأنوار، ج١٠٠، ص١٦.
(٢) بحار الأنوار، ج٤١، ص١٣٢.
(٣) سورة الأعراف، آية: ٨٥.
(٤) سورة البقرة، آية: ٦٠.
(٥) الكافي، ج٥، ص١٥١.

صُمْتُ؟. فَإِنْ كَانَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ أَتَوْهُ بِهِ، وَإِلَّا صَامَ»[١]. وعندما يصير الليل يصلي صلاة المغرب والعشاء جماعة بالناس، ثم يعود إلى العبادة ليلًا لصلاة الليل ويقضي العبادة إلى الصباح[٢]. فمتى تكون الراحة ومتى يكون النوم؟.

والآن، ألا يُعتبَر هذا الإنسان المثالي آية كبرى من آيات اللَّه؟ إلَّا أنّ عليًّا هو تلميذ تربّى في حجر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول: إنني عبد من عبيد محمد. إذًا فكل حياة علي هي دليل صادق على حقانية الرسالة الإسلامية، ولذلك كان «**وَالنَّبَإِ الْعَظِيمِ**».

ثم كما كان علي عليه السلام آية كبرى في الجهاد، والصبر، والعبادة، والزهد، كذلك هي الزهراء فاطمة بنت محمد عليها السلام، التي تلقَّت أصول الرسالة في بيت أبيها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إنها آية كعلي عليه السلام، ولكن بلون آخر وبصورة أخرى، تزهر الزهراء عليها السلام لأهل السماء، كما تزهر النجوم لأهل الأرض[٣]، كانت تقف في محراب عبادتها، وكان النور يشع من محرابها إلى عنان السماء، كانت تتعبّد وتصلّي لربها من أول الليل حتى الصباح، وكانت تدعو للجيران والمؤمنين والمؤمنات ولشيعتها وللرساليين عبر التاريخ ثم المجاهدين، ثم في الصباح يقول لها ابنها الحسن عليه السلام: «**يَا أُمَّاهْ!؛ لِمَ لَا تَدْعُونَّ لِنَفْسِكِ كَمَا تَدْعُونَّ لِغَيْرِكِ؟**.

(١) تهذيب الأحكام، ج٤، ص١٨٨.
(٢) خصائص الأئمة عليهم السلام (الشريف الرضي)، ص٩٧.
(٣) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٠-١٢.

فَقَالَتْ عليها السلام: **يَا بُنَيَّ، الْجَارَ ثُمَّ الدَّارَ**»[١].

فاطمة الزهراء عليها السلام هي كفء علي[٢]، إلَّا أنها امرأة وعلي عليه السلام رجل. وكل واحد منهما آية كبرى بعد سيد الكائنات محمد رسول اللَّه صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) وسائل الشيعة، ج٧، ص١١٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٤٣، ص١٠.

(10)

حجج اللَّه على العباد

«وَصَلِّ عَلَى الصِّدِّيقَةِ الطَّاهِرَةِ، فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. وَصَلِّ عَلَى سِبْطَيِ الرَّحْمَةِ، وَإِمَامَيِ الْهُدَى، الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَصَلِّ عَلَى أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، وَعَلِيِّ بْنِ مُوسَى، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَالْخَلَفِ الْهَادِي الْمَهْدِيِّ، حُجَجِكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَأُمَنَائِكَ فِي بِلَادِكَ، صَلَاةً كَثِيرَةً دَائِمَةً»

****

من هو الحجة؟. ولماذا؟

إنّ معرفة الإنسان باللَّه، وبالرسالة والرسول ﷺ والأوصياء عليهم السلام، وبالتالي معرفته بيوم البعث والنشور، وكل أصول العقيدة الإسلامية، ليست بدرجة واحدة، وإنما هي ذات درجات متفاوتة وبتأثير مختلف على سلوك الإنسان وعلى أخلاقياته وعلى مدى استقامته أمام الضغوط التي يتعرض لها، ولا يكفي في المعارف الإلهية -أو بتعبير شائع في العقائد الإسلامية- مجرَّد الاقتناع الأولي بأن لهذا الكون إلهًا، كما لا يكفي مجرَّد الاقتناع بوجود الأنبياء عليهم السلام، ووجود نبينا ﷺ، وهكذا الأئمة عليهم السلام،

بل لا بد أن تتحوَّل القناعة إلى معرفة والمعرفة إلى يقين. والأدعية كفيلة -إذا تدبرنا فيها- بأن تُحوّل معارفنا الإلهية إلى يقين منا بها، حتى تنعكس هذه المعارف عمليًّا في سلوكياتنا وفي شخصياتنا وفي مدى استقامتنا.

ولقد غفل أبناء الأمة وبالذات علماؤها وقياداتها عن هذا الدور الهامّ للأدعية المأثورة، لذلك فإن الدعاء لم يلقَ ذلك الاهتمام الدراسي المطلوب.

وهذه الفقرة من دعاء الافتتاح تُذكِّرنا بدور الأئمة عليهم السلام، وذلك عبر الصلاة عليهم وعلى جدهم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ إذ إنّ هذا التركيز على الأئمة من خلال الصلاة عليهم إنما يُعمِّق الصِّلات بين أبناء الأمة وقادتهم وأئمتهم.

ونجد في هذه الفقرة أن الأئمة يوصَفون بـ«**حُجَجِكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَأُمَنَائِكَ فِي بِلَادِكَ**» فما هي الحجة؟. ولماذا اختار اللَّه سبحانه وتعالى للأمة المرحومة أربعة عشر حجة؟. لماذا لم يكتفِ ربنا الحكيم بسيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وإنما اختار لنا بعد الرسول، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حجة، وفاطمة الزهراء عليها السلام حجة، وأحد عشر إمامًا عليهم السلام من نسلهما حججًا من قِبَلِهِ على عباده؟ لماذا؟.

الجواب: تعني (الحجة) أنّ هذا الإنسان يكون (حجة) بينك وبين اللَّه، إذا اتّبعته وأطعته وجعلته مقتداك وهاديك، فإن اللَّه سبحانه وتعالى يتقبّل منك. لا يسألك أكثر من ذلك في يوم القيامة، فإذا اتّبعت علي بن أبي طالب عليه السلام واقتديت بسيرته كاملة دون تحريف، فسوف تكون عند اللَّه من الفائزين؛ لأن علي بن أبي طالب عليه السلام هو نسخة تطبيقية من القرآن

الحكيم من دون زيادة ولا نقيصة، هو القرآن الناطق وصنو القرآن، قال رسول اللَّه ﷺ: «**إِنِّي مُخَلِّفٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، وَإِنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1]. وقال ﷺ: «**عَلِيٌّ مَعَ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ..**»[2].

إذًا فاتِّباع علي عليه السلام والاقتداء بسيرته هو اتِّباع واقتداء بالقرآن الحكيم، فإذا كان علي عليه السلام هو الصورة المجسدة لقيم الرسالة الإلهية إلى هذه الدرجة، فإنه يكون (حجة).

أما السؤال الثاني فهو: لماذا إذًا نحن نحتاج إلى أربعة عشر حجة عليهم السلام؟.

إنما نحتاج إلى هؤلاء الحجج وبالذات الأئمة عليهم السلام، لأن الزمان يختلف، وقد تكون هذه هي حكمة تعدّد الأئمة عليهم السلام، فليست الظروف دائمًا متشابهة، فقد يكون الإسلام حاكمًا في ظرف من الظروف، وقد يكون الكفر هو الحاكم في ظرف آخر، وقد يكون النفاق هو الحاكم في ظرف ثالث.

والإنسان المسلم قد يكون في ظرف من الظروف سجينًا، وقد يكون شهيدًا، وقد يكون حاكمًا، وقد يكون عالمًا، فصفات الإنسان وصفات المجتمع والظروف الاجتماعية وتطورات المجتمع مختلفة ومتفاوتة، هذا من جهة.

ومن جهة ثانية: جعل اللَّه سبحانه وتعالى هذا الدين آخر الأديان،

---

(١) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص١٨٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٢٢، ص٤٧٦.

ورسولنا محمدًا ﷺ خاتم النبيين، ولا يأتي بعد رسولنا نبي، ولا بعد كتابنا كتاب، وقد يطول عمر البشرية لملايين السنين، فإننا لا نعرف متى تقوم الساعة: ﴿**قُلْ إِنَّما عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ..**﴾[1].

إذًا، فإن البشرية تحتاج إلى حجج وأئمة على مختلف الظروف، وفي مختلف الحالات، سواء كأفراد أو كمجتمعات، فمثلًا، نحن بحاجة إلى إمام يُعلّمنا كيف ينبغي أن يحكم الإنسان، يعلمنا ذلك بسيرته لا بكلامه، حتى تكون سيرته لنا حجة نقتدي بها. إننا نحتاج إلى صورة متكاملة للحاكم الإسلامي المثالي، فمن أين نجد هذه الصورة؟.

نجدها في علي بن أبي طالب عليه السلام، فبالرغم من أن النبي ﷺ أيضًا كان حاكمًا، إلّا أنه لم تبرز معالم الحكومة في وقته بقدر ما تجلَّت رسالته.

أما علي بن أبي طالب عليه السلام فقد كان -ولو لفترة قصيرة- حاكمًا بكل معنى الكلمة.

فكيف كانت سيرة علي عليه السلام الحاكم؟.

لنلقِ الضوء على نقطة واحدة من هذه السيرة ثم نقارنها بوضع حكام المسلمين اليوم:

كان الإمام علي عليه السلام خليفة رسول اللَّه ﷺ، وحاكمًا على كل الأمة الإسلامية، وفي الوقت ذاته كان قائدًا للقوات المسلحة، وكان يعيش حالة حرب مع معاوية الذي كان قد تمرّد على الإمام الشرعي، في هذه الظروف التي كانت الأخطار تُحدق بالإمام، وكان خطر الاغتيال قائمًا، باعتبار أن هناك متمردين في صفوف جيشه، بالرغم من كل ذلك، فإن الإمام عليًّا

(١) سورة الأعراف، آية: ١٨٧.

يخرج من بيته وحده إلى المسجد لأداء صلاة الفجر، وأول ما يفعله في المسجد هو الأذان، فمن هو الحاكم الإسلامي اليوم الذي يتصرّف بهذه الطريقة؟.

إن عليًّا عليه السلام حاكم إلهي، والحاكم الإلهي هو داعٍ إلى اللَّه سبحانه وتعالى، والأذان دعوة إلى اللَّه، لذلك ترى عليًّا عليه السلام يقف في مسجد الكوفة ويُؤذِّن أذان الصبح ويُوقظ المسلمين للصلاة.

أما في الليل فيخرج الإمام إلى أطراف الكوفة يفتش عن المكروبين والمستضعفين وأصحاب المآسي، لكي يحل لهم مشاكلهم. وأما حياته الشخصية فإنه يذهب إلى السوق ويشتري ما يحتاج إليه، ويحمل متاعه بنفسه إلى بيته، وحينما يعترضه أحد المؤمنين ويحاول أن يحمل عنه المتاع يرد عليه الإمام عليه السلام بأنه هو الذي يحمل أثقاله يوم القيامة ولا أحد غيره.

هذه هي سمات الحاكم الإسلامي يجسدها الإمام علي عليه السلام ويتحوّل بذلك إلى (حجة) علينا؛ إذ إنه لا يخاف في اللَّه لومة لائم.

رُويَ عن الإمام الصادق، أنه قال عليه السلام: «**بَعَثَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، إِلَى بِشْرِ بْنِ عُطَارِدٍ التَّمِيمِيِّ فِي كَلَامٍ بَلَغَهُ، فَمَرَّ بِهِ رَسُولُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فِي بَنِي أَسَدٍ، وَأَخَذَهُ فَقَامَ إِلَيْهِ نُعَيْمُ بْنُ دَجَاجَةَ الْأَسَدِيُّ فَأَفْلَتَهُ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام فَأَتَوْهُ بِهِ، وَأَمَرَ بِهِ أَنْ يُضْرَبَ، فَقَالَ لَهُ نُعَيْمٌ: أَمَا وَاللَّهِ؛ إِنَّ الْمُقَامَ مَعَكَ لَذُلٌّ، وَإِنَّ فِرَاقَكَ لَكُفْرٌ. قَالَ: فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ، قَالَ عليه السلام لَهُ: يَا نُعَيْمُ؛ قَدْ عَفَوْنَا عَنْكَ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ..﴾[1]. أَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْمُقَامَ مَعَكَ لَذُلٌّ فَسَيِّئَةٌ اكْتَسَبْتَهَا. وَأَمَّا قَوْلُكَ:**

(١) سورة المؤمنون، آية: ٩٦.

إِنَّ فِرَاقَكَ لَكُفْرٌ فَحَسَنَةٌ اكْتَسَبْتَهَا. فَهَذِهِ بِهَذِهِ. ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُخَلَّى عَنْهُ»[١].

إذًا فالإمام علي عليه السلام هو مثال حي للحاكم الإسلامي. ونحن نحتاج إلى مثالٍ يقتدي به السجين المسلم، فنجده في الإمام موسى بن جعفر عليه السلام، فالكثير منا قد يتعرّض لسجون الطغاة، وقد يتأفف في البداية على دخوله السجن، إذ إنه سيخسر عمره، ولا يكون قادرًا على الإنتاج والعطاء، إلَّا أنه حينما يقتدي بالإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي قضى ردحًا طويلًا في سجون الطغاة، نجد أنّ الإمام عليه السلام يشكر اللَّه على أنه وفَّر له فرصة لعبادته[٢]، وهكذا يستغل فترات السجن في عبادة اللَّه وصقل شخصيته الإيمانية عبر هذا الطريق.

ونحن نحتاج إلى من يقدّم دمه في سبيل اللَّه، فنقتدي في ذلك بالإمام الحسين عليه السلام. ونحتاج إلى فقيه يربي العلماء والمفكرين، ويوجّه الأمة إلى تفاصيل الشريعة الإسلامية، فنقتدي بالإمام الباقر، والإمام الصادق عليهما السلام، ونحتاج إلى من يمثّل دور الشخصية الثانية في الدولة الإسلامية، فنقتدي بالإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، وهكذا نجد أننا نحتاج في ظروف حياتنا المختلفة إلى أئمة نقتدي بسيرتهم وهداهم. ولأن الظروف مختلفة، والأشخاص مختلفون، فإننا نحتاج إلى أئمة لمختلف الظروف، ولا شك في أنّ الأئمة عليهم السلام ليسوا لنا فقط، بل هم لكل الأجيال القادمة، فالإسلام سوف ينتشر ويعمّ الأرض كلها، وسوف تواجه الأمة قضايا جديدة ودقيقة، وسوف تطرح على الساحة مشاكل حضارية عميقة، حينئذٍ يتجلّى بعض دور الأئمة عليهم السلام.

---

(١) الكافي، ج٧، ص٢٦٨.

(٢) الإرشاد، ج٢، ص٢٤٠.

إذًا فالأئمة عليهم السلام هم حجج اللَّه على العباد، أي إنهم قدوات يجب أن تهتدي الأمة بهداهم، وأن تقتفي مسيرتهم حسب اختلاف الظروف والأزمنة.

وهنا لا بد أن نُشير إلى أنّ العنصر النسوي يُشكِّل نصف المجتمع البشري، وهو بحاجة إلى حجة يقتدي بسيرتها في مختلف الظروف، فبالرغم من أن المرأة تقتدي بسيرة الأئمة عليهم السلام، في الظروف والقضايا المشتركة بين الرجال والنساء، إلَّا أنها تحتاج إلى قدوة نسائية للظروف والقضايا الخاصة بالمرأة، لذلك فقد جعل اللَّه تعالى للأمة الإسلامية حجة نسائية متمثلة في شخصية فاطمة الزهراء عليها السلام.

من هنا يتّضح دور (الحجة) في حياة الأمة، والسر في تعدّد (حجج اللَّه على عباده) وهم الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وابنته الزهراء عليها السلام، والأئمة الاثنا عشر عليهم السلام، لذلك نجد أنّ هذه الفقرة من الدعاء تأتي بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والإمام أمير المؤمنين عليه السلام، لتُذكِّر المسلمين بالحجج والقدوات عبر الصلاة عليهم: «**وَصَلِّ عَلَى الصِّدِّيقَةِ الطَّاهِرَةِ، فَاطِمَةَ سَيِّدَةِ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ. وَصَلِّ عَلَى سِبْطَيِ الرَّحْمَةِ، وَإِمَامَيِ الْهُدَى، الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ، سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَصَلِّ عَلَى أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ: عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ، وَعَلِيِّ بْنِ مُوسَى، وَمُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَالْخَلَفِ الْهَادِي الْمَهْدِيِّ، حُجَجِكَ عَلَى عِبَادِكَ، وَأُمَنَائِكَ فِي بِلَادِكَ، صَلَاةً كَثِيرَةً دَائِمَةً**».

(11)

دور الإمام المنتظر عليه السلام

«اللَّهُمَّ؛ وَصَلِّ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِكَ، الْقَائِمِ الْمُؤَمَّلِ، وَالْعَدْلِ الْمُنْتَظَرِ، وَحُفَّهُ بِمَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ الدَّاعِيَ إِلَى كِتَابِكَ، وَالْقَائِمَ بِدِينِكَ، اسْتَخْلِفْهُ فِي الْأَرْضِ، كَمَا اسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ، مَكِّنْ لَهُ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لَهُ، أَبْدِلْهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِ أَمْنًا، يَعْبُدُكَ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا. اللَّهُمَّ أَعِزَّهُ وَأَعْزِزْ بِهِ، وَانْصُرْهُ وَانْتَصِرْ بِهِ، وَانْصُرْهُ نَصْرًا عَزِيزًا، وَافْتَحْ لَهُ فَتْحًا يَسِيرًا، وَاجْعَلْ لَهُ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا.

اللَّهُمَّ أَظْهِرْ بِهِ دِينَكَ، وَسُنَّةَ نَبِيِّكَ، حَتَّى لَا يَسْتَخْفِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ، مَخَافَةَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ، تُعِزُّ بِهَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ إِلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. اللَّهُمَّ مَا عَرَّفْتَنَا مِنَ الْحَقِّ فَحَمِّلْنَاهُ، وَمَا قَصُرْنَا عَنْهُ فَبَلِّغْنَاهُ».

* * * *

ما هو دور الإمام الحجة؟

أنْ يكون للإنسان قائد إلهي يرتبط به قلبيًّا ونفسيًّا وعقليًّا وخطيًّا، إنّ ذلك ليعتبر وسيلة لتكامل الإنسان كفرد أو كمجتمع، وتوجهه المستمر

نحو النموذج السماوي المرسوم والمعين له، وهذا بعضٌ من فلسفة إيماننا نحن بالإمام المهدي عليه السلام الذي نؤمن به إمامًا شاهدًا علينا وقريبًا منا، ومطَّلِعًا ورقيبًا على أعمالنا، ويتجلّى هذا الإيمان في ليلة القدر حيث تنزل الملائكة والروح بمقادير العباد: ﴿**تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ**﴾[1].

في هذه الليلة المباركة تنزل الملائكة بتقديرات حكيمة: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾.

إنّ كل التطورات التي يجب أن تحدث خلال العام الواحد تُقدَّر من قبل اللَّه تعالى في ليلة القدر. إنّ صحة الإنسان ومرضه، وفقره وغناه، وكرامته بين الناس أو ذلّته، وكذلك تقدّم الأمة وتخلّفها، حضارتها أو جاهليتها.. كل هذه المقادير تُرسَم وتُحدَّد في ليلة القدر: ﴿**فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا**﴾[2].

ولكن السؤال هو: على من تتنزل الملائكة بمقادير الحياة والعباد؟.

في الجواب نقول: إنّ من تكريم اللَّه لبني آدم هو أن جعل من أنفسهم حججًا للَّه على الخلق تتنزل عليهم الملائكة، ففي كل عصور التاريخ ومنذ آدم عليه السلام حتى هذا اليوم فإن الملائكة تنزل في ليلة القدر على (بشر)، ففي عهد آدم عليه السلام كانت تنزل على آدم، ثم بعده على شيث، وبعده على إدريس، وبعده على إبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ثم بعد الرسول على أوصيائه الأئمة المعصومين عليهم السلام، الواحد

(١) سورة القدر، آية: ٤.
(٢) سورة الدخان، آية: ٤-٥.

بعد الآخر، أمّا الآن فإنها تتنزل على الإمام المهدي المنتظر عليه السلام، لأنه حجة اللَّه على عباده.

والدعاء حينما يصلّي على الإمام الحجة إنما لكي يعمّق العلاقة بين المؤمنين وبين حجة اللَّه: «**اللَّهُمَّ وَصَلِّ عَلَى وَلِيِّ أَمْرِكَ، الْقَائِمِ[1] الْمُؤَمَّلِ، وَالْعَدْلِ الْمُنْتَظَرِ، وَحُفَّهُ بِمَلَائِكَتِكَ الْمُقَرَّبِينَ، وَأَيِّدْهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ**».

وروح القدس هنا قد يعني الروح التي تتنزل في ليلة القدر، وهو الذي أيَّد اللَّه به عباده المؤمنين، والأنبياء والأوصياء وهو الذي قال عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾[2].

يقول الدعاء: «**وَلِيِّ أَمْرِكَ، الْقَائِمِ الْمُؤَمَّلِ..**»، فالإمام الحجة عليه السلام يقوم بالأمر.. والقرآن يقول: ﴿**فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ * أَمْرًا مِنْ عِنْدِنا**﴾، ولكن ماذا يعني (الأمر) هنا؟.

إن للَّه تعالى قضاءً وقدرًا، وإنّ له أمرًا وسنةً، وسنن اللَّه تعالى هي القوانين التي وضعها للكون، ثابتة لا تتغير، ولكن أمر اللَّه فوق قوانين الكون، والإمام الحجة عليه السلام هو مكلّف من قبل اللَّه وبإذن اللَّه وبتفويض من اللَّه، وبقدرة اللَّه وباسم اللَّه، أن يكون له الأمر[3].

---

(١) جرت العادة عندنا أن نقف منتصبين حينما يُذكر اسم (القائم) فماذا تعني؟.
إن هذا القيام يرمز إلى استعدادنا للمعركة التي لا بد أن يخوضها الحق ضد الباطل تحت قيادة الإمام الحجة، وهو يعني أيضًا أننا نتمنّى أن نكون من جنود الإمام ومن المجاهدين تحت لوائه.

(٢) سورة الإسراء، آية: ٨٥.

(٣) أشرنا في بداية الحديث إلى أن ارتباطنا بالإمام هو ارتباط خطي، أي إننا يجب أن نرتبط بخط الإمام المستقيم، فماذا يعني؟. نحن لا نعتبر الفقيه الذي هو ولي الأمر، لا نعتبره

الأهداف الحقيقية للإنسان:

لكل إنسان في هذه الدنيا أهداف يبذل من أجل تحقيقها مساعيه الجادة، وهدف الإنسان -سواء كان شريفًا أم وضيعًا، سليمًا أم سقيمًا- هو الذي يحدّد مسار حياته ومساعيه التي يبذلها، فمن كان هدفه الوصول إلى نقطة معينة، فإن كل حركته وكل جهده سوف ينصب باتّجاه تلك النقطة.

أما إذا كان هدفه هو الوصول إلى نقطة تقابل تلك النقطة في الاتجاه، فإن الحركات والتوجهات والجهود هي الأخرى سوف تتوجّه إلى تلك النقطة، وليس سواءً التحرك شمالًا أو جنوبًا، شرقًا أو غربًا. كذلك هدف الإنسان هو الذي يحدّد مسار حياته. ولكن مشكلة الإنسان أنه لا يعرف بالضبط ما هو الهدف السليم الذي ينبغي السعي إليه، أو بتعبير أفضل: إنّ مشكلة الإنسان، أنه ليس هو الذي يحدّد هدفه في الحياة!. إنما الآخرون هم الذين يُملون عليه أهدافًا ليست من أهدافه الحقيقية، وأنه بعد فترة ليست بالقصيرة يكتشف زيف تلك الأهداف، وأن كل مساعيه وحركاته إنما كانت باتّجاه نقطة خاطئة، وبذلك فهو لم يخدم نفسه إنما خدم الآخرين أو خدم الشيطان: ﴿**قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ**

قائدًا بالـذات، إنما نعتبر قيادته منبعثة من نيابته العامـة للإمام الحجة عليه السلام. إذًا فنحن فـي كل قضية نبحث عن رأي الإمام الحجة، عن موقفه، بل حتى الفقيه الولي هو الآخر يبحث عن رأي الإمام الصائب لكي يبني فتواه، ومواقفه على ذلك الأساس؛ لأنه يعتمد شـرعية قيادته من مدى التزامـه بخط الإمام الحجة، ولذلك فإننـا نظل ملتزمين بقيادة الفقيه الولي ما دام هو يلتزم السـير على الصراط المسـتقيم، أما إذا انحرف -لا سمح اللّـه- فإن ارتباطنا ينقطع فورًا؛ إذ إن ارتباطنـا الحقيقي هو بخط الإمام الحجة عليه السلام، وبقدر ما يمثل الفقيه هذا الخط ويجسده، فإننا نلتزم به، وإلّا فلا.

الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾[1].

إن الذين ينقادون لأبواق الإعلام الغربية أو الشرقية، ويتّبعون ما تقوله أجهزة الدعاية الحكومية لهم، سوف يكتشفون أنّ هذه الأجهزة لم تكن أمينة معهم، إذ جعلتهم في وضع استهدفوا غايات لم تكن في مصلحتهم، مثلًا إنّ الكثير من الذين يغرِّر بهم الطغاة والارهابيون ويسوقونهم الى مقاتلة المسلمين هنا وهناك يكتشفون بعد الموت أو قبله، أن العملية كانت خدعة كبرى تعرّضوا لها!. وأنهم تحركوا وبذلوا جهودهم ودماءهم، ولكن ليس في سبيل خيرهم وما ينفعهم، وإنما في سبيل أهواء حاكم طاغية.

إذًا، فالمشكلة الأولى للإنسان هي أنّ أهدافه لا تكون -في الغالب- أهدافًا حقيقية، أما المشكلة الأخرى فهي أن أهداف الإنسان قد لا تكون منسجمة مع فطرته، وطاقاته.

فالكثير منا يلخّص كل حياته في قوالب ضيقة، وأهداف محدودة جدًّا؛ لأنه لا يعرف نفسه، ولا يعرف حجم ما أودعه اللَّه من طاقات. لقد خلقه اللَّه لكي يصبح سيد الطبيعة وسيد الكون وملكًا في الجنة تخدمه الملائكة!. ولكن النظرة الضيقة إلى الذات، تجعل الإنسان ينتخب لنفسه هدفًا ضيقًا يسعى بكل ما يملك من مساعي في سبيل الوصول إليه، وهذا هو الآخر يخسر نفسه.

ومن الناس من تكون أهدافه وتطلعاته عالية، إلّا أنها تكون شخصية، فكل هدفه -مثلًا- أن يُصبح ثريًّا!. ويمتلك الأموال والعقارات، أو يكسب شهرة واسعة، أو أن يصبح سلطانًا، ثم ماذا؟. ماذا بالنسبة للآخرين؟. لا

(١) سورة الكهف، آية: ١٠٣-١٠٤.

شيء!. وحينما يكون هدف الإنسان شخصيًّا فإن هذا الهدف سوف يتعارض ويصطدم بأهداف الآخرين!. وبالتالي يُؤدّي إلى نشوب صراع اجتماعي يكون البقاء فيه للأقوى.

والأدعية المأثورة تحاول -من خلال معانيها الحميدة- تصحيح هدف الإنسان ومسيرته في الحياة، وذلك عبر ترسيخ القناعات التالية في الإنسان:

أولًا: إنّ عليك أن تُحدّد لنفسك هدفًا.

ثانيًا: أن تكون أنت الذي ترسم هذا الهدف لنفسك وليس الآخرون هم الذين يُملونه عليك.

ثالثًا: إن هذا الهدف يجب أن يكون هدفًا عاليًا وليس دانيًا.

رابعًا: أن يكون هدفًا مشتركًا بينك وبين الآخرين ولا يكون هدفًا ذاتيًّا، فبدل أن تُرهق نفسك لكي تصبح سلطانًا الأفضل أن تعمل أنت والمجموعة التي تعرفها، أنت والمجتمع الذي تعيش فيه، تعملون معًا من أجل سلطان عادل؟. فحينما يكون هناك سلطان عادل، فإن خيره سوف يكون عميمًا. وبدل أن تسعى من أجل اكتساب الثروة التي قد تأتي عن طريق يسبب تخلّف الأمة وانتشار الفقر، وترسيخ تبعية الأمة للأجنبي، بدل ذلك اسعوا جميعًا في بناء حضارة ينعم الجميع بخيراتها، اعملوا من أجل أن تكون بلادكم بلادًا متقدمة صناعيًّا لكي يستفيد الكل منها، وبدل أن تعمل من أجل أن تعيش أنت وحدك في حياة مرفهة، حاول أن تنشر الأخلاق الفاضلة في المجتمع، فإذا انتشرت الأخلاق الفاضلة فإن الجميع سوف يعيشون حياة جيدة، في اطمئنان وسكينة.

إذًا، فإن من أهداف الدعاء هو تصحيح مسار الإنسان وأهدافه العظمى،

وحينما يرسم الإنسان لنفسه تلك الأهداف العظمى فإنه ينسجم مع الآخرين، أولًا، ثم إنه يبذل قصارى جهده من أجل تحقيق تلك الأهداف.

فحينما يكون هدف الإنسان هدفًا ذاتيًّا، كأن يصبح ثريًّا، فإنه سوف يتكاسل ويتقاعس عن العمل لأنه لا يشعر بشخصيته الحقيقية.

أما حينما يكون الهدف إقامة حكم اللَّه في الأرض، فإن الإنسان يبذل كل جهوده من أجل تحقيق الهدف، ومهما طال المسير فإنه يزداد عزمًا وإصرارًا، لذلك فإنه يفجّر كل طاقاته، فيكون بذلك الإنسان المتكامل، الإنسان اللا منتهي، الإنسان اللا محدود، لأنه يعرف أنه حتى لو بلغ الثمانين من العمر فإن أمامه أهدافًا لا بد أن يحقّقها، فيكون نشيطًا على الدوام، حتى لو كان شيخًا كبيرًا، إذ إنه يملك طاقة نفسية هائلة، لذلك نرى رجلًا كسليمان بن صرد الخزاعي رضي الله عنه، يقود معركة فدائية وقد جاوز عمره التسعين سنة دون أن يرهقه الشيب!. والسبب لأنه يمتلك شعلة الهدف العالي في ضميره، فتدفعه نحو تفجير طاقاته.

وفي نهاية دعاء الافتتاح نقرأ ما يرسم لنا أهدافنا الحقيقية في الحياة وتطلّعاتنا، ويتمحور الدعاء حول مولانا وإمامنا الحجة بن الحسن المهدي عجل اللَّه تعالى فرجه وجعلنا من أنصاره وأعوانه: «**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ الدَّاعِيَ إِلَى كِتَابِكَ، وَالْقَائِمَ بِدِينِكَ، اسْتَخْلِفْهُ فِي الْأَرْضِ، كَمَا اسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ، مَكِّنْ لَهُ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لَهُ، أَبْدِلْهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِ أَمْنًا، يَعْبُدُكَ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا**».

وهنا يجب أن نشير إلى عدة ملاحظات:

أولًا: إذا دعوتَ أنت وأنا، وكل المؤمنين، فإن اللَّه سبحانه وتعالى قد

يُجيب دعواتنا، فنحن لنا أثر بقدر معين في مسيرة هذا الكون وفي مستقبله.

فباستطاعة الواحد منا أن يعمل من أجل قرب فرج الإمام الحجة عليه السلام، وذلك عبر الدعاء بروح الأمل، وليس بروح اليأس والقنوط.

ثانيًا: الدعاء يتضمن في الوقت نفسه نوعًا من التطلّع، أي إنّ على الإنسان أن يجعل في برامج حياته: العمل المستمر من أجل الوصول إلى هذا الهدف، من أجل تهيئة الوسائل وتمهيد الطرق لظهور الإمام الحجة بن الحسن العسكري عجل اللَّه تعالى فرجه. فالدعاء في الحقيقة هو تعبير عن برنامج تطلعات المؤمن وأهدافه.

ثالثًا: حينما يدعو الإنسان لإمامه المنتظر، فإنه بذلك يُؤدِّي جزءًا من حقه عليه. كما يُؤدِّي ذلك إلى ترسيخ علاقة الاقتداء والتبعية بالإمام.

«**اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ الدَّاعِيَ إِلَى كِتَابِكَ، وَالْقَائِمَ بِدِينِكَ، اسْتَخْلِفْهُ فِي الْأَرْضِ، كَمَا اسْتَخْلَفْتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِ، مَكِّنْ لَهُ دِينَهُ الَّذِي ارْتَضَيْتَهُ لَهُ**».

هذا الدين هو دين الإسلام ولكنه الإسلام الكامل، الإسلام غير المشوَّه وغير المزيَّف، والذي يعمل الإمام الحجة على نشره في أرجاء الأرض، وتمكينه من قلوب البشرية.

«**أَبْدِلْهُ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِ أَمْنًا، يَعْبُدُكَ لَا يُشْرِكُ بِكَ شَيْئًا**»، فالإمام الحجة عليه السلام هو في حالة خوف ووجل على مصير هذا الدين.

وهو يترقّب لمئات السنين لحظة الظهور التي يأذن بها اللَّه تعالى، فهو يعيش حالة الهجرة الدائمة بانتظار اللحظة الموعودة، وكذلك الإنسان المؤمن يجب أن يتحمّل الصعاب والمشاكل ريثما يحقق أهدافه وتطلعاته.

«اللَّهُمَّ أَعِزَّهُ وَأَعْزِزْ بِهِ، وَانْصُرْهُ وَانْتَصِرْ بِهِ، وَانْصُرْهُ نَصْرًا عَزِيزًا، وَافْتَحْ لَهُ فَتْحًا يَسِيرًا، وَاجْعَلْ لَهُ مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا».

إننا نقرأ في القرآن: ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا**﴾[1].

فنحن نطلب من اللَّه أن يجعل لنا سلطانًا ويجعل لنا قوة، ولكن ليست قوة ذاتية، وإنما قوة إلهية، بعيدة عن الشهوات والأهواء وتراكمات السلبيات في المجتمع، وهكذا نطلب من اللَّه في هذا الدعاء أن يجعل للإمام الحجة عليه السلام سلطانًا نصيرًا.

«اللَّهُمَّ أَظْهِرْ بِهِ دِينَكَ، وَسُنَّةَ نَبِيِّكَ، حَتَّى لَا يَسْتَخْفِيَ بِشَيْءٍ مِنَ الْحَقِّ، مَخَافَةَ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ».

إننا نتجرّع الآلام حينما نرى أنّ سنن رسول اللَّه قد مُحيت، وأنّ معالم الرسالة قد دُرِست، وأنّ أحكام اللَّه تُخالَف جهرًا في كل البلاد الإسلامية، وفي كثير من الأوقات نضطر إلى السكوت تقية، إلّا أننا هنا نسأل اللَّه سبحانه وتعالى أن يُظهر الإمام الحجة عليه السلام حتى لا تكون هناك تقية، حتى يكون الإسلام هو السائد.

ثم يبدأ الدعاء برسم خريطة الأهداف الحقيقية للإنسان في الحياة، فالهدف ليس هو امتلاك العقار، والزوجة والأولاد، والتمتُّع بهذه الأمور، إنما الهدف الأساسي هو أن يكون للإنسان دور فعّال وبنّاء في تصحيح مسيرة الحياة: **«اللَّهُمَّ إِنَّا نَرْغَبُ إِلَيْكَ فِي دَوْلَةٍ كَرِيمَةٍ، تُعِزُّ بِهَا الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ، وَتُذِلُّ بِهَا النِّفَاقَ وَأَهْلَهُ، وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ**

(١) سورة الإسراء، آية: ٨٠.

إِلَى سَبِيلِكَ، وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

إذًا، فالهدف الأول هو: إقامة حكومة إسلامية حقيقية، ليس حكومة إسلامية منافقة تطبق إسلامًا مزيفًا ينسجم مع مشتهيات الغرب أو الشرق.

والهدف الثاني هو: أن يكون للإنسان في هذه الحكومة الدور الطليعي، فلا ننتظر أن يأتي غيرنا لبناء الدولة الإسلامية. إنما نحن الذين نبني، نحن الذين نقوم بهذا الدور الطليعي: «**وَتَجْعَلُنَا فِيهَا مِنَ الدُّعَاةِ إِلَى طَاعَتِكَ، وَالْقَادَةِ إِلَى سَبِيلِكَ**»، يكون لنا دور طليعي قولًا وعملًا، فالدعوة إلى طاعة اللَّه، هو الدور الطليعي قولًا، أما القيادة إلى سبيله، فيعني الدور الطليعي عمليًّا وميدانيًّا.

«**وَتَرْزُقُنَا بِهَا كَرَامَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»، هذا هو هدف الدولة الإسلامية، والكرامة تعني الاستقلال والخير والفضيلة، فالهدف الأسمى للدولة الإسلامية ليس الوصول إلى تقدّم مادي حتى ولو كان هذا التقدّم على حساب الاستقلال، أو على حساب الفضيلة، أو على حساب الإحسان إلى الناس. ولنضرب مثلًا بالأمريكيين الذين تقدّموا حضاريًّا، ولكن على حساب الشعوب، على حساب الفضيلة، و(إسرائيل) أيضًا متقدمة حضاريًّا ولكن على حساب استقلالها؛ باعتبارها دولة ذليلة مرتبطة بالغرب. أما الدولة الإسلامية فإنها تنشد التقدّم ولكن إلى جانب الاستقلال، تريد الاستقلال ولكن إلى جانبه الفضيلة.

«**اللَّهُمَّ مَا عَرَّفْتَنَا مِنَ الْحَقِّ فَحَمِّلْنَاهُ، وَمَا قَصُرْنَا عَنْهُ فَبَلِّغْنَاهُ**».

ولكن كيف نصل إلى الهدف المقدس؟

عبر وسيلتين:

الوسيلة الأولى: «**اللَّهُمَّ مَا عَرَّفْتَنَا مِنَ الْحَقِّ فَحَمِّلْنَاهُ**»، نتحمّل مسؤولية مقدار ما نعرفه من الحقائق، فإذا كنتُ أعرف أن الجهاد واجب، فعليّ أن اتحمّل مسؤوليته.

الوسيلة الثانية: «**وَمَا قَصُرْنَا عَنْهُ فَبَلِّغْنَاهُ**»، فإذا كنتُ أشعر بنقص في معلوماتي وثقافتي الدينية، كان عليّ أن أسعى لكي أسد هذا النقص، فبمقدار ما يعرف الإنسان من دينه عليه أن يُطبِّق، والمقدار الذي لا يعرفه عليه أن يبحث عنه حتى يعرفه.

(12)

أسس الدولة الإسلامية

«اللَّهُمَّ المُمْ بِهِ شَعَثَنَا، وَاشْعَبْ بِهِ صَدْعَنَا، وَارْتُقْ بِهِ فَتْقَنَا، وَكَثِّرْ بِهِ قِلَّتَنَا، وَأَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنَا، وَأَغْنِ بِهِ عَائِلَنَا، وَاقْضِ بِهِ عَنْ مُغْرَمِنَا، وَاجْبُرْ بِهِ فَقْرَنَا، وَسُدَّ بِهِ خَلَّتَنَا، وَيَسِّرْ بِهِ عُسْرَنَا، وَبَيِّضْ بِهِ وُجُوهَنَا، وَفُكَّ بِهِ أَسْرَنَا، وَأَنْجِحْ بِهِ طَلِبَتَنَا، وَأَنْجِزْ بِهِ مَوَاعِيدَنَا، وَاسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنَا، وَأَعْطِنَا بِهِ سُؤْلَنَا، وَبَلِّغْنَا بِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ آمَالَنَا، وَأَعْطِنَا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنَا، يَا خَيْرَ الْمَسْؤُولِينَ، وَأَوْسَعَ الْمُعْطِينَ، اشْفِ بِهِ صُدُورَنَا، وَأَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلُوبِنَا، وَاهْدِنَا بِهِ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ، وَانْصُرْنَا بِهِ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنَا، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَغَيْبَةَ وَلِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَقِلَّةَ عَدَدِنَا، وَشِدَّةَ الْفِتَنِ بِنَا، وَتَظَاهُرَ الزَّمَانِ عَلَيْنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِنَّا عَلَى ذَلِكَ، بِفَتْحٍ مِنْكَ تُعَجِّلُهُ، وَبِضُرٍّ تَكْشِفُهُ، وَنَصْرٍ تُعِزُّهُ، وَسُلْطَانِ حَقٍّ تُظْهِرُهُ، وَرَحْمَةٍ مِنْكَ تُجَلِّلُنَاهَا، وَعَافِيَةٍ مِنْكَ تُلْبِسُنَاهَا، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

الدولة الإسلامية الحقّة هي التي تقوم على أسس إلهية، وأبرز هذه الأسس هو تمحور الدولة حول قيادة ربانية، ولذلك فهي تعطي للمجتمع

الإنساني النتائج التي ذُكِرت في نهاية دعاء الافتتاح، وهذه النتائج هي في الوقت ذاته تطلّعات ينبغي على كل مؤمن أن يسعى من أجل تحقيقها بكل ما يملك من إمكانات.

إن الأدعية المأثورة تنعكس في ضمير الإنسان الذي يدعو بها في صورة تطلّعات وبرامج عملية يندفع لتحقيقها في الواقع الخارجي، فحينما ترفع يدك -في شهر رمضان- ضارعًا إلى اللّه، وتقول:

«اللَّهُمَّ أَدْخِلْ عَلَى أَهْلِ الْقُبُورِ السُّرُورَ، اللَّهُمَّ أَغْنِ كُلَّ فَقِيرٍ، اللَّهُمَّ أَشْبِعْ كُلَّ جَائِعٍ، اللَّهُمَّ اكْسُ كُلَّ عُرْيَانٍ، اللَّهُمَّ أَصْلِحْ كُلَّ فَاسِدٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ غَيِّرْ سُوءَ حَالِنَا بِحُسْنِ...».

حينما تدعو اللّه سبحانه وتعالى بهذه الدعوات، فإن ذلك لا يعني فقط أنك تحرّك لسانك بهذه العبارات، أو تتمنى تحقيق هذه الأمور، وإنما يعني أيضًا أن تجعل هذه الأمور برنامج حياتك، فتسعى من أجل أن تُدخل السرور إلى قبور الموتى وذلك بمزيد الطاعة التي نبعث بثوابها إليهم، وبمزيد من الانسجام والتعاون فيما إذا كان الشهيد أو الراحل رجلًا يتطلّع إلى الانسجام كما لو كان قائدًا وإمامًا.

وحينما تقول: «**اللَّهُمَّ أَشْبِعْ كُلَّ جَائِعٍ**»، فإنك تسعى من أجل سد جوعة الناس الجائعين، وكذلك حينما تقول: «**اللَّهُمَّ أَصْلِحْ كُلَّ فَاسِدٍ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ**»، فإنك يجب أن تسعى بإصلاحٍ بين الناس بصورة منتظمة.

إذًا فإن الأدعية كما هي نداءات استغاثة من العبد المسكين، من المخلوق الضعيف إلى الخالق القوى لكي يستجيب له ويحقّق ذلك بصورة غيبية، فهي أيضًا برامج عملية يجب أن يطبقها الإنسان ويسعى من أجل تحقيقها.

ثم من جهة أخرى قد تعيش بعض المجتمعات البشرية في أوحال التخلّف والظلم، والاستضعاف إلى درجة تفقد معها حتى مجرد الطموح والأمل، ومجرد الأُمنيَّة والحلم في أن تصل إلى مستوى متقدّم من العيش والحياة.

مثلًا المجتمعات التي تعيش في بعض بلاد آسيا النائية، أو في بعض مناطق أفريقيا، أو مناطق أميركا اللاتينية، هذه المجتمعات المستضعفة لا تفكر في أن تمتلك في يوم من الأيام قنبلة نووية أو أن تحصل استقلالًا كاملًا في مواجهة الشرق والغرب، فمن أجل إعادة الإنسان إلى إنسانيته، وتذكيره بأنك أيها الإنسان تستطيع أن تبني حياة رفيعة، وأن هذه الحياة التي تعيشها هي حياة متخلفة لا بد أن ترفضها، لا بد أن تغيّرها، لا بد أن تتحدى الظروف التي جعلتك تعيش هذه الحياة سواءً كشخص تصارع الطبيعة، أو كمجتمع تصارع سائر المجتمعات من أجل الحصول على حياة حرة.. من أجل تذكير الإنسان بهذه الحقيقة نحن بحاجة إلى الأدعية التي تقول لنا: إذا أصبحت حياتكم صعبة، وظروفكم معقدة، وأوضاعكم شاذة، وإذا أدبرت الدنيا عنكم، فلا يعني ذلك أنكم فعلًا أصبحتم لا تستحقون التقدّم، ولا تستحقون الكرامة، ولا يعني أن ترضوا بهذه الحالة. بالعكس، عليكم دائمًا أن تسألوا اللَّه أن يمنحكم حياة أفضل، وهذا السؤال والدعاء يجعلكم تؤمنون بأن حالة أفضل من هذا الواقع ممكنة، فتسعون من أجل الوصول إليها، وهكذا لا تنطفئ فيكم جذوة الأمل، ولا تموت في أنفسكم روح التقدّم. ونحن نقرأ الفقرة الأخيرة من دعاء الافتتاح ضمن هذا الإطار ونقول:

«**اللَّهُمَّ المُمْ بِهِ شَعَثَنَا**»، والشعث يعني: التناثر والتشرذم والتشتت الذي

يمزق المجتمع بعضه عن البعض الآخر. «**اللَّهُمَّ المُمْ بِهِ**» هذا التشرذم والتشتت حتى تصبح أمتنا أمة واحدة.

«**وَاشْعَبْ بِهِ صَدْعَنَا**»، فحصون بلادنا مهدمة، فيها ثغرات يتسلل منها العدو، ولا تسد هذه الثغرات إلَّا بالتضرّع إلى اللَّه سبحانه وتعالى بالسؤال «**وَاشْعَبْ بِهِ صَدْعَنَا**»، هذا الصدع في جدار بلادنا وأمتنا لا نستطيع أن نسده إلَّا بعون اللَّه ونصره، وبنظرة واحدة إلى العالم الإسلامي نهتدي إلى عمق التشتت الموجود في كل مكان، فكل جماعة تتمزق إلى قوميات وإقليميات ووطنيات مزيفة، حتى إن كل قرية تعيش بنفسها دون ارتباط جذري ببقية أجزاء الأمة، هذا هو التشتت، أما الصدع فهو أقوى من التشتت، أي إنه أظهر للعين، (فإسرائيل) في الأمة الإسلامية صدع، والغزاة في أي دولة اسلامية صدع، والحاكم الجائر في أي بلد مسلم صدع.

«**وَارْتُقْ بِهِ فَتْقَنَا**»، الفتق هو أقل من الصدع إلَّا أنه بدوره شيء يُرى، ونستطيع أن نعتبر وجود الأنظمة العميلة في البلاد الإسلامية نوعًا من الفتق الذي يجب أن تتحرك الأمة لرتقه بعون اللَّه تعالى.

«**وَكَثِّرْ بِهِ قِلَّتَنَا**»، نحن قد نكون كثيرين مشتتين فنحتاج إلى الوحدة، وقد نكون قليلين نحتاج إلى زيادة عددية، إنّ القلة -بحد ذاتها- لا تُعتبر نقطة سلبية لو كانت مجتمعة القلوب ومتآلفة النفوس، إلَّا أن هذه القلة المتآلفة يجب أن تزداد وتتضاعف حتى تشمل كل فئات الأمة الإسلامية، لذلك فإننا ندعو اللَّه بقولنا: «**وَكَثِّرْ بِهِ قِلَّتَنَا**».

«**وَأَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنَا**»، إنّ مشكلة الإنسان الذليل هي أنه شيئًا فشيئًا يشعر وكأنه خُلِق ذليلًا فلا يقاوم الظلم، والعدوان، والإذلال. إن الاستكبار العالمي

يسعى اليوم في شتى بقاع الأرض لإذلال المسلمين واستعبادهم؛ لذلك فإنه يستخدم أبشع الأساليب للتنكيل بالمسلين هنا وهناك وتقتيل عشرات الالوف منهم، واسرائيل تهتك حرمات المسلمين في فلسطين، والأنظمة الطاغوتية في العديد من بلاد المسلمين تمارس أشنع الوسائل لتحطيم معنويات الشعوب المسلمة، أليست كل هذه الممارسات العدوانية بحق المسلمين هي أساليب جهنمية لإذلال المسلمين؟ وإذا لم نقاوم كل هذه الممارسات، وإذا لم نتحوّل إلى أمة مجاهدة لكسب العزة والكرامة، فإن الذلة ستنغرس في نفوسنا: «**وَأَعْزِزْ بِهِ ذِلَّتَنَا**».

«**وَأَغْنِ بِهِ عَائِلَنَا**»، تُعتبر البلاد الإسلامية من بين البلاد الأكثر تخلُّفًا في العالم، وقد قرأت مرة تقريرًا كان يصف (بنغلادش) بأنها من أكثر البلاد تخلُّفًا في العالم، ومن الذي يعيش في هذا البلد غير الملايين من المسلمين؟. وهكذا الأمر بالنسبة لكثير من البلاد الإسلامية وبالذات الأفريقية منها والتي تعيش شعوبها حياة المسكنة والتخلُّف المريع. إننا يجب أن نعرف أن اللَّه لم يخلقنا حتى نعيش بهذا الشكل من الفقر والتخلُّف، وأن هناك أساليب ووسائل يجب أن نبحث عنها ونتبعها حتى نقضي على حياة المسكنة والتخلُّف: «**وَأَغْنِ بِهِ عَائِلَنَا، وَاقْضِ بِهِ عَنْ مُغْرَمِنَا، وَاجْبُرْ بِهِ فَقْرَنَا**».

هناك فرق بين المسكنة التي يعبر عنها هذا الدعاء بكلمة (عائلنا) وبين الفقر، والمسكنة تعني ألَّا يملك الإنسان حتى قوت يومه، بينما الفقر يعني أن حياة الفرد غير متوازنة مع حياة سائر الناس، فالفقير قد يملك بيتًا وأثاثًا جيدًا، إلَّا أنه يُعتبر فقيرًا لأنه لا يمتلك سيارة إذا كان يعيش في مجتمع كل أفراده يمتلكون السيارات الخاصة. إن بلادنا بشكل عام تُعتبر من

البلاد الفقيرة؛ وحينما يريدون تضليلنا يطلقون علينا اسم (البلاد النامية) بينما في الحقيقة بلادنا لا تنمو كما يجب، فمعدلات النمو في بلادنا أقل من المعدل الذي ينبغي أن يكون عليه. إنّ نمو السكان هو أكبر من نمو الاقتصاد، إذًا فإن بلادنا ليست نامية، والدليل هو وجود الفجوة الواسعة بين الجنوب والشمال، ويجب أن نعترف بأننا فقراء حتى نسعى للقضاء على الفقر: «**وَاجْبُرْ بِهِ فَقْرَنَا، وَسُدَّ بِهِ خَلَّتَنَا**» أي مواضع الفقر «**وَيَسِّرْ بِهِ عُسْرَنَا**» يجب على الإنسان أيضًا أن يسعى وبعون اللَّه إلى تيسير ما تعسّر من حياته، وهذا الدعاء يدفع الإنسان لكي يرفض الاستسلام إلى واقعه الصعب وحياته العسيرة بل عليه أن يسعى للتغيير نحو الأفضل: «**وَبَيِّضْ بِهِ وُجُوهَنَا**».

«**وَفُكَّ بِهِ أَسْرَنَا، وَأَنْجِحْ بِهِ طَلِبَتَنَا**»، حقّق تطلُّعاتنا عبر وليِّك الغائب الذي تبعثه لإنقاذنا، «**وَأَنْجِزْ بِهِ مَوَاعِيدَنَا**» لقد وعدنا اللَّه بأن ينصرنا على الأعداء، ونحن بحاجة إلى القيادة التي نلتف حولها لينقذنا اللَّه بها، ويُنجز وعده بنصرنا «**وَاسْتَجِبْ بِهِ دَعْوَتَنَا، وَأَعْطِنَا بِهِ سُؤْلَنَا، وَبَلِّغْنَا بِهِ مِنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ آمَالَنَا**».

إن كل آمالنا ستتحقّق، ولا يجوز أن ييأس الإنسان ويقنط من ذلك، وإنما تحقّق الآمال يحتاج إلى الوسيط وهو الحجة الغائب ومن ينوب عنه.

«**وَأَعْطِنَا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنَا**»، إننا نطلب من اللَّه سبحانه وتعالى ألَّا يقتصر فقط على الاستجابة لطلباتنا، ذلك لأن عقل الإنسان محدود، وطلباته أيضًا تكون محدودة، فندعو اللَّه الذي يعرف عمق حاجاتنا أن يعطينا أكثر ممَّا نطلب وفوق رغبتنا: «**وَأَعْطِنَا بِهِ فَوْقَ رَغْبَتِنَا، يَا خَيْرَ الْمَسْؤُولِينَ**».

مَنْ أفضل مِن اللَّه، يسأله الإنسان حاجاته؟. إذ يستطيع الإنسان أن يسأله أيَّ شيء، وفي أيِّ وقت شاء، فلا تحجبه عن عباده المؤمنين حواجب، وبابه مفتوح للداخلين، والتقرُّب إليه والسؤال منه لا يحتاج إلى شفيع ولا دليل ولا تصنّع، وهو فوق كل ذلك يُعطي السائل أضعاف ما يطلب، فهو: «**خَيْرَ الْمَسْؤُولِينَ، وَأَوْسَعَ الْمُعْطِينَ**».

هذه هي قمة الطلبات، إذ قد تكون هنالك دولة إسلامية ومجتمع مسلم، دولة تحكمها قوانين إسلامية، ومجتمع يخضع في علاقاته الظاهرية لقيم الإسلام، وقد تكون هناك حالة من الحركة والغنى والتقدّم والرفاه والعزة، ولكن يظل القلب مريضًا، فلا يستفيد الإنسان من كل تلك النعم؛ لأن القلب لا يتمتع بالعافية، والصفاء، والاطمئنان، تمامًا كالإنسان الحسود الذي وأن أمتلك كل ما في الدنيا من نِعَم، إلَّا أنه لا يرتاح له بال لأنه يحسد الآخرين على ما يمتلكون من نِعَم اللَّه.

إذًا، فإننا نحتاج إلى شيء أعظم من كل النِّعَم، إلّا وهو: شفاء الصدور والقلوب.

«**اشْفِ بِهِ صُدُورَنَا، وَأَذْهِبْ بِهِ غَيْظَ قُلُوبِنَا**»، وشفاء الصدور لا يعني فقط أن يجعلك اللَّه صابرًا وقانعًا وراضيًا ولا يعني فقط أن يصبح قلبك صافيًا من الحسد والحقد. بل وأيضًا أن يخلو قلبك من كل غيض، فإذا كنت تحمل في قلبك عقدة سقوط الاستكبار، وأعداء الدين والإنسان مثلًا: فإنك تطلب من اللَّه أن يذهب هذا الغيظ من قلبك وذلك بإسقاط أعداء الإنسانية ودحر الحكومات الشيطانية والقوى المستكبرة في العالم.

«**وَاهْدِنَا بِهِ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ**»، من فوائد الحكومة

الإسلامية والقيادة الرسالية أنها تحسم الخلافات القائمة على أساس الهداية إلى الحق والصواب: «**وَاهْدِنَا بِهِ لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم، وَانْصُرْنَا بِهِ عَلَى عَدُوِّكَ وَعَدُوِّنَا، إِلَهَ الْحَقِّ آمِينَ**». بالتالي مهما تكون هناك دولة إسلامية وحكومة إسلامية فإنه تبقى هناك مجموعات من الأعداء نأمل في الانتصار عليها، ونطلب من اللَّه أن يعيننا في ذلك.

وفي نهاية دعاء الافتتاح نشكو إلى اللَّه من المستكبرين: أصحاب القوة، وأصحاب السلطان الذين يظلمون ويقهرون المستضعفين الذين يعيشون حياة التخلُّف والتمزُّق، فنقول: «**اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ فَقْدَ نَبِيِّنَا صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَغَيْبَةَ وَلِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَقِلَّةَ عَدَدِنَا، وَشِدَّةَ الْفِتَنِ بِنَا**»، نشكو إلى اللَّه من الفتن الكثيرة التي تهجم على الأمة من كل صوب، أليست إسرائيل والأنظمة الطاغوتية ومن ورائهما قوى الاستكبار العالمي هي فتن هذه الأمة؟.

«**وَتَظَاهُرَ الزَّمَانِ عَلَيْنَا**»، فقوى الشر تغزو أمتنا من جهة، وأميركا تتآمر من جهة أخرى، وفرنسا من جهة ثالثة وبريطانيا من جهة رابعة، وهكذا تتحالف كل قوى الشر ضدنا: «**وَتَظَاهُرَ الزَّمَانِ عَلَيْنَا، فَصَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَأَعِنَّا عَلَى ذَلِكَ، بِفَتْحٍ مِنْكَ تُعَجِّلُهُ، وَبِضُرٍّ تَكْشِفُهُ، وَنَصْرٍ تُعِزُّهُ، وَسُلْطَانِ حَقٍّ تُظْهِرُهُ، وَرَحْمَةٍ مِنْكَ تُجَلِّلُنَاهَا، وَعَافِيَةٍ مِنْكَ تُلْبِسُنَاهَا، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِين**».

(13)

الإيمان بالآخرة [1]

«اللَّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ فِي الصَّالِحِينَ فَأَدْخِلْنَا، وَفِي عِلِّيِّينَ فَارْفَعْنَا، وَبِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ مِنْ عَيْنٍ سَلْسَبِيلٍ فَاسْقِنَا، وَمِنَ الْحُورِ الْعِينِ بِرَحْمَتِكَ فَزَوِّجْنَا، وَمِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ فَأَخْدِمْنَا، وَمِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَلُحُومِ الطَّيْرِ فَأَطْعِمْنَا، وَمِنْ ثِيَابِ السُّنْدُسِ وَالْحَرِيرِ وَالْإِسْتَبْرَقِ فَأَلْبِسْنَا، وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَحَجَّ بَيْتِكَ الْحَرَامِ، وَقَتْلًا فِي سَبِيلِكَ فَوَفِّقْ لَنَا، وَصَالِحَ الدُّعَاءِ، وَالْمَسْأَلَةِ فَاسْتَجِبْ لَنَا، وَإِذَا جَمَعْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَارْحَمْنَا، وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ فَاكْتُبْ لَنَا، وَفِي جَهَنَّمَ فَلَا تَغُلَّنَا، وَفِي عَذَابِكَ وَهَوَانِكَ فَلَا تَبْتَلِنَا، وَمِنَ الزَّقُّومِ وَالضَّرِيعِ فَلَا تُطْعِمْنَا، وَمَعَ الشَّيَاطِينِ فَلَا تَجْعَلْنَا، وَفِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِنَا فَلَا تَكْبُبْنَا، وَمِنْ ثِيَابِ النَّارِ وَسَرَابِيلِ الْقَطِرَانِ فَلَا تُلْبِسْنَا، وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ، يَا لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِحَقِّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فَنَجِّنَا»[2].

إن الإيمان بيوم البعث هو جزء أساس من العقائد الإسلامية التي تؤكد الأدعية، في بعض جوانبها، على ترسيخها في النفس. وتجدر الإشارة إلى

---

(١) بعد أن انتهى التأمُّل في دعاء الافتتاح الذي كان واحدًا من الأدعية الجامعة، نبدأ التأمُّل في الدعاء الصغير الذي يُقرأ عادة بعد دعاء الافتتاح، ذلك لأن دعاء الافتتاح لم يركز بما فيه الكفاية على مسألة الإيمان بالآخرة.

(٢) مفاتيح الجنان، أعمال شهر رمضان العامة، بعد دعاء الافتتاح، العمل الثاني عشر.

أن هنالك فرقًا بين ترسيخ العقيدة وبين شرحها وبيانها، فشرح العقيدة، قد يكون عبر حديث عقلائي، بينما ترسيخ العقيدة لا يكون إلّا عبر معاناة نفسية وتفاعل نفسي بين الإنسان وتلك العقيدة، مثلًا هناك فرق واضح بين أن تؤمن بالآخرة إيمانًا مبنيًّا على البراهين والأدلة العقلية، وبين أن تُؤمن بها عبر تصوّر مشاهد الآخرة. فتتصوّر مشهدك وأنت محمول على أكتاف الأصدقاء إلى مثواك الأخير، لا تعرف ما هو مصيرك، وتتصوّر نفسك وأنت مفترش على المغتسل تقلبك أيدي الصالحين من إخوانك أو جيرانك، وتتصوّر تلاشي جسمك في القبر، ثم خروجك من قبرك عريانًا ذليلًا لا تعرف إلى أين تتَّجه، تقف خمسين ألف عام في صحراء المحشر، تلك الصحراء المحفوفة بالمخاطر والأهوال، وهكذا تتصوّر النار والجنة، وتتصوّر العقاب والنعيم.

إنّ كل هذه التصوّرات هي التي ترسخ العقيدة في ذهنك وليس مجرّد الاعتقاد الاستدلالي البرهاني. إنّ الإيمان بالآخرة يجب أن يترسخ في النفس إلى درجة يجعل الإنسان هذا الإيمان جزءًا من تفكيره وتوجهاته.

يقول أحد علماء الغرب واسمه (برتراند رسل) في كتابه المسمى (في التربية): إن رجال الكهنوت يُربُّون أولادهم على الإيمان بالآخرة والعمل من أجلها.

ثم يضيف الكاتب: لكن الذي يؤمن بالآخرة ويؤمن بأنه سيعيش هناك طويلًا، خالدًا، إما في النار والعذاب، وإما في الجنة والنعيم، لا بد أن يربّي ابنه على هذا الأساس، لأنه بالنسبة إلى ذلك اليوم لا شيء، فما هي قيمة سبعين سنة إذا قيست بملايين السنين؟. هي لحظة واحدة فقط، إذًا الذي

يُؤمن بالآخرة لا يمكنه أن يعيش كما يعيش الذي لا يُؤمن بها، فهناك اختلاف واسع بين حياتهما.

جاء في بعض الأحاديث: «**عَجِبْتُ لِمَنْ أَيْقَنَ بِالْمَوْتِ، كَيْفَ يَفْرَحُ؟**»[١].

إنّ تصوّر الموت وحده، وتصوّر هذه النهاية التي لا عودة منها، يكفي لكي يجعلك لا تضحك أبدًا في حياتك، فكيف بتصوّر ما وراء الموت، والموت هو من أبسط مراحل يوم القيامة. إن الموت الذي يخافه الإنسان في دنياه، يتمناه أهل النار يوم القيامة، لأنه أسهل بكثير من أهوال العذاب والنار، تقول الآية الكريمة: ﴿**وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾[٢].

وقال بعضهم في تفسير هذه الآية: إنّ أهل النار ولضعفهم لم يتلفَّظوا القول بالتمام ولذلك اختصروا فقالوا: ﴿**لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ**﴾، يعني: سلْ ربك أن يقضي علينا، أن يميتنا، ﴿**قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ**﴾، لا خلاص لكم بموت وغيره[٣].

إذًا، فالإيمان المجرّد بوجود الآخرة، يختلف عن تصوّر الإنسان وعن المراحل التفصيلية لها. وربما تُشير إلى ذلك كلمة الظن في الآية الكريمة التالية، حينما يقول ربنا: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[٤].

---

(١) الكافي، ج٢، ص٥٩.
(٢) سورة الزخرف، آية: ٧٧.
(٣) انظر: البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ج٥، ص٢٦٩.
(٤) سورة البقرة، آية: ٤٥-٤٦.

إنّ كلمة (الظن) ربما تهدي إلى هذا (التصوّر)، أي إنّ تصوّرك للّقاء الحافل الحاسم الذي يجري بينك وبين اللّه سبحانه وتعالى، هذا التصوّر يهزُّ ضميرك، يهزُّك من الأعماق. والأدعية المأثورة تخلق لنا هذا التصوّر حينما تتعرّض لمسألة الآخرة وتفاصيل الموت والحشر والعذاب والنعيم.

والدعاء التالي الذي سنتأمل فيه قد جاء في سياق ترسيخ الإيمان بالآخرة: «**اللَّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ فِي الصَّالِحِينَ فَأَدْخِلْنَا، وَفِي عِلِّيِّينَ فَارْفَعْنَا**»، ليس المهم أن يُكتب اسمك في الجرائد والمجلات، أو يُبثّ اسمك في الإذاعة، إنما المهم أن يُدخلك اللّه سبحانه وتعالى في جبهة الصالحين، وأن يرفعك في أعلى عليين، فكم يحتاج الإنسان إلى ترسيخ إيمانه ويقينه حتى يُربِّي في نفسه هذه الصفة، حتى لا يُفكّر فيمن يتكلّم عنه، لا يفكر في الشهرة، لا يفكر في أقوال الناس حوله، وإنما يفكر -فقط- في موقف اللّه منه، وكيف ينظر اللّه إليه، وهل يرفعه في عليين أم لا؟.

إنّ التاريخ يشهد أنّ أناسًا ملكوا العالم كله، إلّا أنهم اندحروا وانتهوا لأنهم لم يكونوا من الصالحين.

فرعون كان في عصره أقوى من أمريكا وروسيا اليوم، وأقوى من كل دول العالم في عصره، ولكن أين هو فرعون اليوم؟ لم يبقَ منه إلّا جسده المحنَّط في متاحف القاهرة، جعله اللّه عبرة للآخرين.

إذًا، فليست الشهرة الدنيوية هي المهمة، إنَّما المهم هو أن يرتفع شأنك عند اللّه سبحانه وتعالى.

ومثال قرآني آخر: هل يعرف أحد أسماء السحرة الذين آمنوا برب موسى، وتمرّدوا على فرعون، وضحّوا من أجل إيمانهم؟. لا أحد يعرف

شيئًا عنهم إلّا أن اللّه رفعهم في أعلى عليين.

«**وَبِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ مِنْ عَيْنٍ سَلْسَبِيلٍ فَاسْقِنَا**»، قرأت في بعض الأحاديث أنّ هناك حوض ماء يشرب منه المؤمنون قبل الدخول في الجنة، وهو الذي يُسمّى (بحوض الكوثر)، وهذا الماء -حسب الروايات- يحمل عدة خصائص، من أهمها:

١- حينما يموت الإنسان فإن جسمه سيتغيّر كثيرًا، ثم حينما يُبعث من جديد ويُنشر في صحراء المحشر المحفوف بالأهوال، والذي يقول عنه ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيبًا**﴾[١].

فإن جسمه يصاب بتغيّرات أكثر ويصبح مشوهًا؛ وذلك لأن صحراء المحشر رغم أنها كبيرة وواسعة جدًّا إلّا أنها مزدحمة بمليارات البشر، وفيها تلال وحفر وعقارب ونيران وعذاب وظلمة، ومن جهة ثالثة فإن أكثر الناس يدخلون نار جهنم ولو لفترات قصيرة جدًّا: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**﴾[٢].

وذلك من أجل تطهير الناس من ذنوبهم، إذا لم تكن قد مُحيت بالاستغفار في الدنيا، وحينما يخرج هذا الجسم من النار يحمل، بلا شك، صورة مشوهة وعاهات مؤلمة، ولكي يتخلّص الإنسان المؤمن من تغيّرات القبر، وتشوّهات صحراء المحشر، وعاهات وأمراض جهنم، فإنه يشرب من هذا الماء قبل دخول الجنة.. هذا الماء الذي يُعيد جسم الإنسان إلى

(١) سورة المزمل، آية: ١٧.
(٢) سورة مريم، آية: ٧١.

أجمل صورته في ريعان الشباب ثم بعد ذلك يدخل الجنة.

٢- إن هذا الماء هو ماء الحياة، ومن يشرب منه فإنه لا يصيبه الموت ولا يصيبه تعب ولا نصب ولا مرض، ومن هنا فإن المؤمن يدخل الجنة شابًا جميلًا معافى من جهة، ومحصنًا ضد أية سلبيات وأمراض جسمية من جهة ثانية بفضل هذا الماء، يقول الدعاء: «**وَبِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ مِنْ عَيْنٍ سَلْسَبِيلٍ فَاسْقِنَا**».

«**وَمِنَ الحُورِ الْعِينِ بِرَحْمَتِكَ فَزَوِّجْنَا**»، «**الحُور**»: جمع حوراء، وهي تعني: المرأة ذات العين التي اشتد سواد سوادها، وبياض بياضها، أي لم يخالط البؤبؤ لون آخر غير السواد، كما لم يخالط البياض أية ألوان أخرى، و«**الْعِينِ**» جمع عيناء، وهي تعني المرأة ذات العينين الواسعتين.

إذًا فإن كلتا الصفتين تعودان إلى العين باعتبار عين الإنسان تحمل الكثير من معالم الجمال بل وتُجسِّد جمال الإنسان، باعتبار الروح تتجلّى عبر العين: «**وَمِنَ الْحُورِ الْعِينِ بِرَحْمَتِكَ فَزَوِّجْنَا، وَمِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ فَأَخْدِمْنَا**»، والولدان المخلدون هم مجموعات كبيرة من الشباب الصغار الذين يُسخِّرهم اللَّه لخدمة المؤمنين في الجنة، وتهيئة كل وسائل الراحة، والرفاه لهم، فهم يقدمون للمؤمن كل الخدمات التي يطلبها، «**وَمِنَ الْوِلْدَانِ الْمُخَلَّدِينَ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ فَأَخْدِمْنَا**»، اللؤلؤ هو شيء جميل جدًّا، ولكن قد يعتريه شيء من الغبار، أما اللؤلؤ الذي كان مكنونًا فإنه يتألّق بياضًا وجمالًا حينما يخرج إلى النور، كذلك هم الولدان المخلّدون.

«**وَمِنْ ثِمَارِ الْجَنَّةِ وَلُحُومِ الطَّيْرِ فَأَطْعِمْنَا**»، وفي الجنة ثمار ولحوم

مختلفة تُقدَّم للإنسان حسبما يشتهي، أما بالنسبة إلى الطير فإن المستفاد من الروايات هو أنّ طيور الجنة تُحلِّق في الأجواء في أسراب جماعية، وحينما يشتهي المؤمن واحدًا منها، يكفي أن يشير إليه حتى يحضر أمامه فورًا وعلى صورة طبق مشوي، والأغرب من ذلك، هو أنه بعد أن يأكل المؤمن منه فإن الطير تتجمع أجزاؤه ويعود إلى الطيران من جديد مفتخرًا على سائر الطيور لأن المؤمن قد أكل منه.

وفي الحقيقة فإن المؤمن مَلِك في الجنة، وتصبح الملائكة، والحور، والولدان، والطيور، والأشجار، والأنهار، وكل شيء رهن إشارته. وحسب ما جاء في بعض الأحاديث، فإن المؤمن يملك في الجنة من الأرض والخدم، ومن القاعات والبيوت والنخيل والأشجار ما يمكنه أن يدعو جميع أهل الأرض إلى وليمة طعام في يوم واحد.

«**وَمِنْ ثِيَابِ السُّنْدُسِ وَالْحَرِيرِ وَالْإِسْتَبْرَقِ فَأَلْبِسْنَا**»، الثوب الحرير معروف، أما السندس فهو الديباج الرقيق، وأما الإستبرق فهو الديباج الغليظ، أو الحرير المنسوج مع خيوط الذهب.

كانت هذه هي تطلُّعات المؤمن في الآخرة. أما للوصول إليها فنحن بحاجة إلى توفيق إلهي في الدنيا، يكون طريقًا للوصول إلى الجنة ونعيمها الدائم، وهو كالتالي: «**وَلَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَحَجَّ بَيْتِكَ الْحَرَامِ، وَقَتْلًا فِي سَبِيلِكَ فَوَفِّقْ لَنَا**».

فالذي يوفقه اللَّه تعالى لتغيير نفسه في ليلة القدر، والبدء بحياة جديدة يكون فيها رضا اللَّه سبحانه وتعالى، ثم يحج بيت اللَّه الحرام، مُعلنًا بذلك رفضه لكل الآلهة المزيَّفة على الأرض والطواغيت الذين يجعلون من

أنفسهم أندادًا للَّه، ثم تُدركه الشهادة مجاهدًا في سبيل دينه وربه، فإنه يكون من أهل الجنة بلا شك. والإنسان لا بد أن يدركه الموت، ولكن ما أحلى الموت حينما يأتي عبر الشهادة، وإنّ أهم فوائد الشهادة في سبيل اللَّه، هو غفران ذنوبه كلها، لأن اللَّه تعالى يشهد للقتيل في سبيله بالجنة.

«**وَصَالِحَ الدُّعَاءِ، وَالْمَسْأَلَةِ فَاسْتَجِبْ لَنَا**»، إننا ندعو اللَّه كثيرًا، ولكن بعض هذه الأدعية قد لا تكون مفيدة لنا، إذًا فإننا نسأل اللَّه أن يستجيب الدعاء الصالح من دعواتنا.

«**وَإِذَا جَمَعْتَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَارْحَمْنَا**»، تقول الروايات: إن اللَّه سبحانه وتعالى قسَّم رحمته إلى مئة جزء، نشر جزءًا واحدًا منها على أهل الدنيا، وادَّخر تسعة وتسعين جزءًا منها ليوم القيامة، فرحمة اللَّه واسعة في هذا اليوم، ولولا رحمة اللَّه لهلك الناس أجمعون، وربما نستطيع أن نقول: لولا رحمة اللَّه لما دخل الجنة أحد.

إذًا، فإننا مهما نكون صالحين ومطهَّرين من الذنوب والعاصي، فإننا نكون بحاجة إلى رحمة اللَّه في الآخرة، تمامًا كما في الدنيا.

«**وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ فَاكْتُبْ لَنَا**»، نفهم من هذا أنّ الذين لا يدخلون النار ينبغي أن تكون لديهم «**بَرَاءَةً**» مخصوصة تكون بمثابة بطاقة دخول الجنة، ويبدو من بعض الأحاديث أنّ نار جهنم تفصل بين صحراء المحشر، وبين الجنة، والذي يدخل الجنة لا بد أن ينطلق عبر جهنم، فالذي يملك «**بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ**»، فإنه يعبر جهنم عن طريق الجسر المسمى بـ(الصراط)، وهناك من يتمتع بامتيازات كبيرة فإنه يعبر جهنم في فترة قصيرة جدًّا، وقبل أن يرتدَّ إليه طرفه، أما الذي لا يملك بطاقة (البراءة) فإنه يجب أن يدخل نار جهنم

ثم يخرج منها شاقًّا طريقه إلى الجنة.

فإذا دخل من هذا الجانب، فمتى يخرج؟. اللَّه العالم؛ لأن هذا يرتبط بحجم ذنوبه وأعماله الصالحة والسيئة. وتقول الروايات: إن بعض الناس يمكث في جهنم ثلاثمائة ألف عام، لكي تُصفّى أجسامهم، وتُزكّى نفوسهم من آثار الذنوب والمعاصي، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة. إذًا فإننا ندعو اللَّه: «**وَبَرَاءَةً مِنَ النَّارِ فَاكْتُبْ لَنَا، وَفِي جَهَنَّمَ فَلَا تَغُلَّنَا**»، وفي جهنم أغلال من نار تحيط بأصحابها، والغلّ قد يكون سبعين ذراعًا بحيث يُلَفُّ به الإنسان من قدمه إلى رأسه.

«**وَفِي عَذَابِكَ وَهَوَانِكَ فَلَا تَبْتَلِنَا**»، أيّ لا تمتحننا بتسليط العذاب والهوان علينا، «**وَمِنَ الزَّقُّومِ وَالضَّرِيعِ فَلَا تُطْعِمْنَا**»، إنّ الزقوم هو نوع من أشجار النار كما تشعر بذلك الآيات القرآنية التالية التي تصف الزقوم: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ**﴾[1].

والزقوم -كما قيل- اسم شجرة صغيرة الورق، مرة، كريهة الرائحة، ذات لبن إذا أصاب جسد الإنسان أدَّى به إلى أورام خبيثة.

أما الضريع فهو نوع آخر من طعام أهل النار، تُشير إليه سورة الغاشية: ﴿**لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِنْ جُوعٍ**﴾[2].

وقيل: الضريع هو أخبث وأبشع أنواع الشوك.

«**وَمَعَ الشَّيَاطِينِ فَلَا تَجْعَلْنَا**»، كل إنسان في النار يجد إلى جانبه شيطانه

(١) سورة الصافات، آية: ٦٤-٦٦.

(٢) سورة الغاشية، آية: ٦-٧.

الذي كان يوسوس له في الدنيا، والشيطان يلاقي جزاءه في النار ويُعذَّب، إلَّا أنه يُؤذي صاحبه في الوقت نفسه أيضًا.

«**وَفِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِنَا فَلَا تَكْبُبْنَا**»، إن اللَّه وضع نار جهم أساسًا في مكان عميق جدًّا، لذلك فإن المجرمين يُكبّون على وجوههم في النار، وبعض المجرمين يُلقى بهم في نار جهنم وتستغرق فترة سقوطهم حتى وصولهم إلى قعر جهنم مدة سبعين سنة، فنسأل اللَّه ألَّا يكببنا على وجوهنا في النار.

«**وَمِنْ ثِيَابِ النَّارِ وَسَرَابِيلِ الْقَطِرَانِ فَلَا تُلْبِسْنَا**»، القطران هي مادة سوداء نتنة تُطلى بها أجسامهم فتصير كالسرابيل عليهم. والنيران تحيط بأهل النار حتى تصبح وكأنها الثياب تغطيهم.

«**وَمِنْ كُلِّ سُوءٍ، يَا لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، بِحَقِّ لا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ فَنَجِّنَا**»، فاللَّه تعالى هو القادر على أن يُنجينا من كل سوء في الدنيا والآخرة، ولكن علينا نحن أن نسأل اللَّه بجدٍّ وإلحاح أن يفعل ذلك بنا.

وفي الختام نسأل اللَّه العلي القدير أن يُوفِّقنا للتبتل إليه عبر الأدعية المأثورة.

الفهرس

في البدء **٥**

الفصل الأول: الدعاء في القرآن **١١**

١- كيف ندعو اللَّـه؟ **١٣**

أين ندعو اللَّـه؟..... ١٤

دعوة اللَّـه وحده..... ١٦

فلسفة الدعاء ١٧

أساليب الدعاء..... ٢٠

٢- ادعوني أستجب لكم..... **٢٢**

دعاء نوح عليه السلام ٢٣

دعاء أيوب عليه السلام..... ٢٤

دعاء موسى عليه السلام..... ٢٥

دعاء زكريا عليه السلام..... ٢٦

الدعاء سلاح المؤمن ٢٧

الدعاء وفطرة الإنسان..... ٢٧

الدعاء والمستكبرون ٢٨

الدعاء والتطلع ٢٩

الدعاء وفضل اللَّـه ٣٠

الفصل الثاني: الدعاء في السُّنّة ٣١
١- الدعاء سلاح المؤمن ٣٣
الأولى: سلاح المؤمن ٣٣
الثانية: عماد الدين ٣٦
الثالثة: نور السماوات والأرض ٣٧
الدعاء يرد القضاء ٣٨
ويدفع البلاء ٣٩
٢- الدعاء وتطهير النفس ٤١
لماذا تتواتر النقم؟ ٤١
دور الخمول والإسراف ٤٢
الفزع إلى اللَّـه ٤٣
الدعاء عدة ٤٤
الدعاء والرزق ٤٥
أفضل الكلام.. الدعاء ٤٦
فضّل اللَّـه أمتي بالدعاء ٤٦
الذين يعجزون عن الدعاء ٤٧
لا مضرة مع الدعاء ٤٨
٣- الدعاء وتوفير الأمن والرفاه ٥٠
ربنا يحب الدعاء ٥٢
الدعاء والاستغفار ٥٣
الدعاء والشفاء ٥٣
٤- الدعاء وضعف الإنسان ٥٧
٥- شروط الدعاء ٦٤
ماهي شروط الدعاء؟ ٦٤

الصلاة على محمد وآله ٦٤
اذكرْ حاجاتك عند الدعاء..... ٦٦
آداب الدعاء..... ٦٧
الفصل الثالث: التدبُّر في الدعاء..... ٧٧
١- مفردات الدعاء ٧٩
الأولى: الذكر ٨٠
الثانية: العقائد..... ٨١
الثالثة: التزكية ٨٣
الرابعة: الأخلاق ٨٤
الخامسة: العمل الصالح ٨٤
٢- الخطوات الأساسية في التدبر ٨٦
٣- التدبر في الذكر ٩٤
شيئان متمايزان عن بعضهما تمام التمايز:..... ٩٤
الحيُّ القيُّوم:..... ٩٩
الفصل الرابع: تأملات في دعاء الافتتاح ١٠١
١- الحمد والدعاء ١٠٣
٢- توحيد اللَّـه..... ١٠٩
٣- خزائن اللَّـه.. لا تنفذ..... ١١٨
٤- علاقة الإنسان.. باللَّـه..... ١٢٦
٥- الدعاء ومعالجة الغيب والشهود..... ١٣٦
٦- حاجة الإنسان إلى اللَّـه ١٤٥
٧- الاعتماد على اللَّـه ١٥٢
٨- معرفة الرسول ١٥٩

٩- معرفة الوصي **١٦٥**
١٠- حجج اللّـه على العباد **١٧٣**
من هو الحجة؟. ولماذا؟ ١٧٣
١١- دور الإمام المنتظر عليه السلام **١٨٠**
ما هو دور الإمام الحجة؟ ١٨٠
الأهداف الحقيقية للإنسان: ١٨٣
١٢- أسس الدولة الإسلامية **١٩١**
١٣- الإيمان بالآخرة **١٩٩**

شروح المرجع المدرسي

شرح دعاء الافتتاح

النظرة السطحية التي ينظرها البعض إلى الأدعية المأثورة، التي احتوت على كنوز معارف آل بيت الرسول ﷺ. فالأدعية -عندهم- مجرّد أذكار لا بد أن يردّدها الفرد -بوعي أو دون وعي- ليحصل على الثواب.

ولا ريب في أنّ من يقرأ دعاءً رغبةً في ثواب الله، ورجاء رحمته أو تسليمًا لأمره سبحانه فسوف يُؤتيه الله أجرًا عظيمًا، ولكن هل هذا كل هدف الأدعية؟.

أم أنّ دعاء مكارم الأخلاق هو برنامج أخلاقي متكامل، ودعاء الافتتاح هو موسوعة عقائدية شاملة، ودعاء أبي حمزة الثمالي هو زخمٌ روحيٌ وومضةٌ عرفانيةٌ، وترتيبٌ لسُلَّم الأولوياتِ عند البشر. إنّ مفردات الأدعية -لو تأملنا فيها- لكانت دروسًا في الحياة غنيّة بالمعاني الحضاريّة.

وحتى الفقهُ الإسلاميّ لا بد أن يستمدّ قيمهُ التي تستهدف مفردات الأحكام تحقيقها، يستمدّها من الأدعية. أَوَلَيس القانون -أو الحكم الشرعي- يستهدف بالتالي تحقيق قيم معيّنة، مثل إقامة الحق والعدل، وتحقيق الفضيلة، والإحسان والخير بين النّاس؟!، فمن أين يستقي هذه المثل وتحديداتها، وأولوياتها، وتقاطعاتها، أَوَلَيس من النّصوص الملهمة للحكم الشَّرعيّ، والأدعية المأثورة من تلك النّصوص!؟.

